طبعة مزيدة ومنقحة 2015

ينابيع الرجاء

الجزء الثاني

٣٠ سُنة ربانية وبشارة إلهية



د. خالد أبو شادي



طيبة

للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	ينابيع الرجاء (الجزء الثاني)
المؤلف	د. خالد أبو شادي
مقاس الكتاب	20.5 × 14.5
عدد الصفحات	272
عدد الألوان	2 لون
رقم الإيداع	2014 / 4110

موبايل: 0100 1390293 - 0100 20047865

٤٢ شارع رياض - حلوان - القاهرة

E-Mail: tibaadv@yahoo.com



الامتحان!

ما زال الامتحان قائمًا..

وساحة الصراع ملتهبة..

والمعركة على مصراعيها..

والنهر الجاري يتدفق أمام العطاش..

فمن شرب منهم فليس من الفائزين ..

ومن لم يطعمه فهو عُدَّة النصر المبين..

ألا إن هذا زمان زوغان الأبصار..

وبلوغ القلوب الحناجر..

والمتساقطين كُثُر ..

لكن لا يضرُّ الأمة اشتداد الغُمَّة..

فالعُدَّة اليوم لا العدد هي عماد القوَّة..

آحادٌ يغلبون العشرات..

وعشرات يسبقون المئات..

والفارس المغوار اليوم هو ضوء النهار..

ووريث جيش طالوت في ركب الانتصار..

هو العملة النادرة والجوهرة المنشودة..

صقلها اليقين في موعود الله..

وتسلل لها نور الوحي فَزَانَها البهاء والضياء والحياة..

فإذا ببريقها يُبدِّد ظلمات الشك ودياجير الشدة..

ويُمهِّد الطريق للمجد القادم..

وهذا الكتاب خطوة في صياغة أفراد جيل النصر المنشود.



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١]

أما بعد..



فإن مما هو معلوم وواضح أن كلا منا أسير لتصوّراته وأفكاره التي يعتنقها، لكن أفكارنا قد تكون خاطئة مجانبة للصواب، والخطأ البشري في التقدير سجنٌ لا مهرب منه في هذه الدنيا إلا بالوحي الإلهي الذي لا يكشف حقيقة الوجود ونواميسه فحسب؛ بل يبصِّر الناس بكيفية النجاة من هذا السجن والتحرر من أغلاله.

والحق سبحانه لا يقول إلا الحق، فكرامة هذه النصوص والسُّنن هي في نسبتها إلى الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ثَمَّ كان أهم ما



يؤنسنا في ابتلاء ات الحياة: لزوم الوحي، والتلذذ بتحقيق مراد الله.

إنها سُنَن الله الثابتة وقوانينه الماضية، والله سبحانه ليس له نظير، ولا شريك له يُبدِّل ما قضى، أو يستدرك على حُكمه شيئًا، ولولا ذلك لما رأينا هذه الصورة البديعة من التناسق والجمال والتوازن والاستقرار الذي يعُمّ الكون بفضل أن له ربّا واحدًا وإلها عالمًا، حكيمًا، خبيرًا، محيطًا بكل شيء، وقادرًا على كل شيء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إن السنن الربانية دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تحابي ولا تجامل، ولا تتأثر بالأماني وإنما بالأعمال، وهي من دقَّتها وانتظامها كالسنن الكونية الطبيعية سواء بسواء، ولذا لا تتغير مهما تغيَّر الزمان والمكان:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ولولا ثبات هذه السنن لما أمكن للبشر أن يسخِّروها ويستفيدوا منها، ولما كان في العالم توازن ولا استقرار، ولكانت الفوضى حينئذ هي سمت الحياة، ومن هنا تتجلى حكمة الله في صياغة نظام الكون بهذه السُّنن الراسخة.

وحين نتحدَّث عن السنن فإننا نستبعد عنصر المصادفة تماما، إذ لا يمكن للمصادفة أن تثبت نظاما أو تجعله شاملا كما هو مع حاصل السنن الربانية.

هي إذن بمثابة قوانين يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأحوالهم، وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية والضيق، والسعادة والشقاء، والعزة والمذلة، والتقدم والتأخر، والقوة والضعف، والازدهار والانهيار، ولذا كانت من منارات الطريق التي يستأنس



بها الركبان في وحشة الطريق ومشقة الرحلة. قال **عبد الوهاب عزام**:

كلما أظلم الطريق وأعيا ... وتناجت بيأسها الرُّكبان

أبصر الركب للمنازل نارا ... وهداهم إلى الديار أذان

والنظر في السنن يجعلنا أقدر على التعامل معها ومع نواميس الحياة الثابتة بلا تغير، المطردة بلا توقف، الماضية على الأفراد والجماعات، ولذا كانت معرفة سنن الله تعالى في المجتمعات البشرية لا تقل في أهميتها عن معرفة القوانين المادية وكيفية التعامل معها.

وهذا النظر هو ما نفتقده اليوم بينما نحن في أمس الحاجة إليه، والنظرة القرآنية للأحداث تجعل المسلم قادرًا على استخلاص العِبَر والتفكر الذي يُلِحّ عليه القرآن، فأمامنا تجارب الأمم الماضية التي خضعت لما يخضع له المسلمون اليوم من سُنن وقوانين، وهو ما يجرِّد المواقف الخاصة بهم من ملابساتها، ويحقِّق مراد الله بعموم العبرة من قصص القرآن إلى يوم القيامة، ولذا فكثيرا ما يرسِّخ القرآن الكريم السنن الإلهية كخلاصات معتصرة مركَّزة من تجارب السابقين.

إن انتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائيًا؛ بل وفق سنن ربانية محكمة تحكم مساره وتضبط اتجاهاته، وقد حدَّثنا القرآن عن مجتمعات أحوالها متباينة، فمنهم من عاش حياة رغدة آمنة، ومنها من أذاقه الله لباس الجوع والخوف، وهي سُنّة ماضية في كل المجتمعات التي تحيد عن منهج الله.

وحين لفت القرآن أنظارنا إلى أحوال هذه الأمم وعواقب الأمم البائدة، إنما أراد بذلك استخلاص العبر والعظات لبناء مجتمعات مؤمنة قوية وعادلة.



قال **ابن القيِّم** رحمه الله:

«الرّبّ تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النّظر في مفعولاته.

والثاني: التّفكّر في آياته وتدبّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنّوع الأوّل كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [آل عمران١٩٠]، ومثل هذا في القرآن كثير، والثّاني كقوله: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ** ﴾ [النساء ٨٢]»[١].

ولاحظ أن هذه السنن منثورة في كتاب الله، ولذا فأنت تكرّرها مع كل ختمة للقرآن، والتكرار هو تذكير مستمر دائم، لذا أمرك النبي ﷺ بتكرار ختم القرآن كل فترة لئلا تغيب عنك أنواره وقوانينه وسُننه، فقال ﷺ: «**اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في عشرين ليلة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، ولا تزِد على ذلك**»[٢].

وهذه السنن وإن كانت مقروءة في كتاب الله إلا أن القرآن قد أمرنا مع قراءتها بالسير في الأرض لتأمل آثارها وواقعها العملي، فقال تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ولأن هذه السنن متكرِّرة قد صوَّر الرسول ﷺ هذه السُنن من منظور من يرى

---

(١) الفوائد ص ٣١، ٣٢

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥٨.



المستقبل مستفيدا من تجارب الماضي فيقول: «**ليحْملَنّ شرار هذه الأمّة على سَنَنِ الذين خلَوا من قبلهم -أهل الكتاب- حذو القُذَّةِ بالقُذَّة**»[1].



تسخير السنن الربانية

لكن هذه السنن تظل مبادئ نظرية وسطور في كتاب إلا أن تتحول إلى عمل وتوضع موضع التنفيذ، وفارق شاسع بين رجلين، الأول: تشرَّب هذه القوانين واستضاء بها، والآخر سار في الظلام دون اهتداء بأنوار الوحي، فالأول يصل إلى مبتغاه، والثاني ينقطع وسط الطريق بعد أن أعياه اليأس ولفَّه الإحباط.

ويتيح فهم هذه السنن للمصلحين أن يمتلكوا القدرة على تسخير الكون وِفق الطريقة القويمة التي أمر الله بها، وبهذا نتمكن من أن نخرج من أزمة تخلّفنا، وهي نتيجة طبيعية لغفلتنا عن العلاقة بين الجهد البشري وسنن الله تعالى في الخلق.

ومن هنا قال الإمام **البنا** رحمه الله في ما يشبه الاختزالات العميقة للتجارب البشرية موصيا جمهور الدعاة والمصلحين:

«لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوِّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقَّبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»[2].

إن دراسة السُّنن بعمق تعطي المصلحين قدرة استثنائية على التنبُّؤ بنتائج الظواهر

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن شداد بن أوس كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٣١٢.
(٢) مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس ص١١٥.



الاجتماعية تنبُّؤا يقينيا، ومن ثمَّ القدرة على تسخيرها للوصول إلى غاياتهم وأهدافهم.

وهنا يحقّ لنا أن نتساءل:

هل التاريخ والأخبار مُجرَّد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والأمم؟!

هل لا يوجد منهج تحليلي يصل بين الأخبار ويحدِّد تسلسل الأحداث، ويربط المقدمات بالنتائج، والأسباب بالمسببات؟!

كلا والله.. لقد جاء المنهاج القرآني ليحدِّد منهجًا فريدًا للنظر والاستدلال في معالجة التاريخ الإنساني والسلوك الاجتماعي عبر الماضي والحاضر والمستقبل، ولذا جعل الإسلام التفكر من أسمى العبادات وأجلِّها.

وإننا اليوم في مرحلة حرجة من حياة الأمة، وإن استطعنا أن نسير وفق هذه السنن ونسخِّرها وِفق مُرادِ الله، فقد ضمنا –بإذن الله– صحوة الأمة وتفوقها لعشرات الأعوام المقبلة، وهذه السنن تجعل الكثيرين يفيقون من عدد من الظواهر السلبية المنتشرة بيننا اليوم:

- نزعة (السوداوية والتشاؤم) على وقع الأحداث الجارية، وأنه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه)، مما يدفع للاستسلام في مواجهة الشدائد والفتن.
- نزعة (المهدوية) التي تتنامى بيننا يوما بعد يوم، زاعمة أن المهدي المنتظر إن لم يكن بيننا الآن، فهو على وشك الظهور، وأنه سيتولى بنفسه جهاد (إسرائيل) وأعوانها، وسيأتي الخلاص من مآسينا على يديه، وسوف نصلي خلفه في الأقصى عاجلاً غير



آجل!

- ونزعة (دجّالية) تزعم أن القضاء على دولة اليهود لن يكون إلا في زمن الدجال؛ حيث سيقودهم في إفسادهم الأخير، وينطق عندها الحجر والشجر، أما قبل ذلك (فلا أمل) في الانتصار!

- ونزعة (أحلامية) حيث موجة من الإغراق في عالم الرؤى التي تتنافس في تحديد أقرب المواعيد ليوم دخول القدس دون أن تحدد كيف وبمن، ولكنها تتفق على أن ذلك الانتصار الساحق (المجاني) سيكون أقرب إلينا مما نتصور! ويصاحبها موجة للغوص في عالم الأرقام للخروج بتواريخ (محددة) و (أكيدة) عن زوال إسرائيل، باستخدام خواص بعض الأرقام تارة، ودلالات بعض آيات القرآن تارة أخرى، وبالرجوع إلى أخبار الفتن في كتبنا تارة، وأمثالها في التوراة والتلمود تارة أخرى.

لا بأس عندي في التبشير أن المستقبل للإسلام؛ فالفأل الحسن سُنة حسنة على ألا يكون موقفنا من هذا المستقبل انتظاره على شوق ونحن نتثاءب! فنحن أمة تؤمن بالغيب ولكنها تشارك في صنعه ونسج خيوطه بحول الله وقوته، لأننا اليوم في عالم الاختبار والتكليف؛ والخشية كل الخشية من هذه الموجة (التبشيرية) أن تتحول إلى جرعات تخديرية.

ولذا فقد قسَّم هذا الكتاب السنن الربانية إلى قسمين:

- سنن حتمية لا عمل للإنسان فيها.
- سنن شرطية ترتبط بفعل الإنسان وإرادته.



من فوائد معرفة هذه السنن الثابتة التي جاء بها الوحي كذلك أنها تصلح أن تمثِّل قاعدة مشتركة تعين المسلمين على الخروج من متاهة الاختلاف والنزاع والضعف والتشتت؛ لأنه ينقل التعامل مع هذه السنن من نطاق الفرضيات والنظريات القابلة للأخذ والردِّ إلى آفاق العلم الجازم الذي لا جدال فيه ولا اختلاف.

والمنتظر ممن يقرأ هذا الكتاب أن يمعن النظر في كتاب الله لينتفع من السُّنن، ويلاحظ الأمثلة والأحداث التي تقدِّم للمصلحين معرفة نظرية وعملية حتى لا يقعوا فيما وقع فيه مَنْ قبلهم من المحاذير والأخطاء، أو ترشدهم إلى طريق الإفاقة إذا هم وقعوا فيها، فيطمئنوا ويمضوا واثقين في صواب الطريق لأنهم يعلمون حسن عاقبتها وتسخيره، وهؤلاء مَثَلهم كمن يمشي في مفازة ومعه خريطة وبوصلة، لا كمن يضرب في تيه الأرض دون معرفة أو دليل.

إن من يغفل النظر إلى المشهد الكلي والسنن الربانية يجعل نفسه أسيرا للحظة الآنية، وتستغرقه الحوادث الجزئية، ويرتِّب عليها تصوراته، ويبني عليها أحكامه، فيخطئ ولا يصيب، ويستسلم لليأس عند أول عقبة تقابله أو مع توالي العقبات.

أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب مفتاح أمل وعمل، ومغلاق يأس وحَزَن في قلوب المصلحين، فلا تنفك عزائمهم حتى يصلوا إلى غاياتهم، ويُدرِكوا رضا ربهم، ويحصِّلوا في الجنة أعالي الدرجات وأسمى المقامات.





فاصبر إن وعد الله حق



هي آية تجمع بين الأمر وما يعين على امتثال هذا الأمر:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾

اصبر يا محمد لأمر ربك، وأَنفِذ ما أرسلك الله به من رسالة، وبلِّغ قومك ما أنزِل إليك، لا تستبطئ النصر فإنه واقع، وأيقن بوعد الله الذي وعدك بنصره، ونصر من آمن بك واتبعك.

أما لماذا الصبر؟!

وما هي مادة الصبر التي تُغذّيك؟!

ما الزاد الذي يقوّيك ويهديك؟!

إنها معرفة أن العاقبة في صالحك والكرَّة لك ولمن سار معك ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة، وهو منجِزٌ لك ما وعدك، ومنزِل العقاب بمن عاداك، ووَعْد الله حق، فتأكد أن النصر آتٍ، وفرِّغ قلبك لدعوتك، ولا تستهلكه في قلق واضطراب.

قال **القشيري** رحمه الله في التفسير:

«كن بقلبك فارغا عنهم، وانظر من بعد إلى ما يُفعل بهم، واستيقن بأنه لا بقاء لجولة باطلهم، فإن لقيت بعض ما نتوعدهم به وإلا فلا تك في ريب من مقاساتهم ذلك بعد»[١].

---

(١) القشيري ٣/٣١٦





بين وعد الله ووعود البشر!

الوعد هو البشارة بخيرٍ لم يأت زمنه بعد، وفَرْق بين وعد إنسان، ووعد الرب جل في علاه، فوَعْد البشر قد يتخلَّف لأنه يخضع لتغير الظروف، ولا يملك أي بشر كل عناصر الوفاء، ولربما حان وقت الوفاء فلا يقدر عليه، أو تتغير مشاعره تجاه من وعد فيبخل، أو يراه وقتها لا يستحق فيمنع.

وما دامت التغيرات تنتابك أو تنتاب من وعدت أو تنتاب ما تؤديه من الخير، فقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدت رغما عنك.

هَبْ أنك قلت لصاحبك مثلاً: ألقاك غدًا في مكان ما، وسأعطيك كذا وكذا، فأنت وعدتَ هذا الوعد مع أنك لا تضمن أن تعيش لغد، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك، وإنْ عِشْتُما فقد يتغير رأيك، أو يصيبك ظرف طارئ يحول بينك وبين الوفاء، وقولك: (إنْ شاء الله) يحميك من أنْ تُوصف بالكذب في حالة عدم الأداء؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله، فلا إثم عليك.

أما الوعد الحق فهو يأتي من الذي يملك كل أسباب الوفاء، ولا يمنعه عنه مانع، ولا يجوز هذا إلا في حق الله سبحانه.

وما أحلى كلمة **ابن عطاء** يبث بها الثقة في قلبك:

«لا يشكِّكَنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعيَّن زمنه لئلا يكون ذلك قدحًا



في بصيرتك، وإخمادًا بنور سريرتك».



٣ خواتيم لهذه الآية!

الأولى: تهــــديد

وبعد الأمر بالصبر قال ربنا:

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾

يقول جلّ ثناؤه:

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والنقمة أن تحل بهم.

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يَحِلَّ بهم ذلك، فإلينا مصيرك ومصيرهم، لنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقّ بأن ندخلهم النار، ونكرمك بجوارنا في جنات النعيم، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ فكيف بحالنا نحن؟!

ثم ذكر أن الله أرسل رسلاً قبل محمد ﷺ منهم من قصَّ عليه، ومنهم من لم يقصُص يعني: لم نسمِّهم لك ولم نخبرك بهم، فإنهم صبروا على أذاهم، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك كما صبروا.



الاحتمالان إذن قائمان!

أن ترى نهاية عدوك أو لا تراها ..

لكن الوعد الإلهي بالعقوبة الإلهية ليس خاضعًا للاحتمال.

الرسالة

هنـــــا: العبد عبدٌ والربّ رب!

وليس للعبد أو من مهماته تحديد ساعة الفرج ولا موعد النهايات ومصارع الطغاة.. بل الأمر في هذا إلى الله وحده.. هذا شأن الإله لا شأن العباد.. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١]، وفي هذا خلاصٌ من المشغلة النفسية المرهقة التي يفرضها سؤال: (متى نصر الله) إلى بحبوحة الساحة الواسعة: ماذا فعلت لتستحقه!



متى هو؟!

لكن تحديد تحقق الوعد في يد الله لا في يد الخلق، ولا يصحّ أن نجزم بموعد محدد لوعد الله، ولقد تعلم هذا الدرس **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه من موقف من مواقف السير، (فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ



سِنِينَ﴾ (الروم ٢-٤).

قال ناس من قريش **لأبي بكر**: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟

قال: وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن **أبو بكر** والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا **لأبي بكر**: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين؟ فسَمِّ بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه، قال: فسمّوا بينهم ست سنين.

قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن **أبي بكر**، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على **أبي بكر** تسميته ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير)[1].

ولقد وعى الصديق درس العبودية، فنصح به غيره، فلما أتى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه رسول الله ﷺ معلنا معارضته لصلح الحديبية قائلاً: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟!

فقال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به»،

فقال **أبو بكر** ناصحًا **الفاروق**:

«الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من طريق ابن أبي الزناد عن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عنه، وقال: حديث صحيح حسن غريب، وقال الألباني: إسناده حسن.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٧.





الثانية: بث الثقة

والخاتمة الثانية: قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]



لا استخفاف للمؤمن!

وعن المعنى اللغوي للاستخفاف قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«**والاستخفاف**: مبالغة في جعله خفيفًا، فالسين والتاء للتقوية مثلها في نحو: استجاب واستمسك، وهو ضد الصبر. والمعنى: لا يحملنك على ترك الصبر. والخفة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب، وهي مثل القلق المستعار من اضطراب الشيء لأن آثار الجزع والغضب تشبه تقلقل الشيء الخفيف، فالشيء الخفيف يتقلقل بأدنى تحريك، وفي ضده يستعار الرسوخ والتثاقل، وشاعت هذه الاستعارات حتى ساوت الحقيقة في الاستعمال»(١).

سمت المؤمن..

الثبات في وجه الإعصار..

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٣٥



وعدم اضطراب القلب تحت هجوم الباطل..

والحفاظ على السكينة حين يموج الناس في القلق والاضطراب من حولك، ولماذا لا يعتريك ما يعتريهم؟!

لأنك ارتشفت من جرعات اليقين المشبعة.

قال **القشيري** رحمه الله:

«الصبر في انتظار الموعود من الحقّ على حسب الإيمان والتصديق، فمن كان تصديقه ويقينه أتمّ وأقوى كان صبره أتمّ وأوفى»[1].

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى الخواطر التي تساور نفوس المؤمنين حين تشتد عليهم وطأة البلاء، ويطول بهم انتظار وعدالله، ففى ساعات العسرة يتسرب إلى القلوب شيء من القلق، وربما الشك في موعود الله، ذلك أن لكل نفس بشرية طاقة واحتمالاً وصبرًا على المكاره، فإذا بلغته فقدت القدرة على الاحتمال، وآذن الصبر بالرحيل، وعندئذ تنحلّ العزيمة، ويضعف اليقين، وتبرد حرارة الإيمان، وتتهاون النفس عن القيام بما كلفها الله به من تبليغ الرسالة، وهي حالٌ تعرض للمؤمنين، ولا يعصمهم منها إلا الثقة في موعود الله، ومعرفة القلب بسنن الله الجارية، واللّياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة الله، وفي تحقيق ما وعد المؤمنين به من نصر، وعافية مما هم فيه من بلاء، وعلى هذا المحك تتكشف حقائق

(١) القشيري ٣/ ٣١١



الإيمان، ويتميَّز الجوهر من الزيف، ليُعرف من بكى ممن تباكى..

والآية توجيه للنبي ﷺ:

يا محمد!

هؤلاء الذين لا يوقنون يُضعفون عزمك، ويقتاتون على يقين قلبك، فيزلزلون ثباتك، فإياك أن تلتفت نحوهم بقلبك، فينالوا من ثباتك.

فالتحذير منهم لازمٌ لاستكمال المسيرة..

فإنهم داءٌ ما له دواء!

الكلمة منهم سيف بتار يجتزّ عزمك ويذبح إرادتك، وهذا أشبه بالانتحار!

أنفاسهم هبَّة ريح باردة تطفئ شرارة عزمك.

وجلوسك معهم جرعة سُمٍّ تسري في دمك حتى بعد أن يفارقوك ويرحلوا عنك.

يناولون من معهم راية الاستسلام في وجه جحافل الضعف واليأس.



الثالثة: أمرٌ بالذكر والاستغفار

قال تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).



وقد جاء هذا الأمر بعد ذكر نبأ موسى وفرعون، وهي أعظم قصة بين الحق والباطل في كتاب الله.

قال **السعدي**:

«﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصًا ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما، لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور»[1].

والأمر بالاستغفار تفاؤلٌ بتحقق وعد الله لأن الله أمَرَ به باعتباره أثرًا من آثار الشكر؛ وهذه كناية عن أن نعمة النصر حاصلة لا محالة، أو هي إشارة إلى ضرورة سلوك طريق استجلاب النصر واستعجاله عن طريق الاستغفار والتسبيح.



ولم الصراع؟!

لكن ما دام النصر مضمونًا، فلم هذا الصراع المحتدم بين المؤمنين والكافرين؟!

بين الحق والباطل؟!

ولم كل هذه المشاق والعناء في سبيل الدعوة؟

إن الله تعالى يريد أن يُهيِّء الصحابة لتحمل أمانة الدعوة وحمل مشاعل النور بعد

(١) السعدي ١/ ٧٣٩



رسول الله ﷺ، لا إلى جزيرة العرب وحدها، وإنما إلى الكون كله، فكان لا بُدَّ أنْ يصنع هذه النماذج الفذَّة على عينه ليكونوا أهلا للثبات الذي لا يتزعزع، والصلابة التي لا تُكسر، وقد كان!

فالله يقول لنبيه ﷺ ومن معه:

إنا مُؤيِّدوك، وناصروك، ولن نتخلى عنك، وقد ظهر لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم، وبيَّتوا لك في الخفاء فانتصرتَ على كيدهم، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم.

إذن: فاطمئن، فنحن لهم بالمرصاد، ولن نُسْلِمك أبدًا، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب في الدنيا لتراه بعينك، أو في الآخرة بعد موتك.

ومن هذا العقاب الذي نزل بهم في الدنيا ورآه رسول الله ﷺ ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأسْر وتشريد، وإن **عمر** رضي الله عنه -وما أدراك ما **عمر**- على قوة إيمانه وعلو مكانه، قد انتابه بعض الشكِّ في موعود الله، وذلك لما نزلت: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] فتعجَّب وقال:

أيّ جمعٍ يُهْزم وأيّ جمع يُغلب؟

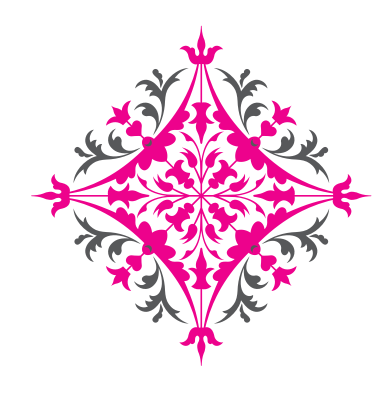
قال **عمر** رضي الله عنه:

«فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثِب في الدِّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، فعرفت تأويلها يومئذ»[1].

(١) السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ٢/ ٤٢٠ - ابن كثير - ط دار المعرفة



وهذه الآية إخبار عن المستقبل، وهي علامة من علامات النبوة، لأن الآية نزلت بمكة، وأخبرهم الله أنهم سيهزمون المشركين في الحرب، فكان الأمر كما قال ربنا ووعد، وبذا كانت الآية درسًا عمليًا من دروس اليقين، وتربية قرآنية لجيل رباني رأى بالعين المجرَّدة وعد ربهم يتحقق أمامهم، فاستشرف هذا الجيل المستقبل البعيد بناء على ما رأوا في الماضي القريب.





قُل كلٌّ يعملُ على شاكِلته



كلٌّ بهذا التنكير تُفيد العموم؛ أي أن كل الناس مشمولون بهذه القانون، فلا تصدر أعمالهم إلا بحسب شاكلتهم.



لكن ما هي الشاكلة؟

على عدة أوجه متقاربة منها:

الأول:

الشاكلة بمعنى **الدِّين**، رُوِي عن **ابن زيد**.

فالعمل الذي يصدر عن المرء معبِّر عن قوة الدين في قلبه أو ضعفه، والارتباط بينهما لا ينفك، فمن ساء عمله استدللنا بذلك على رِقَّة دينه، ومن صلح عمله فقد قوي دينه، وفي هذا ترهيبٌ للمسيئين، أن قلوبكم التي تقدمون بها على الله تُدينكم، وبشارة للصالحين أن الله مطلع على صلاح قلوبكم وقوة إيمانكم.

ويفيد هذا أن الدين أعظم باعث على الأعمال، فقوة الدين أعظم دافع للبذل والتضحية، ورِقَّة الدين سبب الوقوع في الخبائث والمظالم، وسبب الإحجام عن الطاعات والتكاسل عن القُربات.

الثاني:

الشاكلة بمعنى **الأخلاق**، فكل عبدٍ يعمل بمقتضى أخلاقه التي امتزجت بلحمه ودمه، والخُلُق سجية تجري من ابن آدم مجرى الدم كما في تعريف **الجرجاني** رحمه الله حيث



قال:

«الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسْرٍ من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة، سميت الهيئة خُلُقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقًا سيئًا»[1].

قال العلامة **ابن القيم** رحمه الله في كتاب الفوائد أثناء تفسير هذه الآية:

«أي على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن النعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله»[2].

الثالث:

الشاكلة بمعنى **العادة**، واختاره **الزمخشري والرازي** لقول الله تعالى في ختام الآية: ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ أي: أسدّ طريقًا، وأبين منهاجًا.

والشاكلة بحسب هذا الرأي هي الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها، ونشأ وتربى عليها، وأصلها شاكلة الطريق، وهي الشعبة التي تتشعب منه، وهي شُعب الطريق وفروعه.

(١) التعريفات ١/ ١٠١
(٢) الفوائد ١/ ١٧٨.



قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«وهذا أحسن ما فُسِّر به (الشاكلة) هنا، وهذه الجملة في الآية تجري مجرى المثل»[1].

كل ما اعتاده المرء يعمل به، وترك العادة رياضة صعبة، ويحتاج مئونة شديدة، وهي عسكر غالب، فمن عوَّد نفسه الخير عمل به، ومن عوَّد نفسه البغي التذَّ به.

أما **ذو الأصبع العدواني** فيقول:

كُلّ امرئٍ صائرٌ يوما لِشيمته ... وإن تخلَّق أخلاقا إلى حين

ويرى آخر أن من شبَّ على شيء شاب عليه، وأن الشيخ لا يترك أخلاقه حتى ينزل القبر، فيقول:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يُواري في ثرى رمسه

ولذا فبعض الشعراء يرى غلبة الخلق على التخلق، والطبع على التطبع، وفي ذلك يقول **محمد الاشبيلي**:

وكلٌّ إلى طبعه عائد ... وإن صدَّه المنع عن قصده

كذا الماء من بعد إسخانه ... يعود سريعًا إلى بَرْدِه

فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومُريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يُناسبه ولا يليق به سواه.

فكلّ امرئٍ يهفو إلى ما يُحبُّه ... وكل امرئٍ يصبو إلى ما يُناسِبُهْ

---

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ١٥/ ١٩٤- الطاهر بن عاشور - ط الدار التونسية للنشر.

وفيه تحريضٌ وحثٌّ لأهل الغواية والضلال أن يكونوا من أهل الهدى والاستقامة، فالأعمال مشاكلة، ومشابهة لأصحابها، فإذا ساءت الأعمال كان أهلها أهل سوء، وإذا صلحت الأعمال، كان أهلها أهل استقامة وصلاح.

وقد رأى فيها **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه ملمحًا واضحًا من معالم الرجاء وبابًا من أبواب الرحمة، فقال رضي الله عنه:



«قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، فإنه لا يشاكِل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكِل بالرب إلا الغفران»[1].

أخي..

هذه الآية مرآتك بحق!

ترى فيها دينك وأخلاقك وما ترعرعت عليه من عادات!

هي الكاشفة الفاضحة لسريرتك وما خفي من أحوالك.

لتحمد الله إن كنت محسنًا، وتستعين به على ضعف نفسك وسوء أخلاقك والخلل الذي اعترى نشأتك إن رأيت غير ذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٢٢



سنستدرجهم من حيث لا يعلمون





في المعنى اللغوي للاستدراج يقول **الماوردي** رحمه الله:

«وفي اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء.

والثاني: أنه مشتق من الدرجة لانحطاطه من منزلة بعد منزلة»[1].

وفي مزيد إيضاح قال **ابن حجر العسقلاني**: «وأصل الاستدراج التَّقْريب منزلة منزلة من الدَّرْج لأنَّ الصَّاعد يرقى درجة درجة»[2].

«الاستدراج» إذن من الدَّرج، فمن المحال أن يقفز الإنسان بخطوة واحدة إلى الدور العاشر مثلاً، وهذا يعني أننا ندرج إلى العلو لنصل إليه، وحين تقول: أنا استدرجت فلانا، فأنت تعني أنك احتلت عليه حتى توقعه في ما يحذر، والله يُملي للظالمين، أي يأخذهم درجة درجة، ويتابع لهم في إدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يشعرون أنه استدراج لهم، بل يزعمون أنه إيثار وتفضيل لهم على المؤمنين، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه، ويعليهم إلى شاهق، ثم يقذف بهم من علٍ كما قال سبحانه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

قال **المناوي** رحمه الله:

«والمراد هنا تقريب الله العبدَ إلى العقوبة شيئًا فشيئًا، واستدراجه تعالى للعبد أنه كلما جدَّد ذنبا جدَّد له نعمة، وأنساه الاستغفار، فيزداد أشرا وبطرا، فيندرج في المعاصي

(١) تفسير الماوردي ٢/ ٢٨٣ النكت والعيون
(٢) فتح الباري ٨/ ٣٠١



بسبب تواتر النعم عليه ظانًا أن تواترها تقريب من الله، وإنما هو خذلان وتبعيد»[1].

فالنعمة في حقهم هي عين الهلاك..

والسعة هي أصل الضيق..

واسمع قول ربك في آية الاستدراج الأشهر: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦].

﴿بَل﴾: تفيد نفي ما قبلها وإثبات ما بعدها، فلا تنعُّم لهؤلاء؛ لأنها نعمة موقوته وزائلة، وهي في حقيقتها نقمة، فلا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذي يُدبَّر لهم، وحين يريد الله الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً، ويُوسِّع عليه ويُعلي مكانته، حتى إذا أخذه كان أَخْذه مؤلمًا وشديدًا.



خوف الصحابة منه

قال **الشَّافِعِي** رحمه الله:

أخبرنا من أهل العلم أنه لما قدم على **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه بما أصيب بالعراق، قال له صاحب بيت المال:

ألا أدخِلُه بيت المال؟!

(١) فيض القدير ١/ ٣٥٤



قال: لا ورب الكعبة! لا يُؤوى تحت سقف بيت حتى أقسِّمه، فأُمِر به فوُضِع بالمسجد، ووُضِعت عليه الأنطاع، وحرسه رجال المهاجرين والأنصار، فلما أصبح غدا مع **العباس بن عبد المطلب وعبـــد الرحمن بن عوف** رضي الله عنهما، أخذ بيد أحدهما، أو أحدهما أخذ بيده، فلما رأوه قشطوا الأنطاع عن الأموال، فرأى منظرا لم يُرَ مثله، رأى الذهب فيه، والياقوت، والزبرجد، واللؤلؤ يتلألأ، فبكى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، فقال له أحدهما: -إنه- والله ما هو بيوم بكاء، ولكنه يوم شكر وسرور.

فقال:

إني والله ما ذهبت حيث ذهبتَ، ولكنه والله ما كثر هذا في قوم قط إلا وقع بأسهم بينهم، ثم أقبل على القبلة، ورفع يديه إلى السماء وقال:

«اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرَجًا، فإني أسمعك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾»[1].

وقد نصَّ الحديث الصحيح على ذلك صراحة:

«إذا رأيتَ الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج»[2].

وهذا حريٌّ بأن يُلقي الخوف في قلب كل مؤمن.

(١) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٣٩٨، ١٣٩٩ - جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه) دار التدمرية

(٢) رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٢



قال **إمام الحرمين**:

«إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم في النار فلا تأمن على نفسك! فإن الأمر على خطر، فلا تدري ماذا يكون وما سبق لك في الغيب، ولا تغتر بصفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات»[1].

ولما قيل **لذي النون** رحمه الله: ما أقصى ما يُخدَع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات!

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وفي الحكم العطائية:

خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجًا.



خمسة أوجه للاستدراج

والاستدراج فيه خمسة أوجه كما قال **الماوردي** رحمه الله:

«فيه خمسة أوجه:

أحدها: سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، قاله **السدي**.

(١) فيض القدير ١/ ٣٥٤



الثاني: نتبع النعمة السيئة وننسيهم التوبة، قاله **الحسن**.

الثالث: نأخذهم من حيث درجوا ودبوا، قاله **ابن بحر**.

الرابع: هو تدريجهم إلى العذاب بإدنائهم منه قليلاً بعد قليل حتى يلاقيهم من حيث لا يعلمون، لأنهم لو علموا وقت أخذهم بالعذاب ما ارتكبوا المعاصي وأيقنوا بآمالهم.

الخامس: ما رواه **إبراهيم بن حماد**: قال **الحسن**: كم من مُستدرَجٍ بالإحسان إليه، وكم من مغبونٍ بالثناء عليه، وكم من مغرورٍ بالسَّتر عليه»[1].



وهؤلاء المستدرجون هل يحبهم الله؟!

هل لهم عند الله كرامة ؟!

هل لديهم مقامٌ عند ربهم وما درجتهم؟!

كلا والله..

بل لا يشعرون أنه استدراج، ولا يحسون بصعوبة الاختبار.

جاء في التفسير:

«بل هُم لا يشعرونَ بشيءٍ أصلاً كالبهائمِ لا فطنة لهم ولا شعورَ ليتأمَّلوا، ويعرفُوا أنَّ ذلكَ الإمدادَ استدراجٌ لهم، واستجرارٌ إلى زيادةِ الإثمِ، وهُم يحسبونه مسارعةً لهم في الخيراتِ»[2].

(١) النكت والعيون ٦/ ٧٢
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٩



وقد شبَّه (الحال التي يستدرج الله بها المكذِّبين مع تأخير العذاب عنهم إلى أمد هم بالغوه، بحال من يهيىء أخذا لعدوه مع إظهار المصانعة والمحاسنة ليزيد عدوه غرورا، وليكون وقوع ضُرِّ الأخذ به أشد وأبعد عن الاستعداد لتلقيه)[١].



أشكال الاستدراج

وللاستدراج أشكال أخرى منها انتشار الصيت والشهرة عند الناس مع خمول الذكر عند الله، وهو ما قاله **القشيري** رحمه الله: «الاستدراج انتشار الصيت بالخير في الخلق، والانطواء على الشر - في السِّر - مع الحق»[٢].

وقد يصاحب هذه الشهرة نـوع من أنواع العمى القلبي، فلا يبصر الإنسان المشتهِر عيوب نفســه، يخدعه ثناء الناس عليه، فتتراكم عيوبه، ويسودّ قلبه، هلكة من بعد هلكة، وبذلك يُساق المسكين إلى مصرعه، ويهوي إلى مقتله، فقال **السَّرِيّ السَّقطي** رحمه الله:

«مِنْ علامة الاستدراج العمى عن عيوب النَّفْس»[٣].

وحين يَستدرج واحدٌ من البشر غيره، فإن الطرف المستدرَج قد يكون صاحب ذكاء وفطنة، ويعرف من ألوان الحيل والمكائد ما يحتاط به ويأخذ حِذره، وأما حين

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٩٣
(٢) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٣٩٨ - ١٣٩٩ - جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه) دار التدمرية
(٣) كتاب الزهد الكبير ١/ ١٥٨ - أبو بكر البيهقي - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت



يتعلَّق الأمر بالرب القوي الجبار فهيهات، وهو الذي إذا استدرج فلن يعرف أحد كيف يفلت منه، ولذا قال: ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض ومكائدهم البشرية، لكنهم لا يعرفون كيد الله ومكره، ومن ثم لا يُفلِتون.



الرسالة هنا:

مطلوب منك نظرة ثاقبة إلى حالك في جلسة تفكر.

هل ترفل في نعم الله مع بعدك عن الله، فتكون مستدرجا؟

أم تقابل نعمه عليك بشكرها، وترد الإحسان بالإحسان، فتكون شاكرا؟!

والتنبيه هنا:

لا تغتروا يا أهل الحق بما وسَّع الله به على أهل الباطل من أموال، وأمدَّ لهم في السلطان والبنيان، فما قيمة مُلكٍ مصيره النار غدا؟!

وماذا يساوي القصر الضخم المشيد إذا تناولته معاول الهدم والتدمير بعد أيام؟!

وما معنى أن يعيش المرء في غاية التنعم والرفاهية إذا كانت الخاتمة خلودا في سَقَر؟!

أفيقوا!



أليس الله بكافٍ عبده؟!



هذا القانون في ألفاظه إنكارٌ ونفيٌ لمن ظنَّ عدم كفاية الله له، وذلك على أبلغ وجه وكأن هذه الكفاية مؤكَّدة ومحسومة وظاهرة لكل الناس بحيث لا يجرؤ أحدٌ على إنكار حصولها، أو يتفوَّه بعدَمِها، أو يتلعثم في الإقرار بوجودها، وهذه الصيغة مبالغة في الإِثبات، (والعبد هنا هو رسول الله ﷺ، ويحتمل الجنس ويؤيده قراءة **حمزة والكسائي** «عباده»)[1]، أي كل عباده، وهو الأصح.

قال **ابن رجب** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾:



«فمن قام بحقوق اللهَّ عليه فإنَّ اللهَّ يتكفل له بالقيامِ بجميع مصالحِهِ في الدنيا والآخرةِ، ومن أرادَ أن يتولَّى اللهَّ حفظَه ورعايتَه في أموره كلِّها فليراع حقوقَ اللهَّ عليهِ، ومن أرادَ ألا يصيبَه مما يكره فلا يأتِ شيئًا مما يكرهُه اللهَّ.

كان بعض السلفِ يدور على المجالسِ ويقولُ: من أحبَ أن تدومَ له العافية فليتقِ اللهَّ»[2].

قال **العمريّ الزاهد** لمن طلبَ منه الوصية:

«كما تحبّ أن يكونَ اللّه لك، فهكذا كن للّه عز وجل»[3].

ولا يملك المؤمن إلا أن يقول في إجابة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/ ٤٣- البيضاوي - ط دار إحياء التراث العربي
(٢) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) ٢/ ٢٧٠
(٣) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) ٢/ ٢٧١



بلى.. لكل مهمومٍ أحاطت به المصائب والكروب من كل جهة.

مظلومٍ تكاثرت عليه أيدي الشر.

مُتعَب أرَّقته الحياة طويلاً، فما عاد ليله ليلاً ولا نهاره نهارًا.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾

أي الله وحده هو الذي يدفع عن عباده الآفات،

ويزيل عنهم المصائب والويلات،

ويحقِّق لهم الأمنيات والمشتهيات،

وذلك بشرط أن يتوكلوا عليه،

فإذا توكَّل العبد على ربَّه وقع بين لطف وعطف،

وكأنهما وسادتان هوائيتان يسقط عليهما المصاب وأي صاحب محنة،

فلا يصاب بأدنى خدش!

وإذا سلِم قلب المصاب فقد سلِم!

قال **ابن القيِّم** رحمه الله:

«ومتى صحَّ تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور: العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدَّره»[1].

---

(١) حسن: رواه الحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٨٩



هي ليست كلمات تتزين بها الصفحات، وتحشو بطون المقالات، وإنما وصايا تنطق بها ألسنة الصالحين، وتتواصى بها قلوب المتقين، فتغدو عهودًا ومواثيق يُبرِمها الرجال، والمؤمن لا ينقض عهده ولا يُخلف وعده، وبهذا كانوا يكتبون إلى بعضهم كما حكى ذلك **عون بن عبد الله بن عتبة** رحمه الله:

«كان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات، وتلقاهُنَّ بعضُهم بعضا:

من عمل لآخرته كفاه الله دنياه.

ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين النَّاس.

ومن أصلح سريرته أصلح اللهّ علانيته»[1].

وهذه الكفاية مكافأة وجائزة، اختص الله بها من جمع همَّه في جهة واحدة: ناحية السماء، وبهذا نصَّ حديث النبي ﷺ:

«من جعل الهموم همًّا واحدا همَّ المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك»[2].



كفتاه!

وقد جاءت هذه الكفاية لمن عبد الله حقَّ عبادته، وكان مما حافظ عليه أوامر رسول

(١) الزهد لوكيع ١/ ٨٤٨ - مكتبة الدار، المدينة المنورة
(٢) حسن: رواه الحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٨٩



الله ﷺ، فنفَّذ منها هذه الوصية:

«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[١].

ذكر الحافظ **ابن حجر** رحمه الله عدة أقوال في معنى **«كفتاه»** في فتح الباري عند شرحه لكتاب فضائل القرآن كما يلي:

القول الأول:

بمعنى أجزأتاه عن قيام الليل، فلو قرأهما قبل نومه ولم يستطع تلك الليلة أن يقوم الليل فقد **كفتاه** عن ذلك.

القول الثاني:

أنهما **كفتاه** قراءة القرآن، سواء كان يقرأه في الصلاة أو في غير الصلاة.

القول الثالث:

أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالاً فكل العقيدة موجودة ومتضمنة في هاتين الآيتين، لأنهما اشتملتا على أمور الإيمان وأعماله وأصوله جميعاً، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

القول الرابع:

أنهما **كفتاه** من كل شر، فلو قرأ في ليلته هاتين الآيتين **لكفتاه** من كل شر، وينام ليلته تلك آمنًا مطمئنًا بإذن الله.

(١) صحيح: رواه الأربعة عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٦٥

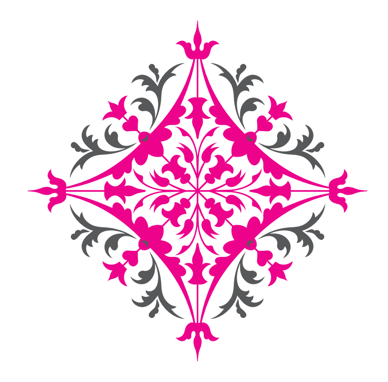


القول الخامس:

وهو أخص مما قبله، أنه بمعنى **كفتاه** شر الشيطان، فمن قرأهما فقد كفي شر الشيطان اللعين.

القول السادس:

كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب أي شيء آخر»[1].



(١) فتح الباري ٩/ ٥٦



مَن يهد الله فهو المهتد



لا يكون العبد مهتديًا إلا إذا هداه الله سبحانه وتعالى، وإذا كتب الله على عبده الضلالة فلا يمكن أن يهتدي مهما كان عقله أو فهمه أو فطنته وذكاؤه، لأنه لا يرشد إلى الحق إلا الله سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ (يونس: ٣٥).

والله إن الهداية لا تتحقق بتفكير فيلسوف، أو ذكاء عبقري، أو رجاحة عقل، فالعقل والفكر والذكاء والفطنة من أسباب الدلالة على الحق ومعرفته، غير أن الأمر أولاً وأخيرًا بيد الله وحده.

وقد تتحقق معرفة الله لدى العبد، وتنكشف له الأدلة والبراهين على وحدانية الله ورحمته وقدرته، ومع ذلك لا يُوَفَّق للهداية.

وهذا ما يجعل الإنسان متذكرًا نعمة الهداية، التي أنعم الله عز وجل بها عليه، في حين حُرِم منها من هو أكثر منه مالاً، وأكثر ذكاءًا.

لم تهتد زوجتا أنبياء الله **نوح ولوط** عليهما السلام، وآمنت زوجة **فرعون** وهو الذي بارز الله تعالى في ألوهيته!

لم يهتد **أبو طالب** وهوالذي حمى رسول الله ﷺ وآواه، وكتب الله الهداية **لعكرمة بن أبي جهل** بعد أن أحلَّ رسول الله ﷺ دمه وأمر بقتله ولو تعلق بأستار الكعبة!

ولهذا كان رسول الله ﷺ عند الشدائد يتمثَّل هذا المعنى، فكان وهو ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرَّ بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلينا



فأنـزلن سكينة علينـــا	وثبِّت الأقـدام إن لاقينـا
إن الأولى قـد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنـــة أبينـــا

يرفع بها صوته: أبينا أبينا»[(١)].

وقد تأمل في سبب الهداية ابن الجوزي رحمه الله، فأهدى لنا هذه الفائدة بعد أن صادها من بُنَيات أفكاره وأودعها كتابه (صيد الخاطر)، فقال:

«تفكَّرت في سبب هداية من يهتدي، وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق -عز وجل- لذلك الشخص، كما قيل: إذا أرادك لأمر، هيأك له»[(٢)].

ثم قرَّر سبب هدايــة ولده وفلذة كبــده، ومشيئة الله التي نفـذت في هذا الأمر فقال:

«والله ما ينفع تأديب الوالد إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد، فإنّه سبحانه إذا أراد شخصا ربّاه من طفولته، وهداه إلى الصَّواب، ودلّه على الرَّشاد، وحبَّب إليه ما يصلح، وصحبه من يصلح، وبغَّض إليه ضدّ ذلك»[(٣)].

ولهذا جاء في الحديث القدسي:

«كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدِكم».

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوة إيمانه التي أرهبت منه شياطين الإنس

---

(١) صحيح: متفق عليه مشكاة المصابيح رقم: ٤٧٩٢
(٢) صيد الخاطر ١/ ٣٦٦
(٣) صيد الخاطر ٢٩٩



والجن حتى فرَّت منه يقول:

«اللهم اعصمني بحبلك، وارزقني من فضلك، واجعلني أحفظ أمرك»[1].

وهذا يدلُّ على تفاوت الناس في الهداية بناء على طلبهم إياها من الله، وعلى ما يعطيهم الله منها، فليسع الإنسان إلى تحصيل أكبر قدر ممكن من الهداية عن طريق قرع باب الله، فالطريق واضح والأبواب مشرعة على مصراعيها للسالكين.



معنى الهداية!

والهداية في الْقُرْآن على أربع معان، «فتكون الْهِدَايَة بمعنى الإلهام، وتكون بمعنى الإرشاد، وتكون بِمَعْنى الْبَيَان، وَتكون بِمَعْنى الدُّعَاء.

أما الإلهام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أَي: ألهم.

وَأما الْإِرْشَاد، قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

وَأما الْبَيَان قَوْله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] أَي: بَينا لَهُم.

وَأما الدُّعَاء، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أَي: دَاع فهو بمعنى الاسترشاد هاهنا»[2].

(١) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ٦/ ٦٥ - أبو بكر بن أبي شيبة - مكتبة الرشد - الرياض
(٢) تفسير السمعاني ١/ ٣٨



ولذا قال الإمام **القشيري** رحمه الله في معنى ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ التي ندعو بها في اليوم والليلة على الأقل سبع عشرة مرة، والتي أمر الله بها في كل صلاة لفرط الحاجة إليه:

«ومعنى اهدنا أي مِلْ بنا إليك، وخذنا لك، وكن علينا دليلنا، ويسِّر إليك سبيلنا، وأقم لنا هممنا، واجمع بك همومنا»[1].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أيْ:

«دُلَّنا عليه، واسلكْ بنا فيه، وثبِّتنا عليه»[2].

كيف يسأل المؤمن الهداية أثناء اتصافه بذلك بالفعل لأنه مشغول بأفضل القربات وهي الصلاة؟

فهل هذا من باب تحصيل الحاصل؟

يقول **ابن القيم** رحمه الله في كلام بديع:

«إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟

فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم.

وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه.

وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك.

وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى

(١) القشيري ١/ ٤٩

(٢) الواحدي ١/ ٨٩



الهداية التامة.

فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

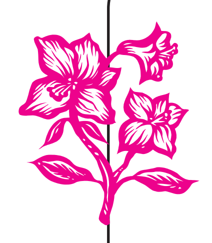
وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة.

وهو الصراط الموصل إليها.

فمن هُدِي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه»[1].

ولولا احتياج العبد للهداية ليلاً ونهارًا لما أرشدنا الله إليها كل يوم سبعة عشرة مرة، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها.

قال **ابن تيمية** رحمه الله:



«فالنَّاس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء، ولهذا فَرَضه الله عليهم فِي كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدُّعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصِّراط المستقيم حصل النَّصر والرزق وسائر ما تطلب النُّفوس من السَّعادة»[2].

(١) التفسير القيم ١/ ١٣
(٢) الفتاوى ١/ ٢١٧-٢١٨

ضالون يحسبون أنهم مهتدون!

ولأن الإنسان قد يضل ويحسب أنه مهتدي، ويُفسد ويظن أنه يحسن صنعًا، ولأن تلبيس إبليس قد يصوِّر الباطل حقًا، فقد علمنا النبي ﷺ أن نستعين بالله الهادي إلى صراط مستقيم، وأن ندعو بهذا الدعاء الذي كان يستفتح به صلاته من الليل:

«اللهم! ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل!

فاطرَ السماوات والأرض! عالمَ الغيب والشهادة!

أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون:

اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛

إنك أنت تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

والهداية في الدنيا هي ثمن هدايتك في الآخرة إلى مقعدك من الجنة، وعندها الفرحة التي لا توصف، ولولا أنَّ الله كتب عليك أن لا تموت لمت من شدة الفرح، وقد أخبر النبي ﷺ عن مشهد يشهده كل الناس غدًا.. أهل الجنة منهم أو أهل النار، فقال:

«كلّ أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فيكون عليه حسرة»[2].

---

(١) صحيح: صحيح أبي داود رقم: ٧٤٣

(٢) حسن: رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥١٤.



وأخيرًا..

هما صراطان:

معنويٌّ وحِسِّيٌّ، فالمعنويُّ: صراط الهدايةِ والإيمانِ، والحسيُّ: صراط على متْنِ جهنم، فصراط الإيمان على متن الدنيا الفانية، وسيرنا غدًا على الصراط في الآخرة في السرعة والبطء بحسب سرعة سيرنا على صراط الله المستقيم اليوم، فأسرعنا سيرا هنا أسرعنا هناك، وأبطأنا هنا أبطأنا هناك، وأشدنا ثباتًا على الصِّراط المستقيم هنا أثبتنا هناك.

ولما كان سالكوا الصراط المستقيم قِلَّة وأكثر الناس عنه ناكبون، ولذا شرع الله لنا في الفاتحة أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم، لتزول عنا وحشة التفرد وآلام الطريق.



- إن هداية سحرة فرعون، وثقتهم في وعد الله مع ثباتهم على الحق، وتضحيتهم بالمال والجاه والنفس، وصبرهم على القتل والصلب شيء عجيب مذهل يستحق التأمل وأخذ العظة والعبرة.

- هؤلاء الذين عاشوا عمرهم في الكفر والضلال وإعانة الطغاة، ومع ذلك لما تبين لهم الحق جهروا به أمام واحد من أعتى الجبابرة وأشدهم ظلما وطغيانا، ولم يتذرَّعوا بعلل كثيرة من الخوف على النفس أو المال أو الجاه، ولم يرضوا



بكتمان إيمانهم وإيثار العافية.

- هؤلاء ذاقوا الطفرة الإيمانية واللحظة الهدائية الفارقة، ففي لحظة واحدة تحولوا من سحرة كفارٍ فجرة إلى أتقياء شهداء بررة!

- هؤلاء لم يتدرجوا في مدارج الإيمان درجة درجة، لكن المذهل أن إيمانهم قفز في يوم واحد من نقطة الابتداء إلى قمة الارتقاء، مما جعلتهم يبيعون الدنيا بكل إغراءاتها ونعيمها رخيصة في سبيل دينهم الذي اعتنقوه منذ لحظات!

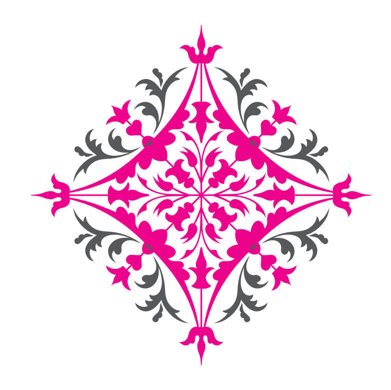
- هؤلا لم يخضعوا لسطوة الترغيب ما بين مال طائل: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وجاه ومنصب وقرب من السلطان: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ولم يرهبوا سطوة الترهيب وقد توعَّدهم فرعون ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، فاستقبلوا الأهوال برد قوي قاطع لا تردد فيه أو تذبذب: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

- إن منبع الهداية من الله وحده، فهؤلاء السحرة لم يجالسوا **موسى** عليه السلام يومًا، ولم يتربوا على يديه، وليس من تفسير لهذا الهداية سوى الاجتباء الإلهي والفتح الرحماني والمدد الرباني.

وهنا إشارة: إن قدر الله وتوفيقه وفضله يتجاوز كل العوائد والأعراف البشرية، فدعوكم من حسابات الدنيا وتعلقوا بالسماء !!



وهو ما يفتح أوسع أبواب الرجاء لكل عاصٍ ومسرفٍ على نفسه ألا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من محاولات إصلاح نفسه، فهو -مهما بلغ- لم يبلغ مبلغ هؤلاء السحرة في الكفر والضلال والصَّد عن سبيل الله، ومع ذلك لما تابوا قبلهم الله، بل وقلَّدهم أعظم وسام.. وسام الشهادة!





وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً



وخلاصة شرح هذا القانون في جملتين اثنتين، وهو من أحسن ما قيل فيه:

«**أن ما أخبر الله به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل**»[١].

ومن متطلبات هذا الصدق وواجباته العملية نحو القرآن أن «علينا أن نُصَدِّقَ به، لا نُعَارِضُه ولا نُعْرِض عنه، ومن عارضه بعَقْله لم يُصَدِّقْ به، ولو صدَّقَه تصديقًا مُجْمَلاً، ولم يُصَدِّقْه تصديقًا مفَصَّلا في أَعْيَانِ ما أخبر به لم يكن مؤمنًا، ولو أقرَّ بلفظه مع جَحَد معناه أو صرَفَه إلى معانٍ أُخَر غير ما أُريد به لم يكن مُصدِّقا، بل هو إلى التكذيب أقرب»[٢].

وكلمة الله في القرآن نوعان: **الخبر والتكليف**.

أمـا الخبـــــر..

فالمراد به كل ما أخبر الله به، ويدخل فيه أخبار السابقين، ويتعدى إلى المستقبل ليشمل وعد الله ووعيده وثوابه وعقابه، بما في ذلك الإخبار عن الغيب، ولأن إخلاف الله وعده أو وعيده مُحال، فقد جاء وصف الله كلماته الخبرية بقوله: (صدقًا)، والصّدق في اللغة هو المطابقة للواقع، ومعناه تحقق الوعد وإنفاذ الجزاء.

وأما التكليف..

فيدخل فيه كل أمر ونهي، وصفة هذا التكليف كما وصفه الله: (وعدلاً)، والعدل هو إعطاء من يستحق ما يستحق، ورفع الظلم عن المظلوم، وتدبير أمور الناس بما فيه

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ١٦٨-١٦٩
(٢) المدارج ١/ ٤٤



صلاحهم، ويشمل حسن تدبير شئون الخلائق في الدنيا والآخرة.

ومباحث القرآن كلها منحصرة في الخبر (صدقًا)، وفي التكاليف (عدلاً)، فكتاب الله هو الصادق في أخباره، العادل في أحكامه، فكل ما وعد الله بحدوثه في المستقبل فهو صدق، وبعد وقوعه عدل، وليس في أخباره ما يخالف الواقع أو يتخلف عنه، ولا في أحكامه على ما يخالف العدل؛ وهذا ضربٌ من التحدي تحدى الله به الشاكّين والمعاندين.

لكن ما معنى تمام كلمته هنا؟!

قال الإمام **الرازي** رحمه الله:

«وفي تفسير هذا التمام وجوه:

الأول: ما ذكرنا أنها كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام.

والثاني: أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة عملاًوعلمًا.

والثالث: أن حكم الله تعالى هو الذي حصل في الأزل، ولا يحدث بعد ذلك شيء، فذلك الذي حصل في الأزل هو التمام، والزيادة عليه ممتنعة، وهذا الوجه هو المراد من قوله ﷺ:

«جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[1].

(١) فتوح الغيب للرازي ٢/ ١٦٨



وهذه الكلمة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قد استوعبت كل مناحي الحياة إلى أن تقوم الساعة، وقد قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾، فلم ينس حرفًا أو يبدِّله؛ بل بقي القرآن وسيبقى كما أُنزِل، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء في كتاب الله خبرا من الأخبار أو حكما من الأحكام؛ ومع أن لفظ (كلمة) مفردة لكنها تعطي معنى الجمع، فكلام الله سماه (كلمة) لأنه لا يحتمل إلا مدلولا واحدا، والكلمة الواحدة يستحيل أن يكون فيها أدنى تضارب، وكأن الله يقول لكل مؤمن:

اطمئِن! فأن القرآن الذي بين يديك هو هو إلى الأبد، ولن يتغير فيه كلمة ولا حرف من سنن الله أو وعوده.

وفيها إيناس لرسول ﷺ وتطمين له وللمؤمنين بحلول النَّصر، فكل وعد رباني غير متخلّف، وهي بشارة للمؤمنين في كل عصر ومصر كما في وعد الله لبني إسرائيل:

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾

أي تَمّ ما وعدهم به من امتلاك مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، وفي الآية كذلك تهديدٌ للمجرمين أن سيحلّ عليهم الوعيد الذي توعّدهم الله به كما في قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.



وأكَّد التمام وعبَّر عن هذا التأكيد بعدم التبديل فقال: (**لا مبدِّل لكلماته**)، والتّبديل



هو جعل شيء مكان شيء آخر، وقد يكون في:

- الذوات كقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

- والصّفات والأحوال كقوله تعالى:

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

- الأقوال: وهو إخلاف الميعاد، وهو سبحانه لا مبدِّل لكلماته ولا يخلف ميعاده ولا وعيده ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [ق: ٢٩].

- فإذا نفى الله وجود المبَدِّل لكلماته، فهذا كناية عن نفي حدوث أي تغيير، وهو انتفاء ما ينقض كلمات الله أو يُبطل وعده أو يُعارض أمره، كما حاول بعضهم ذلك ففضحهم الله بقوله:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥].

أي يخالفوا حكم الله في غنائم خيبر، ويغيِّروا وعد الله الذي وعده أهل الحديبية، فمنع الله الذين تخلَّفوا عن الحديبية من الغنائم، لأن الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان عوضا لهم من غنائم أهل مكة، وخاصة أنه كان قد وعدهم بفتح قريب، فأمر الله الصحابة أن يردوا عليهم:

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾



إن كلمات الله أزلية أبدية، والأزلي لا يزول، ولا يقدر أحدٌ على أن يغيِّر سنَّة من سنن الله في الكون، أو أن يقف في وجه ما قضاه الله وقدَّره، فتكون هذه العبارة تأكيدا لقوله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، وقد جاءت تذييلاً لآية أخرى في وعد الله بالنصر لأوليائه:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فسبحان ربي ما أعظمه وما أجل شأنه! يغرس بهذه الآية اليقين في أمره الجازم بما ينفي الشكوك ووساوس الشيطان عن القلوب، ويطرد اليأس والتشاؤم من الأرواح، وهي تحذير كذلك من أن نخالف سنن الله ولا نسايرها.



سلاح المؤمن!

وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات، ففي الحديث الذي رواه **أحمد والطبراني** عن **عبد الرحمن بن خنبش**



قال رسول الله ﷺ:

«أتاني جبريل، فقال: يا محمد! قل، قلت: وما أقول؟ قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وبرأ، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شرِّ كلِّ طارق إلا طارقا يطرق بخير، يا رحمن!»(١).

وقد كان ذلك حين كادته الجن وتحدَّرت عليه الشياطين من الأودية والشعاب يريدون إيذاءه، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يُحرِق بها النبي ﷺ، فلما رآهم فزع منهم، فأرسل الله إليه جبريل يحميه بكلمات الله التامات.

وأراد بقوله: **«برٌّ ولا فاجر»** الاستيعاب، فإن تكرير حرف التأكيد **«ولا»** للاستيعاب، فكلمات الله تستوعب الكل، فأي بر وفاجر لا يتجاوزان مقامهما، ولا يستطيعان الإفلات مما يجري عليهما من الوعد والوعيد والثواب والعقاب.

وفي أذكار الصباح والمساء كذلك.. نستعيذ بكلمات الله التامات كل يوم ستَّ مرات:

«أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق» ثلاثًا في الصباح ومثلها في المساء، والتامات هنا بمعنى الكافيات للبليات والآفات، وتأمل: **«من شرِّ ما خلق»**: «أي من شر خلقه وهو ما يفعله المكلفون من إثم ومضارة بعض لبعض من نحو ظلم وبغي

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٨٤٠.



وقتل وضرب وشتم، وغيرها من نحو لدغ ونهش وعض»[١].

فأنت تستعين بشيء عظيم.. بكلمات الله التامات، ولا مبدل لكلماته سبحانه التي تحفظك وتحميك بعد أن استعذت بها واحتميت من كل ما يضرّ، ولذا أوصى النبي ﷺ بنفس هذا الذكر المبارك لمن لدغه عقرب، فلم ينم ليلته، فاشتكى للنبي ﷺ، فقال له:

«أما إنه لو قال حين أمسى: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق؛ ما ضرَّه لدغ عقرب حتى يُصبِح»[٢].

لأن الأدوية الإلهية وقائية، والدواء البشري علاجي، وقوة هذه الاستعاذة وفعاليتها بحسب كمال التعوذ، وقوة قلب الداعي أو ضعفه.

وقد وردت الاستعاذة بكلمات الله التامات كذلك في لدغ الثعبان، ففي الحديث:

«من قال حين يُمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق لم يضره لدغة حية في تلك الليلة»[٣].

بل تجاوزت فاعلية الكلمات التامات إلى أي شيء يضر العبد إذا أوى إلى منزل جديد، وقد أوصاك رسول الله ﷺ حينها:

«من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله»[٤].

---

(١) فيض القدير ٢/ ١٦٣

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٢٤

(٣) صحيح: رواه الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٧٤٩

(٤) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن خولة بنت حكيم كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٦٧



بل أوصى بها النبي ﷺ كذلك كل من وجد أرقا بالليل، فقال:

«إذا فزِع أحدكم في النوم، فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضره».

وكان **عبد الله بن عمرو** يلقِّنها من عقل من ولده ومن لم يعقل، كتبها في صك، ثم علَّقها في عنقه[1].



ربٌّ سميع عليم!

وعجيبٌ هو تذييل الآية بقوله:

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أي: وهو السميع لكل الأقوال، العليم بما في الضمائر، وهو تعريضٌ بالوعيد لمن يسعى في تبديل كلمات الله، لأنه هو السميع للأصوات التي توحي بها شياطين الإنس والجنّ بعضهم إلى بعض، فلا يفوته منها شيء.

وهو العليم كذلك بمن يريد أن يبدِّل كلام الله، فلا يخفى عليه أعداءه الذين يخوضون في الكيد والمكر والتآمر، ولا أحوال أولياءه الذين يسعون في نصرته ومرضاته، وليس بعد علمه إلا خذلان أعدائه وتوفيق أوليائه.

(١) حسن: رواه أبو داود والترمذي واللفظ له والنسائي والحاكم كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٦٠١.



وترجون من الله ما لا يرجون



إن جَلَدَ فاجر القرن الواحد والعشرين يجب أن يستفز حماسة كل مؤمن ويستنفر طاقاته، لكنَّ حالنا اليوم غير ذلك، فكثير من أهل الحق إما غافلون عما يجري حولهم، وإما يائسون تحت وقع الضربات التي يتلقاها جسد الأمة، وفريق آخر منهم منشغل بغير فريضة الوقت، أو مقصِّر فيها.

- **عجيبٌ أن** يقعد أهل الباطل لنا كلَّ مرصد، فيفتنوا الناس من حولنا عن دينهم وأخلاقهم؛ ونحن كسالى متفرِّقون، نرسف في أغلال العجز، وقيود التحسر على حساب الجماهير المضلَّلة!

- **مؤسفٌ أن** يقيم مغنٍّ في بريطانيا أو أمريكا حفلاً ويُصرَف ريعه لصالح الأعمال الخيرية، وتُحسَب الأموال فإذا بها مئات الملايين، بينما أثرياء المسلمين يقبضون أيديهم عن الإنفاق.

- **مؤلمٌ أن** يتلقى صاحب الباطل الضربات فينهض منها مرة بعد مرة، وأن يستقبل صاحب الحق الضربة فيستسلم!

- **غريبٌ أن** يفشل المؤمن في محاولة فيترك المحاولة مع أنه مثابٌ على كل حركة مهما كانت النتائج! بينما الدنيوي يرفع شعار: الفشل هو الفرصة الوحيدة للقيام بالعمل مرة ثانية ولكن بذكاء أكبر!

- **مخجلٌ أن** أهل الظلم والفسوق يصِلون الليل بالنهار في تخطيط ماكر بكل نشاط وهمة وجلد ونفَس طويل؛ أما أهل الخير والصلاح إذا عملوا فلشهر أو شهرين، ثم يخمد البركان وتنطفئ الشعلة!



- **صادمٌ أن** تجد من يسعى في زيادة رقعته في نار جهنم، فينشر أكاذيبه في الصحف والفضائيات، في إصرار بالغ.. طمعا في يد تمتد له بالمال الحرام، وجمهور غافل يمُدُّه بشهرة زائفة.. في حين أن أصحاب الرسالة الطامعين في نيل رشفة من يد رسول الله ﷺ واستراحة في ظل العرش؟! أين هم من هذا الميدان الخاوي والثغرة القاتلة!

- **مذهِلٌ أن** يغزو مجاهل أفريقيا في الغابات الموحشة فتيان وفتيات من قلب أوروبا حيث الرفاهية ورغد العيش حيث يشربون الماء الآسن، مع شظف العيش والمخاوف والمخاطر، مع أنهم لا يرجون مثلنا جنة ولا يطمعون في حورية؟!

إن النماذج السابقة صادمة، وتدفعنا إلى نتيجة واحدة:

إن الجهد الذي يبذله أهل الباطل يجب أن يبذل أهل الخير لا أقول مثله، بل أضعاف أضعافه لأن غايتهم أسمى وجائزتهم أغلى! وكيف لا والله يقول:

﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾

وشتان بين مصيبة يصاب بها المؤمن فترفع درجاته وتزيد حسناته، ومصيبة يصاب بها الكافر أو الفاجر كعاجل عقوباته ومقدمة عذاباته!

لقد صار كثير من المسلمين اليوم ظاهرة صوتية؛ يذكِّرنا حالهم بالمثل العربي: أوسعتُهم سَبًّا وساروا بالإبل!



بعضنا يشاهد كيد الكفار ومكر الفجار، فيُرغِي ويزبد حتى لم يجن الأعداء منه غير صدى الصوت وعلامات الموت.

وباقي فريق العاجزين في زاوية من الزوايا يحوقل استسلامًا، ويتحسَّر تواكلاً، وكأنه يدفع بزفراته صكَّ براءة لساحته، ويقدِّم بحسراته وثيقة إبراء ذمته.

إن نور الرجاء هو وحده هو الكفيل بأن يبدِّد ظلمات اليأس، ويوقد شعلة العزم، ويطوي صفحة الألم:

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾

قال ابن القيم رحمه الله في حتمية الآلام ومكابدة المشاق:

«والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظُن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر»[1].



طبيعة الدنيا!

وهل في الدنيا إلا أحد رجلين؛ مصاب بمصيبة أو في انتظار مصيبة! ولقد وَعَت

(١) زاد المعاد ٣/ ١٣



أمُّنا **عائشة** رضي الله عنها هذه السُّنة الماضية، فكانت كثيرا ما تتمثَّل هذين البيتين:

إذا ما الدهر جرَّ على أناسٍ ... حوادثـــــه أنـاخ بآخرينـــا

فقل للشامتيـن بنا أفيقـوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

هل تعلم أن الذين ماتوا مثلاً في سبيل الشيوعية –وهي نحلة بائدة مخالفة للفطرة– أكثر من الذين ماتوا في سبيل نصرة الإسلام.

وكم عدد الذين ماتوا في سبيل إقامة الدولة اليهودية؟!



ضحَّت أوروبا بخمسين مليون لتتحرر من فاشية هتلر وموسوليني، فكيف تبخل أمة الجهاد والشهادة بما هو دون هذا في سبيل التحرر من فاشية الطغاة؟!

صَبَرَ الفرنسيون على ثورتهم مائة عام حتى استوت على سوقها وآتت أكلها، فكيف لا تصبر أمة التوحيد على ذلك بضع سنين؟

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾:

هؤلاء كما يقول ربنا شاركونا الإحساس بالألم، وخالفونا فى العمل، فبينما نسعى في بناء قصور الجنة وتوسيع رقعتنا في ديار الخلد، فهؤلاء مشغولون في زيادة الأوزار وشراء الأغلال في دركات النار، فكيف نستأخر عنهم فى الجد والاجتهاد؟!



كيف وقد جعل الله لنا عليهم مزِيَّةٌ لم يجعلها لغيرنا، فقال:

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾

أنتم ترون الإنفاق مغنمًا وهم يرونه مغرمًا..

أنتم ترون التعب في سبيل الله أحلى متعة يلقاها العبد، وهم يَشكُون التعب من أدنى جهد في سبيل باطلهم.

أنتم تقبضون أجوركم من رب كريم رحيم بينما هم ينتظرون العقوبة.

ولذا فأنتم أحقّ بالصَّبر منهم، وأوْلى بعدم اليأس والاستسلام.



جلَد الفاجر!

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل:

ولقد أشعل ذلك حماسة الإمام أحمد وقوَّى عزمه حين قُدِّم للضرب بالسياط، وسمع خبر سارقٍ أبدى من الصبر مبلغًا عجيبًا، فاقتدى به الإمام في صبره، وصار يلهج بالدعاء له يوفيه بعض حقِّه، ويرُدّ إليه بعض عطاياه، فلقد روى عنه ابنه عبد الله:

«كنت كثيرًا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم.. غفر الله لأبي الهيثم.. عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبتِ.. من أبو الهيثم؟



فقال:

لما أُخرِجْت للسياط ومُدَّت يداي للعقابين إذ أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال:

أنا **أبو الهيثم** العيَّار.. اللص الطرّار.. مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين أني ضُرِبْت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت على ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

قال:

فضُرِبْت ثمانية عشر سوطًا بدل ما ضُرِبَ ثمانية عشر ألفا، وخرج الخادم، فقال: عفا عنه أمير المؤمنين»[١].

وكذلك الكُفّار امتلكوا العزائم التي دفعتهم إلى نشر باطلهم، حتى ولو كان هذا الباطل خرافةً كعبادة الأصنام.

قال **أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي**:



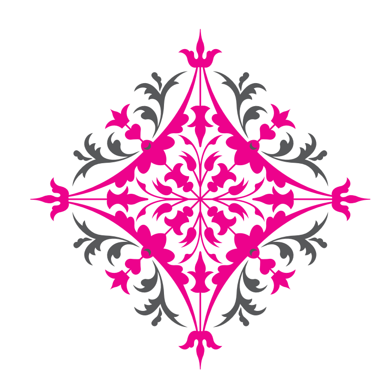
«لقد وبَّخ الله التاركين للصبر على دينهم بما أخبرنا عن الكفار أنهم قالوا ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦٠] فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه»[٢].

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٨٥
(٢) صفة الصفوة ١/ ٥٣١



وإذا تواصى الكفار فيما بينهم بالمضي في نصرة الباطل والتضحية من أجل هذه السفاهة، فهذا من أعظم محفِّزات أهل الحق لاتخاذ مواقف مماثلة في سبيل نصرة الحق والرسالة، وحين تجد كافرًا صاحب مبدأ يضحي في سبيل مبادئه بحريته وراحته وماله، ويبلِّغه الله غايته، ويكافئه بمجد دنيوي وشهرة تبلغ الآفاق ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، فكيف يكون حال المؤمن الذي يواليه ربه ويبارك سعيه وجهده؟!

وشتان بين مكافأة أهل الأرض ومكافأة رب الأرض والسماء!





وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن



قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿لِكُلِّ﴾

هو إذن قانون..

ليس فيه استثناء..

فما ستأتي به هذه الآية هو سنة مضطردة لا تتخلف..

تعبِّر عن مسيرة الأنبياء.. ولو لم يكن لهم أي أتباع، كما قال النبي ﷺ في عرض الأمم عليه يوم القيامة، فكان فيهم «والنبي وليس معه أحد»، ومع هذا كان له أعداء يحاربونه ويعادونه!

لماذا؟!

لأن المعاداة للفكرة، وليست لأشخاص الأنبياء.

وقد قضت سنة الله أن معاداة الفكرة مقدِّمة انتصارها وانتشارها..

وهذا من القوانين التي تحكم المجتمعات البشرية، فلا يَكْبُرَنَّ هذا عليك يا محمد، فلك في الأنبياء أسوة، وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ ومن سار على نهجه، وأنهم ركب سائر في قافلة طويلة، وحلقة متصلة بسلسلة الرسالة الخالدة، فالذي امتُحِنتَ به يا محمَّد مِن العداوة قد امتُحِن به غَيرُك من رسل الله، فلستَ في هذا الشأن بدعا من



الرسل، وليعلم أتباعك طبيعة هذا الطريق كي لا يستوحشوا، بل هم مستأنسون بركب الأنبياء، ملتحِقون به لا يتفرَّدون. قال **ابن عَبَّاس**:

«يوطِّن **مُحَمَّداً** ﷺ أنه جاعل له عدوّا من المُجْرمين كما جعل لمن قبله»[1].

والواو في الآية هي واو الاعتراض، لأن الجملة بمنزلة الفذلكة، فهي خلاصة التجارب التاريخية والرسالات السماوية، ولذا رأينا **ورقة بن نوفل** يرسل عبارته الأشهر لرسولنا ﷺ، ويَعِدُه بضراوة العداوة المرتقبة وانتهاء حقبة الراحة إلى غير رجعة:

«لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدرِكني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا».

لكن..

مَن هؤلاء الأعداء؟!

لقد وصفهم الله بأنهم شياطين!

فقال: ﴿شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾

لكن.. من هم شياطين الإنس؟!

وهل كل عاصٍ من عصاة الإنس شيطان؟

والجواب: لا..



(١) الدر المنثور ٦/ ٢٥٤- جلال الدين السيوطي – ط دار الفكر.

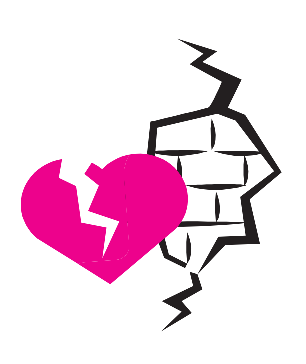


لكن من مُسِخت فطرته وتغيرت كينونته، فصار ينفر من الحق ويميل تلقائيا إلى الباطل..

كل من فرَّ من الطاعات وهوى بقلبه نحو المعاصي..

فهذا إنسان قد انقلب شيطانا، فلقد تغيَّرت خلاياه من كثرة ركوده في البيئة الخبيثة، وانخنقت فطرته بحبل الشيطان الذي أسره، ومن طول مجاورة الشيطان له تشيطن! وتحوَّل جنديا من جنود الأبالسة في جيش الباطل.

ويتعاون الفريقان ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ تعاونًا وثيقًا في معاداة أصحاب الرسالة، وذلك عبر شراكة وثيقة ممتدة لا تنحل عراها إلا على بوابة القبر!



ولأننا قلنا أن العداوة للفكرة لا للشخص، فكل من حمل رسالة رسول الله ﷺ ليبلغها إلى الناس تشمله هذه السُنَّة، فإن لم يكن له أعداء فقد انتقص ذلك من نصيبه في ميراث النبوة وتركة الوحي، فإياك أن تحزن لابتلائك، **بل استبشر!** لأن معنى وجود من يعاديك، أن فيك أثرًا من آثار النبوة، وعرقًا نابضًا ينطق بسمو مكانتك وعلو غايتك.

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن صراع الحق والباطل لن ينتهي، والحرب بينهما مستمرة أبد الدهر!

ولكل شيء آفـــة من ضِـــدِّه   حتى الحديد سطا عليه المَبرَد





لكن شياطين الإنس اليوم أخطر كما حكى **مالك بن دينار** رحمه الله:

«خوفي من شَيْطَان الْإِنْس أكبر من خوفي من شَيْطَان الْجِنّ؛ لأَن الجني يذهب إذا ذكَرْت الله، (والإنسي) يجرني إلى المعاصي»[1].

فشيطان الإنس ملازمٌ، وهو متلوِّنٌ اليوم بأشكال مختلفة ليصل إلى حواسك الخمس..

وظيفته مسح الأفكار.. والتلاعب بالعقول..

يوحي إيحـــاء خفيًا يستهدف غسل الأدمغة خاصة إذا تكرَّرت الرسالة حتى تقرَّرت، وقد أصبح هذا واضحًا جليًا في الغزو الإعلامي اليوم الذي تحوَّل إلى علم من العلوم:

كيف تسوق الناس إلى ما تريد؟!

كيف تزيِّف الحقائق، وتلبس الحق بالباطل؟!

وكيف تروِّج الأفكار الخبيثة عن طريق فنون التزيين و(الزخرفة)؟

فالفكرة الخبيثة قد تكون مستهجنة ابتداء، لكنها إذا عبثت بها أصابع (الشياطين)

(١) تفسير السمعاني ٢/ ١٣٧



صارت مزخرفة مغرية، ومع أن مضمونها فاسد يرفضه العقل السوي، لكن مكر الليل والنهار قد غرَّ الجموع الغافلة، وجعلهم يعتنقون الفكرة الباطلة يزفُّها جمال الطرح وتهيئة الأجواء..

وإن شياطين الفكر المستغرب اليوم يثيرون شبهاتهم حول الإسلام، ووالاهم نفرٌ من أبناء جلدتنا يروِّجون لهذه الشبهات في حُلَل منطقية جميلة، وإذا كان المسلمون في الماضي كانوا يتلقون الشبهات من بلاد فارس والروم، فإنهم اليوم يتلقونها من الغرب والشرق في عصر العولمة والفضاء الإلكتروني المفتوح.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾:

أي أن هذا أمر أراده الله أي سمح به، وذلك لحكمة مطلقة. . عرفها من عرفها وجهلها من جهلها..

أحيانًا لا تعلم الحكمة من الأحداث، وذلك لهول الصدمة، لكنك إذا سلَّمت الأمر لربك، فبمرور الوقت وبعض التأمل تتجلى لك هذه الحكمة، وأي شيء وقع لو لم يقع لكان ذلك قدحًا في حكمة الله، وأي شيء لم يقع لو كان وقع لكان ذلك اتهامًا لقدرة الله.

فهذا العداء إذن لحكمة ربانية وعِبرة إلهية..

لأن المعاداة تستنفر طاقاتك وتُخرِج أعظم ما فيك من جهد وفكر.

لأن المعاداة اختبار لصدقك في ما تؤمن به، وهل أنت على استعداد للتضحية في سبيله أم تتخاذل.



لأن المعاداة بمثابة رفع رايتين لمعسكرين متضادين وفسطاطين متمايِزَين.. إحداهما للحق والثانية للباطل، لينضوي تحت أي منهما سائر الخلق، فما كان الله ليذرنا في هذه الحياة دون تمحيص وتمييز.

لأن الإيمان لابد له من اختبار، والادعاء يستدعي الابتلاء.



فهذا هو الحل الناجع لهذه الشبهات!

هل الرد على شبهات الباطل شبهة شبهة مفيد؟!

أم أن الصدح بالحق أولى..

أرشد الله نبيه ﷺ أن يقرع باطلهم بحجته البالغة وحقه المبين..

وأن يطرح شبهاتهم جانبًا..

فاجعل طرح فكرتك له الأولوية، وليكن الرد على الشبهة عابرًا وعند الحاجة فحسب، وإلا غرقت في آلاف الشبهات التي تعوقك عن بلوغ غايتك وتحقيق هدفك، وقد قيل قديما: الملتفِت لا يَصِل.





من يعمل سوءًا يُجزَ به



عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال:

لَمَّا نَزَلَت ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ بَلَغَت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ:

«قارِبُوا، وسدِّدُوا، ففي كُلِّ ما يُصاب به المُسْلِم كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبة يُنْكَبُها، أو الشَّوكة يُشاكُها»[1].

وهذا من تفاعل الصحابة مع الآيات، وتلقيهم للوحي كتعليمات للتنفيذ، ولذا أقلقتهم هذه الآية حتى طمأنهم النبي ﷺ، ولذا كان يستقبلون المحن بالرضا، فهي كفارات لذنوب سالفات، وكانوا يرونها اصطفاءات.

عن **الربيع بن زياد** رحمه الله قال:

قلت **لأبي بن كعب** رضي الله عنه: قول الله تبارك وتعالى ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، والله إن كان كل ما عملنا جُزينا به هلكنا! قال:

«والله إن كنت لأراك أفقهَ مما أرى! لا يصيب رجلاً خدشٌ ولا عثرةٌ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، حتى اللَّدغة والنَّفْحة»[2].

ولذا كانوا يحاسبون أنفسهم عندما يواجهون أدنى تعثر أو اضطراب حال، فلقد جاء في طبقات الحنفية (كان الإمام **أبو حنيفة** رحمه الله ورضي عنه: إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنب أحدثته! وكان يستغفر، وربما قام وصلى،

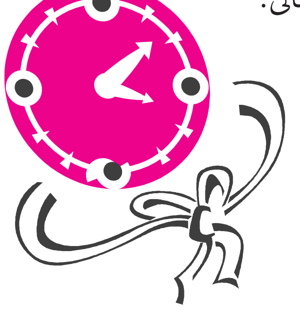
(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٣
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٦



فتنكشف لـه المسألة، ويقـول: رجوت أنه قد تيب علي، فبلغ ذلك **الفضيل بن عياض** رحمه الله، فبكى بكاءًا شديدًا ثم قال: ذلك لقلَّة ذنبه؟، فأما غيره فلا ينتبه لهذا!)[1].

فمن منا حاز تقوى **أبي حنيفة** حتى يحوز حساسية قلبه ورقة شعوره؟!

ولهذا نالوا من العلم ما لم نبلغه في عصرنا الحديث مع سهولة تلقي المعلومات، وتطور الحضارة، وقد حلَّل ذلك **أبو حامد الغزالي** رحمه الله تعالى:



«أنوار العلوم لم تحجب من القلوب لبُخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن ذلك، بل لخبث وكدورة، وشغل من جهة القلوب؛ فإنها كالأواني مادامت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، والقلب المشغول بغير اللهَّ لا تدخله المعرفة بجلاله»[2].

وللسوء الذي عمله العبد عقوبات يُجازى بها تتفاوت بحسب عمله، فحين سئل **سُفيان بن عُيَيْنة** رحمه الله عن غَمٍّ لا يُعْرَف سببُه؟!

قال:

«هو ذنبٌ هممت به في سِرِّك ولم تفعله فجُزيت همًّا به، فالذُّنوب لها عقوباتٌ: السِّرّ بالسِّرِّ والعلانية بالعلانية»[3].

وإذا كانت هذه عقوبة الهمِّ بالذنب،

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ٤٨
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٩
(٣) الفتاوى ١٤/ ١١١





فكيف بك إذا وقعت فيه؟!

بل كيف إذا دوامت عليه؟!

وكيف إذا استهنت به؟!

وكيف إذا كنت فيه رأسًا يُقتدى بك؟!

هل تُفلِت بعدها من عاقبة هذا السوء؟!

هي عقوبات تتفاوت وتتعدَّد..

قد تكون على صفحات وجهك وقبول الناس لك أو نفورهم منك! فعن **المعتمر بن سليمان** رحمه الله عن أبيه، قال:

«إن الرجل ليُذنِب الذَّنب في السِّر، فيُصبِح وعليه مذلته»[1].

ونفس العقوبة لمحها قلب مؤمن فحذَّرنا عاقبتها بحكمة بالغة ووصية جامعة، فقال **يحيى بن معاذ** رحمه الله:

«من خان الله في السر هتك الله سرَّه في العلانية»[2].

ومن أشد العقوبات التي يجازيك الله بها:

(قسوة القلب)، ولعلها أشد من حرمان المال والعيال، وسلب الصحة والسلطان.

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٧٧
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٣٤٥



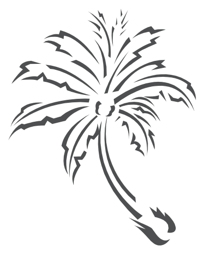
قال **مالك بن دينار** رحمه الله:

«ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظم عليه من قسوة قلب»[١].

ولقسوة القلب علامات، وله علماء ربانيون وأطباء قلوب يكشفون مظاهره، ليكون ذلك بمثابة تشخيص يستلزم دواء عاجلا بتوبة صادقة، وعبادة تمحو الذنب وتداوي جُرح القلب، ومن هذه العلامات البيِّنة ما قاله **سعيد بن المسيب** رحمه الله حين قيل له: إن **عبد الملك بن مروان** قال: قد صِرت لا أفرح بالحسنة أعملها، ولا أحزن على السيئة أرتكبها، قال:

«الآن تأكَّد موت قلبه»[٢].

ومن علامات القسوة العقابية ما ذكره **ابن الجوزي** رحمه الله ينشِّط بها ذاكرتك الإيمانية فيقول:



«فَرُبَّ شخصٍ أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سِرُّه وحُرِم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس»[٣].

ومن العقوبات:

أن يسلِّط الله على الأمة من يستخِفّ بحقها، ويسومها ألوان العذاب والظلم

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ١٦١
(٢) العقوبات لابن أبي الدنيا ص ٦٧
(٣) صيد الخاطر ١/ ٦٦



والهوان، جزاءً وفاقا، وهي القاعدة التي قرَّرها **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه حين قال:

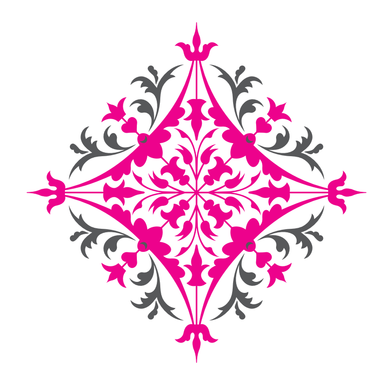
«ما استخفَّ قوم بحَقِّ الله إلا بَعَثَ الله عليهم من يستخِفّ بحقهم!»[1].

وكأنه يشرح حديث الحبيب ﷺ:

«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتُم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلَّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[2].

لا إفلات إذن من العقوبة، إلا أن يتفضل الله بتوبة وقبول، ولهذا لا عجب بعد ما رأينا من عقوبات أن عددًا من العلماء والسلف رأوا أن أخوف آية في كتاب الله هي:

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾



(١) صحيح: رواه أبو داود عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٣

(٢) العقوبات لابن أبي الدنيا ص ١٧٦



واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكـــم خاصة



في كتاب العقوبات **لابن أبي الدنيا**:

عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالـم لا يُضُرُّ إلا نفسه، فقال **أبو هريرة** رضي الله عنه:

«بلى والله! حتى الحبارى لتموت في وكرها هزلاً لظلم الظالم»[1].

لقد تعلم الصحابي الجليل **أبو هريرة** رضي الله عنه في مدرسة النبوة أن الظلم لا يضر صاحبه فحسب! بل يعم كل المخلوقات !!

وهذا من شؤم هذه الجريمة ولعنة الله على الظالمين!

وما عليك إلا أن تتأمل حولك كما فعل **ابن خلدون** رحمه الله الذي قرَّر في مقدمته -وفي ضوء ما رأى من سنن التاريخ- هذه المقوله الشهيرة:

«وأنَّ الظلم مؤذِنٌ بِخراب العُمران»[2].

إذن يتجاوز الظلم حدود الظلمة إلى من حولهم، وإن لم يتصدَّ المصلحون لمقاومة الظالمين سينزل العذاب بالكل، وذلك يبرز أن المحاسبة في الدنيا هي محاسبة جماعية؛ بعكس الآخرة التي لا تزر فيها وازرة وزر أخرى، حيث تنزل المصيبة أو تحل النعمة في الدنيا بحسب الأفكار والأفعال السائدة في المجتمع، فقد يسعد أفراد مقصِّرون في المجتمع السليم، ويشقى أبرياء في المجتمع الملوث.

(١) تفسير القشيري ص ٦١٦.
(٢) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ١/ ٥١ - ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي- ط دار الفكر، بيروت.



قال **الضحاك** في قوله ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ (الأنفال ٢٥):

«تصيب الصالح والظالم عامة»[١].

وقال **ابن عباس** رضي الله عنه ناصحًا جموع المؤمنين:

«أمر الله المؤمنين أن لا يُقِروا المنكر بين أظهرهم، فيعُمُّهم الله بالعذاب»[٢].

هو عموم الكارثة إذن، ونزولها على الكل!

إن لسان حال الكثيرين منا اليوم تجاه انتشار المنكرات والمظالم: ما دامت النار لم تطل بيتي، فأنا آمن! وهذا وهم تبدِّده أنوار هذه الآية الكريمة، وتنسفه هذه القاعدة القرآنية. قال **القشيري** مبيِّنا خطورة التأييد القلبي للظالم، وتسبب ذلك في عموم العذاب:

«وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب، ولكن قد ينفرد أحد بجرم فيحمل أقوام من المختصين بفاعل هذا الجرم، كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم، فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالمًا فى الحال، بل إنها تصيب أيضا ظالما فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه، ورضاه به»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٢.
(٢) جامع البيان ١٣/ ٤٧٤
(٣) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٩.



فالقلب هنا له دور، ودور شديد الخطورة يرفع به العبد إلى مصاف المجرمين أو المتقين! روى **قتادة** أن عاقر الناقة قال لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وعلى الصبي حتى رضوا أجمعين فعقروها[١].

وهنا إشكال عرض له **ابن الجوزي** فقال:

«قد يشكل هذا فيُقال:

كيف يُصيب العذاب من لم يفعل أفعالهم؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن يكون فيهم راضيًا بأفعالهم، أو غير مُنكرٍ لها، فيُعذَّب برضاه المعصية، وسكوته عن الإنكار، فإن الصَّالحين من بني إسرائيل لما أنكروا على المفسدين ثمَّ واكلوهم وصافوهم عمَّ العذاب الكل.

والثَّاني: أَن يكون إِصابة العذاب لهم لا على وجه التعذيب، ولكن يكون إماتة لهم عند انتهاء آجالهم، كما هَلكت البهائم والمواشي في الطوفان بآجالها لا بالتعذيب»[٢].

وهي عقوبة الله لمن ترك الإنكار على الظالم، وتخاذل عن القيام بحق النهي عن المنكر جبنا أو خجلاً، وفي الحديث:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقابٍ منه»[٣].

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٧.
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين ٢-٥١٢-٥١٣ - ابن الجوزي -دار الوطن - الرياض
(٣) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٩





مصير الأبرياء!

لكن ماذا لو كان بين هؤلاء الذين نزل بهم العذاب أبرياء؟!

ماذا لو كان الصالحون أو المصلحون قطرة في بحر الفساد؟!

قد أجاب على هذا رسول الله ﷺ:

«إذا أراد الله بقومٍ عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعِثوا على أعمالهم»[١].

قال **القرطبي** رحمه الله شارحًا للحديث:

«فهذا يدُلّ على أن الهلاك العام منه ما يكون طُهْرة للمؤمنين، ومنه ما يكون نِقمة للفاسقين»[٢].



من الظلم ترك مقاومة الظلم!

قال الشيخ **رشيد رضا** رحمه الله:

«﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ فجعل وقوع الظلم سببا

(١) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٩
(٢) القرطبي ٧/ ٣٩١-٣٩٢



في وقوع البلاء على الأمة من ظلم منها ومن لم يظلم، ومن الظلم ترك مقاومة الظلم حتى يفشو ويكون له السلطان الذي يذهب بكل سلطان»[1].

وفي هذا تخويفٌ للصالحين بضرورة التحول إلى مصلحين، والانتقال من رد الفعل إلى امتلاك زمام المبادرة والتأثير، وأن العذاب قد ينال الصالحين، فلا تنفعهم حينها كثرة قراءة القرآن وطول سجداتهم وخشوع قلوبهم إذا تركوا المنكرات تفشو حولهم دون إنكار، ورأوا الظلمة يروحون ويغدون دون أدنى غيرة أو اعتبار!

يقول شيخنا **حسنين مخلوف** رحمه الله مفتي الديار المصرية الأسبق في شرح هذه الآية، ومبرزا ألوان المنكرات التي تستوجب تحرك المصلحين وانتفاضة المتقين:

«أي احذروا ابتلاء الله في محن قد تنزل بكم، تعم المسيء وغيرهم، كالبلاء والقحط والغلاء، وتسلط الجبابرة وغير ذلك، والمراد تحذير من الذنوب التي هي أسباب الابتلاء، كإقرار المنكرات والبدع والرضا بها، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة في الحق، وتعطيل الحدود، وفشو المعاصي، ونحو ذلك»[2].

(١) المنار ٨/ ٤٤٩

(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ٧٦٣- مطابع أخبار اليوم





داءٌ معدي ونارٌ مُحرِقة!

إن الظلم داء إذا استشرى أعدى وطال من حوله، ولا تظن أن الظالم ظلم إلا لأن من حوله أغراه بالظلم وشجعه عليه، وإن المستبد في حقيقته فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بأعوانه، وأعوانه هم أعداء العدل وأنصار الجور.

* **ليس هناك** تسلط لفرعون دون جنود ينفِّذون أوامره بزعم أن كل واحدٍ منهم عبدٌ مأمور.

* **ليس هناك** قضاء جائر دون معاونين من وكلاء نيابة يزيفون الحقائق ويدبِّجون الزيف.

* **ليس هناك** إعلام فاسد دون مراسلين كذبة ومحررين مفترين..

* **ليس هناك** إدارات محلية خربة دون جمهور راشي وموظفين مرتشين..

* **ليس هناك** نخب خائنة دون أتباع يهتفون لهم بالحق والباطل.

* **ليس هناك** رجال أعمال يقتاتون على ثروات البلاد دون مستهلكين لسلعهم ومروِّجين لسرقتهم..

* **ليس هناك** حريات منتهكة دون عبيد يهلِّلون أنه طال خصومهم.

* **ليس هناك** دينٌ يستخدم في تخدير المشاعر دون إمام أو عالمٍ ينافق السلطان.



وحملها الإنسان



قال ربنا ﷻ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

لاحظ في الآية أن الله لم يذكر عرض هذه الأمانة على الإنسان، لكن الآية تفيد ضمنا أنها عُرِضت عليه، فما معنى العرض هنا؟!

العرض:

«حقيقته إحضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله، ومنه عرض الحوض على الناقة، أي عرضه عليها أن تشرب منه، وعرض المجنَّدين على الأمير لقبول من تأهل منهم»[1].



هل هذا العرض حقيقي أم مجازي؟!

أقول:

العرض حقيقي لا تمثيلي، وواقعي لا تصويري، فقد عرض الله الأمانة على هذه المخلوقات العظيمة الهائلة من السماوات والأرض والجبال، ومع أن الجبال جزء من الأرض لكنه أفردها لشخوصها أمام الأبصار وضخامتها..

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٥



يقول **أبو حيان** رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة:

«والظاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام -وهي الأوامر والنواهي- فتُثاب إن أحسنت، وتُعاقَب إن أساءت، فأبت وأشفقت،... وحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته»[1].

لكن ما هي هذه الأمانة التي لم تتحملها السماوات الشداد والجبال الشامخات؟



ما هي الأمانة؟

قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«وقد اختلف فيها المفسرون على عشرين قولاً، وبعضها متداخل في بعض»[2].

وأكثر هذه التفاسير كانت تفسيرًا بالمثال، فضربت أمثلة كثيرة للأمانة حتى جعلت منها مثلاً غسل الجنابة! لكن هذا ليس تفسيرًا حقيقيًا، ولو استعرضنا أمثلة الأمانة لبلغت مائة وجه، ولذا عدَّد **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه أمثلة كثيرة تدل عليها فقال:

«من الأمانة أداء الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والصدق في الحديث، وقضاء الدَّيْن، والعدل في المكاييل والموازين، قال: وأشد من هذا كُله الودائع»[3].

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٤٣ (بتصرف يسير)
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٥
(٣) تفسير القرآن ٤/ ٣١١ - أبو المظفر السمعاني - دار الوطن



فإن كان السابق أمثلة للأمانة وليس الأمانة نفسها، فما هو المفهوم الحقيقي للأمانة؟!

والجواب:

ليس المقصود بالأمانة أن يعطي الرجل غيره مبلغا من المال فيأكله، فهذا لون من ألوان الخيانة، لكن أعظم الخيانة أن يخون الرجل ما أمر الله عز وجل بحفظه، وهو الدين، فالأمانة في حقيقتها هي تكاليف الدين كله كما قال **القرطبي** رحمه الله:

«الأمانة تعمّ جميع وظائف الدّين، ونُسِب هذا القول لجمهور المفسِّرين»[1].

والأمانة في مجملها هي عملية حفظٍ وأداء، فالحفظ يشمل حفظ العهود كما قال ربنا:

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾

وقال:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾

أو هي أداء تكاليف إما تجاه الحق أو تجاه الخلق.

وسماها أمانة من حيث أنها واجبة الأداء.

وأما قوله في شأن السماوات والأرض والجبال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، فإن الإباء هو شدة الامتناع، وما كان امتناع السماوات والأرض والجبال عن معصية لربها

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٣



وكفران، لكن مخافةَ ألاَّ تقدر على تبعات هذه المسئولية، فطلبت السلامة لعجزها عن حملها.

لكن الإنسان قَبِل!

والإنسان هنا يشمل الإنس والجن..

ولماذا حملها؟! وبم يوحي تحمله لهذه المسئولية؟!

توحي بأن طاقاته أكبر مما تطيق السماوات والأرض والجبال!

نعم!

فيه طاقات كامنة لو كان يعلمها!

طاقاتٌ يسخِّر بها السماوات فيجوبها ويخترقها، والأرض فيستخرج خيراتها ويعمر جنباتها، والجبال فينحتها وينسف الطرق خلالها نسفًا.

وقد أشار الإمام **المراغي** رحمه الله لهذه القدرة البشرية حين قال:

«أي إنا لم نخلق السماوات والأرض على عظم أجرامها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهي والتبصر فى شئون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف منَّته وصغر جرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها»[1].

لكن لماذا وصفت الآية الإنسان بأنه كان ظلومًا جهولاً؟!

﴿ظَلُومًا﴾

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٤٦



فلأنه لم يعطِ ويُنفِق وفق الطاقات التي أعطاه الله إياها..

ففارقٌ هائل بين القدرات المملوكة له والأفعال الملموسة منه.

بل قد يتجاوز العبد الحد ويعتدي، فينفق في كثير من الأحيان هذه الطاقات في ضد ما خُلِقت له، وهذا من تعريفات الظلم: (وضع الشيء في غير مَوْضِعه).

والعجيب أن غير الإنسان من الجماد لا يظلم ويؤدي ما عليه، فالجنتان التي أخبر عنهما في سورة الكهف آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا، بمعنى أنها أنتجت الثمار كما ينبغي، ولم تحبس خيراتها وإمكاناتها، فأخذت الهواء والماء والغذاء، وأخرجت الثمار الناضجة.

والدرس البليغ:

إنك إن لم تؤدِّ ما عليك بموجب ما منحك الله فسوف تكون ظالما، وإذا أنفقت ما أعطاك في غير موضعه كنتَ أظلم!

ولأن طاقاته أكبر من إنجازاته..

طاقاته التي يملكها لم تملكها السماوات والأرض والجبال..

فلهذا يحاسب..

ويحاسب على أنه لم يستغل طاقاته، ولم يسخِّرها لغاياته التي خلقه الله من أجلها..

ما دام قادرا على ما لم تقدر عليه السماوات والأرض والجبال، فأين إنجازاته؟!

فأنت يا أخي..



كل شيء أودعه الله إياك فحفظته ورعيته وبذلته لأهله كنت فيه حاملاً للأمانة، وكل من أودعه الله شيئًا فضيَّعه أو ضنَّ به عن أهله، ومنعه عن مستحقه فهو خائن فيه غير حامل له.

أخي..

أنت خليفة الله في الأرض!

أنت أقوى مما تتصور..

المشكلة أنك تجهل مواطن قوتك.

يا من حملت ما لم تُطِق السماوات والأرض والجبال حمله..

أنت كنز هذا الكون..

وحامل بذور المعجزة البشرية.

فلا تستصغر نفسك، ولا تستضعف قوتك، ولا تستسلم للوهن!

ثم جاء الوصف الثاني:

﴿جَهُولًا﴾

وهذا في الأعم الأغلب أن الإنسان جهول بالإمكانات التي منحه الله إياها..

جهولٌ بحقائق الأمور..

جَهُولٌ بعواقب الأعمال.



وهذا وصف للجنس باعتبار الأغلب الأعم.

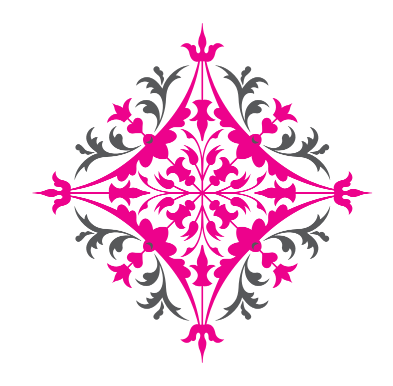
ثم قال سبحانه:

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

واللام هنا هي لام العاقبة..

أي أن عاقبة هذا العرض وقبوله من قبل الإنسان هو في النهاية: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ﴾.. ﴿وَيَتُوبَ ﴾

ومع أن السياق يقتضي أن يقول: لِيُعذِّب ويُثيبُ، لكن الله قال ﴿وَيَتُوبَ ﴾، وهذا من رحمة الله ومعرفته بطبيعة البشر، لأن الله يعلم أن التقصير سِمَة العباد، فيفتح لهم أبواب التوبة على مصراعيه، وكأن الكل سيقصِّر لكن بدرجات متفاوتة! فالتوبة إذن ديدن كل مؤمن، وتفاوتنا إنما هو في درجات التقصير ودركات الذنوب.





نسوا الله فنسيهم



الكلام هنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملنا ذلك على النسيان الحقيقي لما استحق الإنسان عليه ذما، لأن النسيان من طبيعة البشر، والنسيان عارض من العوارض البشرية ليس في وسع أحد دفعه ولا منعه، ولذا لا يستحقون عليه ذمًا ولا عقابًا.

والنسيان نوعان:

نوع فطري من طبيعة البشر وهو الذي بيَّناه، ونوع آخر هو النسيان المقصود والمتعمد، على معنى أنهم لم يأخذوا أوامر الله، وتركوها وراء ظهورهم؛ ولذلك استحقوا الذَّم والعقوبة.

هذا عن نسيان البشر، فكيف يُنسب النسيان إلى الله؟!

من الثابت في أصول العقيدة أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال، ومنـزَّه عن صفات النقص، لذا فمعنى نسيان الله للعبد هنا هو (الترك)؛ والنسيان بمعنى (الترك) مشهور استخدامه في اللغة، يقال: أنسيت الشيء، إذا أمرت بتركه؛ ومن هنا يكون ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ﴾ أي: تركوا طاعة الله، وأعرضوا عن اتباع أمره، حتى صاروا بمنزلة الناسين له، فجازاهم من جنس عملهم بأن صيَّرهم منسيين من ثوابه وجنته، أو نسيهم في النار مثل ما يُنسى المتاع في النار فيحترق، أو نسيهم من توفيقه ورحمته.

ولهذا عواقب في الدنيا والآخرة.. قال السعدي رحمه الله:

«فنسيهم من رحمته، فلا يوفِّقهم لخير، ولا يُدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك



الأسفل من النار خالدين فيها مخلَّدين»[1].

لكن كيف ننساه! كيف؟!

وفي كل شيء له آيـة تدل على أنه الواحد

ونسيان الله للعبد في الدنيا مقدِّمة وتوطئة إلى نسيان الله له في الآخرة، وهو أشد وطأة وأعظم ألما والخسارة الكبرى والعذاب المهين، ففي صحيح مسلم حوار منقول بين العبد وربه يوم القيامة: «فيلقى العبد، فيقول: أَيْ فُلْ! ألم أُكْرِمك، وأُسوِّدْك، وأُزوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيل والإبل، وأذَرْكَ ترْأَس وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننتَ أنَّك مُلاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني»[2].



ثانيا: نسيان النفس:

وهل ينسى العبد نفسه؟

نعم ينسى العبد نفسه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فعاقب جل وعلا هذا العبد بهذا النوع من النسيان، لكن ما معناه؟!

معناه..

- نسيان حظوظ النفس العلية، وأسباب سعادتها وفلاحها، ينسى ذلك فلا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٣٤٣- السعدي - مؤسسة الرسالة
(٢) في شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١٠٤: تأخذ المرباع الذى كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، ومعناه ألم أجعلك رئيسا مطاعا، وقال القاضي معناه: تركتك مستريحا لا تحتاج إلى مشقة وتعب من قولهم: أربع على نفسك أى ارفق بها، ومعناه بالمثناة تتنعم، وقيل تأكل، وقيل تلهو، وقيل تعيش فى سعة.



يخطره بباله، ولا يرِد على ذكره، ولا تنصرف إليه همّته فلا يقصِده ويؤثره.

- وأيضًا يُنسيه عيوب نفسه وآفاتها، فلا ينشغل بإزالتها، فتتوالد وتتكاثر عليه حتى تُهلِكه!

- ويُنسيه أمراض قلبه، فلا يبالي بمداواتها، ولا يسعى إلى صحبة تعينه على علاجها، فينجرف إلى هاوية الفساد والهلاك، فمثله مَثَل مريضٍ مُثخن بالجراح غير أنه لا يشعر بمرضه، ومقبلٌ بقوة على جرُف هارٍ وهو أعمى، فلا يتناول الدواء أو يتعاطى أسباب الشفاء، ومن نسي الدواء فكيف يشفى؟!

- وأيضاً يُنسيه العَقد الذي عقده مع الله في هذه الدار، فيبيع نفسه بثمن بخس، وتكسد بضاعته في الآخرة، ويخسر نصيبه من نعيم الغد، ويخطئ طريق الجنة، وذلك بعد ما انشغل بالفاني عن الباقي، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكفى بها عقوبة.

ثالثا: نسيان عهد الله

قال تعالى:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ ﴾

فعقوبة نقض عهد الله كانت نسيان أمر الله أي: تركوا نصيبا من أوامر الله وأحكامه فلم يعملوا بها، وهذه الآية نزلت في يهود لما ذُكِّروا بالتوراة وما أُنزِل على **موسى** عليه السلام،



وبعث الله منهم اثني عشـر نقيبًا، ووعدهم بالنصر على عدوهم، وأن يورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم بعد أن يريهم من العبر والآيات بإهلاك فرعون وقومه في البحر، ومع هذا نقضوا ميثاقهم ونكثوا عهدهم، فضربهم الله بعقوبة قسوة القلب، فكان من آثارها النسيان، فنسوا علمهم وضاع منهم، ونسوا العمل وتركوه، فلم يُوفَّقوا للقيام بما أمرهم الله.

قال **السدي** رحمه الله: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾: «تركوا نصيبًا»[١].

وهذه سِمات يهود التي لا تفارقهم، وكل من شابه اليهود في هذه الخصال فسيسري عليه **قانون التماثل**، أي يصيبه ما أصابهم من نسيان أوامر الله علمًا وعملاً.

إن النسيان بداية خيط يُمسِكه إبليس، ويستدرج به العبد إلى ما هو أخطر منه. قال **القشيري** رحمه الله:

«أوّل آفاتهم نسيانهم، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا، فالنسيان أول العصيان، والنسيان حاصل من الخذلان»[٢].



رابعا: نسيان اليوم الآخر

قال تعالى:

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

(١) تفسير الطبري ٨-٢٥٢
(٢) لطائف الإشارات ١-٤١١



قال **ابن عباس** رضي الله عنهما عن معنى نسيان اليوم الآخر:

«تركتم ذكري وطاعتي، فلذا تُرِكتم في النار»[1].

وهو لون من ألوان التبكيت النفسي المؤلم، وهو أشد من العذاب البدني في النار، وكما قال **القشيري** رحمه الله:

«قاسِ من الهوان ما استوجبته بعصيانك، واخلُد في دار الخزي لما أسلفته من كفرانك»[2].

وهذا من أعظم الإهانة أن يجعلهم الله بمنزلة الشيء المنسى غير المُبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم يخطر ببالكم شيء من أهواله وعقوباته، كالشيء الحقير يُطرَح نسيًا منسيًا، وهذا الطرح ليس مع حالٍ عادية بل يتركهم الله في النار جياعًا عِطاشًا، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، وهو بلاءٌ جسدي فوق البلاء النفسي.



خامسًا: نسيان آيات الله:

قال الله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾

أي: كما نسيت دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا فنسيتها ولم تنظر فيها وأعرضت عنها، وتركت العمل بها، وكذلك اليوم تُنسى، أي: تُترك في عذاب جهنم.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٢
(٢) لطائف الإشارات ٣/ ١٤٢



أشد ألوان العذاب هو نسيان الله لك!

لو أعرض عنك من تحب لاستوحشت وحزن قلبك، فكيف إذا أعرض عنك الله، ونسيك يوم القيامة في لُجَّة العذاب؟!

لو نسيك أمير أو عظيم.. ترجو بِرَّه وصلته، لغمرتك الأحزان لفوات خيره عنك، فكيف إذا نسيك أكرم الأكرمين؟!

العقوبة الأشد -معشر العصاة- هي النسيان، والنسيان الحقيقي أن تُنسى يوم القيامة، فيتركك الله في غمرات العذاب!

يذكر غيرك يوم القيامة بالكرامة والإحسان، بينما أنت في واد من أودية النيران تتقلب، وفي هاوية من مهاوي النسيان تتعذَّب!

لا يسمع صراخك أحد، ولا يشفع فيك أحد، ولا يلبي استغاثتك أحد ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾



سادسًا: القعود مع الظالمين مع عدم نهيهم عن المنكر

قال تعالى:

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

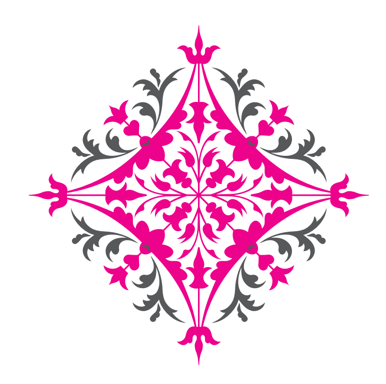
والمعنى: إن أنساك الشيطان نهينا لك عن الجلوس مع الظالمين، والإعراض عنهم عند خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقم عنهم على الفور، ولا تقعد بعد ذكرك



ذلك مع الخائضين في الحرام..

قال **السعدي** رحمه الله:

«يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمُحَرَّم، أو فاعل لمحرَّم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.. هذا النهي والتحريم، لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم»[1].



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٢٦٠



فلا اقتحــم العقبة



كان المفكر الجزائري **مالك بن نبي** رحمه الله كثيرًا ما يتحدَّث عن حاجة الأمة لعقلية الاقتحام، والبعد عن عقليَّة الهروب والانكماش والانزواء.

ويرتبط مفهوم العقبة بالجهود التي تُبذَل من أجل الاقتحام، إذ كان من وصاياه الذهبية التي ودَّعَ بها هذا الجيل:

«ما لم نغيِّر أنفسنا فإنَّ غيرنا سيغيِّرنا».

واسمع قول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ بعد قوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ والنجد هو الطريق المرتفع الوعر في الجبل.

«واستعير النجدان للخير والشر، وجُعِلا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير فغلب على الطريقين، أو لأن كل واحد صعب باعتبار، فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه، ولذلك عبر عنه بعد هذا بالعقبة»[١].

والاقتحام هو الدخول بأقصى قوة.



«وقَحَمَ في الأمر قحومًا: رمى بنفسه فيه من غير رويّة.

والقُحْمَة بالضم: المهْلكةُ.

وقُحَم الطريق: مصاعبه»[٢].

والعقبة هي ما يقابل العبد بعد النجد..

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٥- الطاهر بن عاشور التونسي - الدار التونسية للنشر - تونس
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٥/ ٢٠٠٦ - أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي



وهذا قمة البلاغة المعبِّرة عن الصعاب والشدائد، ولم يعبِّر عن عبور هذه المصاعب بالاجتياز بل بالاقتحام، مما يدل على أنها مخاطرة شديدة الصعوبة، وفيها احتمال الهلاك، فليس مهمة سهلة ولا يسيرة، بل يحتاج الأمر اقتحامًا ومخاطرة، عقبة لا تتجاوزها إلا بالقوة والاقتحام، فكيف يقتحمها من لم يكن قويًا؟!

«وقد تتابعت الاستعارات الثلاث: النجدين، والعقبة، والاقتحام، وبني بعضها على بعض وذلك من أحسن الاستعارة وهي مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس»[1].

ومعروف أن (لا) لا تدخل على الفعل الماضي.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾.. هل هو نفي؟

يرى **الطاهر بن عاشور** رحمه الله ذلك فيقول:

«وأفاد نفي الاقتحام أنه عَدَل على الاهتداء إيثارا للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة»[2].

أم هي دعاء عليه بغرض الاستقبال؟!

كقولك: والله لا فعلت ذلك أبدًا أي لن أفعله أبدًا.

أم هي كما قال جماعة من المفسِّرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة. يقول الله: هلا أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام الفقراء ليتجاوز به العقبة.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٦
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٦



كثير من المفسرين وقف عند معنى اقتحام العقبة المراد بهذه الآية وهو: الزكاة وتحرير الأرقاء من قيد الرق، ولكنَّ المتأمِّل يجد أن المعنى أوسع وأشمل؛ فالعقبة هي كل عقبة تحول بين العبد وبين الجنة، وقد أمر الله المسلمين باقتحام العقبة لينالوا رضا الله تعالى وجنَّته، ومن أهم اقتحامات اليوم أن يعرف المسلمون سبب ضعفهم وتشخيص مرضهم، ثمَّ يشرعون في رسم طريق النهضة والعمل والكدح حتى نكون خير أمَّة أخرجت للناس.

والحقيقة أنَّ وضع الأمة وإن بدا يتدرج في منحنى الصعود إلا أنَّ أفراده وجماعاته التي تتبنى الإصلاح وتتصدى لمهمة الإنقاذ في أمسِّ الحاجة إلى فقه الاقتحام، والتشمير عن ساعد الجد، بعزمة وثَّابة وإرادة توَّاقة، وهو ما يختصر الزمان لتحقيق الغاية المنشودة والهدف النبيل لأننا امتلكنا هذه الإرادة: إرادة الاقتحام ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾.

إن المسلم الحق هو الذي لا يتوانى عن فعل الخير، ولا يكل ولا يعجز، بل يمتثل أمر ربه:

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾

ويوقن بعدها بالغلبة كما وعده ربه:

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾

ولهذا فإنَّه يقتحم ويبادر ولا ينتظر الأوامر من أحد إلا من الله سبحانه، ويرى أنَّ العوائق والعقبات التي تعترض طريقه من أنفع ما يكون، فهي مسؤولة عن تقوية



عزمه، وتربية عضلات روحه كما البطل الرياضي يبذل الساعات الطوال في المران يقاسي فيها، ثم يحرز الفوز.

كلٌّ منا له عقبة، فمنا ماله، ومنا عياله، ومنا كسله وتواكله، ومنا مستقبله الوظيفي وجاهه الاجتماعي، فقد يكون اقتحام العقبة اليوم:

- حالة إبداعية وسبقًا ومقاومة لحالة الركود الفكري والحركي التي عمَّت الأمة!
- تفعيل حالة النقد الذاتي، ومراجعة المواقف، ومحاسبة النفس عن الماضي بغرض تحسين المستقبل.
- ابتكار وسائل دعوية جديدة يكسر بها طوق الرتابة وقيود التضييق عليه، ويغزو بها قلوبا جديدة في أراضي لفَّتها سحائب الغفلة والعصيان.
- تحمل تبعات الصدارة والريادة، ومنها أن تتصدَّق على الناس ببعض عرضك، لأن الاتهامات ستنهال عليك، وسيرحل عنك الكثير ممن كنت تعدهم (أصدقاء)، وستصبح فى مهب الشائعات، وسيحلو للسفهاء الكلام من وراء ظهرك، لكنك ستنتقل من نجاح إلى نجاح، وتكون في كثير من الأحيان ضريبة الصدارة، وثمن أخذ زمام المبادرة.



إن الله لا يمل حتى تملوا



هذا نصّ حديث صحيح:

«إن الله لا يملُّ حتى تملوا»[1].

والملل فتورٌ يعتري النفس من كثرة مزاولة عمل من الأعمال، فيوجب الكلل في الفعل ثم الإعراض عنه، وهذا إنما يكون في حق من يعتريه التغير والانكسار، فأما من تنزَّه عن ذلك فيستحيل تصوُّر هذا المعنى في حقه، فإسناد الملل إلى الله تعالى هو هنا على طريقة المشاكلة والمزاوجة، وهو أن تكون إحدى اللفظتين موافقة للأخرى وإن خالفتها في المعنى، فما معنى الملل في حق الله؟!

اعلم أن وصف الله تعالى بالملالة على معنى السَّآمة والاستثقال للشَّيء على معنى نفور نفسه عنه محَال فلهذا الحديث طريقان من التَّأْوِيل:

أَحدهما: أن يكون مَعْنَاه أن الله لا يقطع المجازاة على العبادة حتى ينقطع العبد عن العمل، فهو سبحانه لا يقطع عنكُم ثوابه حتَّى تتركوا العمل وتزهدوا في سُؤاله والرَّغبة إليه، ولن يُعرِض عنكم إعراض الملول عن الشَّيء، فيقطع عنكم ثوابه وجزاءه ونعمته حتى تقطعوا.

والإنسان بطبيعته ملول، وإذا كان الملل من العمل يوجب قطعه وتركه، فإذا ملَّ العبد العمل انقطع عنه وتركه، وعندها يقطع الله عنه ثواب ذلك العمل.

الوجه الثَّاني: «أن يكون مَعْنَاه أَن **الله لا يمل إِذا مللتم**، ومثل هذا قَوْلك فِي الكلام أن هذا الفرس لا يفتر حتَّى تفتر الْخَيل، وليْسَ الْمُرَاد بذلك أَنه يفتر إِذا فترت الْخَيل،

(١) صحيح: رواه البزار عن أبي هريرة والبخاري ومسلم عن عائشة رقم: ١٨٥٩.



ولو كان المراد هذا ما كان له فضل عليها لأنه يفتر معها، وأي فضيلة له، وإِنَّما المراد بِهذا المثل أنه لا يفتر وإن فتر الْخَيل»[1].

وإسقاط هذه السنة على الواقع المعاصر يشمل الآتي:



الأولى: المثابرة

في الحديث تغيير لمفهوم النجاح!

فالنجاح هو استمرار المحاولة، وأما الفشل فهو الانقطاع..

هذه هي القاعدة التي يرسِّخها الحديث، وإذا كان أهم ما يميز قادة اليوم هو الصمود أو القدرة على القيام من الحطام، فإن المؤمن هو أولى الناس بهذه الصفة. لماذا؟

لأن الله لا يمل حتى تملوا، فكم مرة ستحاول؟!

وبعد كم محاولة فاشلة ستيأس؟!

أنت إذن سبب انقطاعك وضعف ذاتك..

فإن الله ممدك بعونه إن استمددته، ومعينك إن استعنت به، ومغيث من استغاثه، وإن الله لا يمل حتى تملوا.

وهو توجيه غير مباشر بأن تطلب العون من الذي لا ينقطع عطاؤه ولا تنفد خزائنه، وأن تتصل -إذا تملَّك منك الضعف- بالقوة التي لا تُقهَر، فلن يتوقف إمداده

(١) مشكل الحديث وبيانه ١/ ٢٧٣- محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر عالم الكتب - بيروت



لك بالعون والتوفيق حتى تتوقف عن المحاولة.

وهذا سارٍ على النطاق الفردي والجماعي والأممي، فعلى النطاق الفردي مثلا:

التوبة يقبلها الله منك، مهما أذنبت إلى أن تيأس فتنقطع، أو تصل الروح إلى الحلقوم فيغلق عندك باب التوبة.

وعلى نطاق تغيير عاداتك السيئة أو المحرمة، فلا يأس لأن الله قادر على أن يغيِّرك في لحظة، لكنك تحتاج إرادة قوية ممتزجة بلحظة صدق.

وعلى نطاق المجتمع تصبر على الناس، فما عليك إلا البلاغ، فلا تيأس من محاولة إصلاح ولدك، أو مجتمعك، وإياك أن تقول (لا فائدة)، فهذا يخدش في ثقتك بربك، وإيمانك بقدرته، وتعني أنك طرحت هذا القانون الرباني جانبًا:

«إن الله لا يمل حتى تملوا».

وكان هذا منبع الصبر لدى أولي العزم من الرسل، فصبَر نوح مئات السنين على قومه، ولم يقبل النبي ﷺ بإطباق ملك الجبال الأخشبين على أهل مكة، ومردّ هذا إلى علمهم برحمة الله وقاعدة:

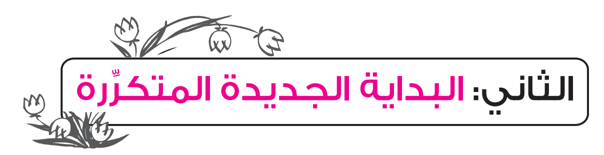
«إن الله لا يمل حتى تملوا».

وعلى نطاق الصراع الإنساني:

كثيرٌ من أصحاب الحقوق ما استردوا حقوقهم إلا بالمثابرة، فالمثابرة لا القوة هي التي توصلك إلى هدفك حتى قيل: ما ضاع حقٌّ وراءه مُطالب.



وانظر صبر أهل فلسطين مع مواصلة المقاومة، وهذا الصمود الأسطوريّ الذي حفظ لهم حقهم، وهو الذي بإذن الله سيعيده لهم، ولو فكروا لحظة أن يتنازلوا أو يستسلموا لما رجعوا بشيء!



الثاني: البداية الجديدة المتكرِّرة

هنيئا لك يا من طلَّق العجز، وكأنك تبدأ اليوم بداية جديدة، وتستقبل باقة نور، وتفتح نافذة أمل، وتترك وراء ظهرك طل تركة الذكريات المؤلمة للفشل السابق، ولم لا والنبي ﷺ يقول:

«إن الله لا يمل حتى تملوا».



الثالث: المحاسبة

نراجع أنفسنا، ولا نكرِّر أخطاءنا.

نحدِّد موضع الخلل، ونحاسب أنفسنا على التقصير..

نجرِّب طريقة أخرى..

نسلك سكَّة جديدة.. وهذا ملمح من ملامح **«إن الله لا يمل حتى تملوا»**، فاعكف على معضلتك، واطرق صخرة اليأس بمطرقة الإصرار، فما النجاح سوى العبور من فشل إلى فشل دون ملل.

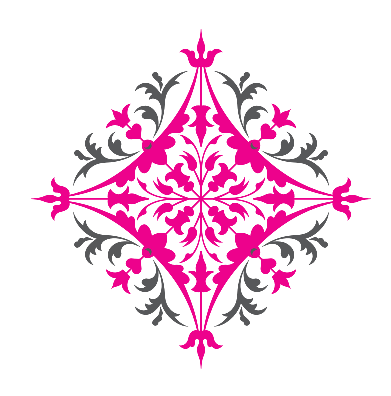




الرابع: التنويع

لا نسير على نمط واحد، فإن ذلك يورث الملل والاستثقال، فمن ضرورة اللطف بالنفس أن تنتقل من فن إلى فن، ومن طاعة إلى غيرها، وذلك بحسب كل وقت لتضمن دوام لذتها، وتعظم باللذة رغبتها في الاستمرار، ولذلك جاء في الحكم العطائية:

«لما علِم الحق منك وجود الملل لوَّن لك الطاعات».





فاذكروني أذكركم



والفاء في الآية هي فاء السببية، للدلالة على ترتب هذا الأمرِ الرباني على ما قبله من موجباته، وهي نعمة إرسال الرسل بالآيات، فكما أنعمت عليكم بهذه النعمة الجليلة، فاشكروها واذكروني بالطاعات وترك السيئات.



حقيقة ذكرِك!

تنصرف كلمة الذكر في الأذهان أول ما تنصرف إلى ذكر اللسان، ولكنها أيضا تشمل الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره فيمتثله العبد، وعند نهيه فيجتنبه، ومحصِّلة الذكر اللساني والقلبي هو طاعة الله بالجوارح، ولذا قال **سعيد بن جبير** رحمه الله:

«الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره، وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن»[١].

فالذكر في حقيقته اللغوية ضد النسيان، والنسيان هنا هو نسيان الله بعصيانه ومخالفة أمره، أو نسيان الله بالانشغال بغيره عن القيام بحقه، ولذا كان العلماء حريصون على التنبيه على هذا الذكر العملي مع القولي كما فعل **سعيد بن جبير** رحمه الله حين ذكَّرنا مرة ثانية:

«اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي»[٢].

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ١/ ٢٠٠٦ – شمس الدين القرطبي – ط مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٣-٢١١.



وليست مشكلة الأمة اليوم في غياب الشعائر التعبدية بل في غياب مقاصد العبادات وهي روحها وأساسها، وهو ما يربي في الناس الانفصام والازدواجية، فهذا يتصدق ثم يرتشي! وذاك يصلي ويعتدي! وآخر يحج ويعتمر ومع ذلك للظالم يميل وينتصر! لأنهم يقرءون القرآن بلسان لا بقلب!

وليس الذكر ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يشاء، فهذا ذكرٌ مغشوش وتدين زائف، فأما الذكر الحقيقي فهو الذي يورث مراقبة العبد ربه حال ذكره وبعده، فيقيِّد حركته بأوامر الله ونواهيه، وإذا زلَّ لضعفه البشري وأخطأ استجابة لنداء شيطان لحوح.. فزع إلى ربه يستعين به على توبته.

ولذا كان أول من تُسعَّر بهم النار: مجاهد ومتصدِّق وقارئ للقرآن، لأن كلّ واحد منهم كان مرائيا ذا وجهين! وكان ذاكرا لله بلسانه لا بقلبه، صورة لا حقيقة.. وهو على خطر إن لم يستدرك حالته.

ولأمثال هؤلاء وجَّه **محمد إقبال** رحمه الله تقريعه واستفساره:

اســـــأل الظـــــالم المُصَلي من ذا … قد أحـــلَّ الصــلاة للظُـــــلام!

أول الطُّهـــر للصلاة اغتســـال … يُرخِص النفس من حقوق الأنـــام

صائمَ الدَّهـــر صُـــم وأفطـــر … ولكن أدِم الصوم عن حقوق العباد

هل يَصحّ الصيــام والبطن ماضٍ … فــي التهام القلوب والأكبـــاد؟!

نعم..

ذِكْر الله باللسان دون حضور قلب هو خطوة في الطريق لكنك إن لم تصعد سلم



العبودية لترتقي ستنتكس، وأنت أجدر بالارتقاء ليمتزج الذكر بروحك ويسري في دمك، فنبشِّرك حينها ببشرى **ذي النون المصري** رحمه الله:

«من ذَكَرَ الله تعالى ذكرًا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شئ، وكان له عوضا من كل شيء»[١].

وكثير من الناس يرفعون أصواتهم اليوم بذكر الله، لكنهم يآزرون الشيطان على الحقيقة، ومثلهم كمن ادَّعي معرفة الله بلسانه لكن أفعاله تشهد على جهله. كان **أحمد بن عاصم** رحمه الله كثيرًا ما يقول:

«أحبُّ أن لا أموت حتى أعرف مولاي!».

ثم قال:

«ليس المعرفة الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفت استحييت»[٢].



يقول **سيد** رحمه الله:

«يا للتفضل الجليل الودود!

الله جل جلاله.. يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير..

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٠٥
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٨٢



إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة.. وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير.. وهو الله العلي الكبير.. أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود!»[1].

وقوله ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ مجاز، لأن الله لا ينسى ليذكر حاشاه، ولكن المعنى أي أعاملكم معاملة من ليس بمغفول عنه، وذلك بزيادة النعم وتنزيل النصر والعناية بكم غاية العناية في الدنيا، وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة، أو أنشر طيب ذكركم وعلو فضلكم في الأرض وفي الملأ الأعلى.

والمقارنة غير منعقدة أصلاً بين ذكر العبد لربه وذكر الرب لعبده، فقد جاء رجل إلى **ابن عباس** رضي الله عنه فقال له: حدِّثني عن قول الله ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ (العنكبوت:٤٥). قال:

«ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له»[2].

وفي خضم هذه المقارنة لتزداد له حبا ومنه قربا، وتذكره بكل ذرة في كيانك وعضو من أعضائك جاء في لطائف التفسير:

- **اذكروني** في الصِّغَر **أذكركم** في الكبر.
- **اذكروني** على ظهر الأرض **أذكركم** في باطنها.
- **اذكروني** في الأرض **أذكركم** في الأرض والسماء.

اذكروني أذكركم

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٥
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٠-٤٣- أبو جعفر الطبري - مؤسسة الرسالة



- **اذكروني** بالدُّعاء **أذكركم** بالعطاء.
- **اذكروني** بالطاعات **أذكركم** بالكرامات.
- **اذكروني** بالتذلل **أذكركم** بالتفضُّل.
- **اذكروني** في السر **أذكركم** بنشر عبيركم وطيب ذكركم في العلن.

وليس بالضرورة لتفهم هذا الشرف أن تكون صاحب مكانة دنيوية أو مشتهِرًا بين الناس، فلقد رؤي أحد الأعراب واقفًا يوم عرفة بالموقف وهو يقول:

«ضجَّت إليك الأصوات بضروب اللّغات يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدّنيا»[1].

ولقد أنشد **محمد بن يزيد المبرّد لعلية بنت المهدي**:

لئن ساءني أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ ... لقد سرَّني أَنِّي خَطَرْت بِبالِك

هذا بشرٌ يمدح بشرًا بهذا الخطاب، ومع أنه يلقى العذاب في حبها، والإساءة مع تودّده إليها، لكن المهم لديه أنه خطر ببالها، ومرَّ في خيالها! فما هذا الحب العظيم والمودة المتجرِّدة، فكيف بمحبة الله؟! وهو وحده صاحب كل العطايا والمنن، والذي ما منعك إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليصطفيك، فالتضحية واحدة، والتعب والمشقة لا بد منها، لكن شتان ما بين العاقبتين!

(١) الكتاب: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٢/ ١٩،٢٠ – أبو إسحاق الثعلبي – دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان





ذكرك له أحيانا وتنساه أحيانا أخرى كثيرة، وذكره لك على مدار الأنفاس.

ذكرك له سنوات في هذه الحياة الفانية يقابله أن يذكرك إلى الأبد في الجنان الباقية.

ذكرك له في ملأ يقابله ذكره لك في ملأ خير من الذين تذكره فيهم.

ذكره لك بتوالي نعمه عليك وإيصال خيره إليك، فله مع كل طرفة عين نِعمٌ عديدة كتبها لك قبل أن يخلقك، وتحبَّب بها إليك قبل أن تعرفه، وذلك مع تمام غناه عنك وغاية احتياجك إليه، وهذا إحسان من أجل الإحسان، فلا مقابل من ورائه ولا عِوض، فالله وحده هو الغني الحميد.

فإذا وصلت إليك نعمة من النعم، فاعلم أنها علامة أن الله ذكرك فأنعم بها عليك، فلتفرح بذكر الله لك، فإنه ما حَقَرَك من ذَكَرك بإحسانه، وابتدأك بمعروفه وإكرامه، وتحبَّب إليك بنعمه وأفضاله.

عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله قال:

«ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير؛ بل إنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير»[1].

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣٠٥



وذكره لك سابق على ذكرك له، بل لولا سابق ذكره إياك ما ذكرته، ثم يكون الذكر الثاني منه ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه له.

قال ابن القيم:



«ذكر العبد لربه محفوفٌ بذكرين من ربه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكرا له وذكر بعده به صار العبد مذكورا كما قال تعالى: فاذكروني أذكركم»[1].

والبلاء الحقيقي ليس أن تفقد مالك أو جاهك، وإنما أن تنقطع صلتك بربك، لتكون من المحرومين من هذا الشرف الرفيع والنعمة الغالية، وهذا هو أصل الحرمان والهلكة: أن ينسى العبد ربه فلا يذكره، وتتضاعف المصيبة بأن لا يعلم المصاب أنه مصاب، ولا المحروم أنه محروم. سُئل الإمام السبكي رحمه الله عن قول النبي ﷺ: إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية، فقال:

«أهل البلاء هم أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى»[2].

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٣٣
(٢) نزهة المجالس ومنتخب النفائس ١/ ١٣



هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان



وسياق الآيات يوحي بأن المؤمنين حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسن الله إليهم وأدخلهم الجنة.

إنه نوع من التلطف والرقة باستخدام ما يسميه أهل البلاغة بالمشاكلة، ففارقٌ هائل بين إحسان الله وإحسان العبد، فما هي أهم ملامح إحسان الله لعباده؟!

١- ابتداؤه بالإحسان:

فقد خلقك من العدم وامتنَّ عليك بذلك في كتابه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وكأنك خير من الملائكة، وسخَّر لك الخلق كله بين يديك: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«وقد جمعت الآية خمس مِنَن:

التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأما **مِنَّة التكريم** فهي مَزِيَّة خصَّ بها الله بني آدم عن سائر المخلوقات الأرضية، والتكريم: جعله كريما أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه، ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن، فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله



الخلو عن المعارف والصنائع، وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته.

وقد مثَّل **ابن عباس** رضي الله عنه للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه، بل يرفعه إلى فيه بيده، ولا يكرع في الماء، بل يرفعه إلى فيه بيده، فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقدح، فذلك من زيادة التكريم.

والحمل: الوضع على المركب من الرواحل، فالراكب محمول على المركوب، وأصله في ركوب البر وذلك بأن سخَّر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها.

وأما **الحمل في البحر** فهو الحصول في داخل السفينة، ومعنى حمل الله الناس في البحر: إلهامه إياهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

وأما **الرزق من الطيبات**، فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جدا مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها، على أن أقرب الحيوان إلى الإنسية والحضارة أكثرها اتساعا في تناول الطعوم.

وأما **التفضيل على كثير من المخلوقات**، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع الامتنان، وذلك الذي جماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلا على البقية.

والإتيان بالمفعول المطلق في قوله ﴿تَفۡضِيلٗا﴾ لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلا كبيرا»[1].

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ١٦٤-١٦٦ بتصرف.



هذا في نعمه المادية والدنيوية أما في نعمه الإيمانية والأخروية وهي الأهم، فقد أنعم عليك بأجلِّ نعمة نعمة الإسلام، فما فائدة الغرق في نعم الدنيا إذا كانت العاقبة جهنم؟! كان **مروان بن الحكم** رحمه الله إذا ذكر الإسلام نسب الفضل فيه إلى ربه قائلاً:

«بنعمة ربي وصَلْت إليه، لا بما قدمت يدي ولا بإرادتي، إني كنت خاطئا»[1].

٢- دوام الإحسان في كل لحظة:

وهذا من الإحسان الخفي الذي لا يشعر به المرء، فالله يُمسِك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض، وهلك من فيها، وهو سبحانه الذي جعل لكل إنسان مُعقِّبات من بين يديه ومن خلفه. قال **مجاهد** رحمه الله:

«ما مِنْ عبدٍ إلاَّ له مَلَكٌ يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامِّ، فما من شيء يأتيه إلا قال: وراءك، إلا شيئا أذن الله فيه فيصيبه»[2].

٣- كثرة الإحسان:

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل أو أيسر نقص لنغَّص على الإنسان حياته ومعيشته، ولتمنى معه أن أنفق الدنيا بأسرها لو كان يملكها في سبيل أن يتخلص من هذا الألم، ومن نعمه الخفية أنه يدير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له دون أدنى علمٍ الإنسان أو تدخله، فكيف يشكر العبد ما لا يقوى أصلا على

(١) عدة الصابرين ١/ ١٠٩
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ١٦ / ٣٧٣



إحصائه؟!

كم من المرضى أصيبوا بآلام تمنوا معها الموت!

فهل شعرت يوما بهذه النعمة؟!

ولكي يُشعِرك الله بهذه النعم الكثيرة التي لا تحصى فرض على كل سُلامى صدقة، ولأنه يعلم أنك لا تستطيع شكر نعمه على كثرتها، فقد أرشدك إلى طريقة سهلة يسيرة تكفيك عناء العد والإحصاء فضلا عن مئونة الشكر، فجعل صلاة ركعتي الضحى تكفيانك عدَّ النعم ثم شكرها[١].

وهي نِعَم كامنة وسط المكاره والشدائد والمحن، فلا يتوقف سيل إحسانه عنك ولو في البلايا كما في قصة الرجل الصالح الخضر مع **موسى** عليه السلام، ولهذا رأى **أبو حازم** نعمة الله عليه في ما سُلِبه من دنياه، وبيَّن السبب في ذلك حين قال:

«نِعمة الله فيما زَوى عني من الدنيا أعظم من نعمته علي في ما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قوما فهلكوا»[٢].

بل إن صبره هو في حد ذاته خير من النعمة التي سُلِبت منه كما قرَّر ذلك **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه:

«ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه

(١) في الحديث: «**في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة: النخاعة في المسجد تدفنها، والشيء تُنحّيه عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزي عنك**». صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٣٩

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٣



خيرا مما انتزع منه، وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[1].

ومن كثرة النِّعم عمي كثير من الناس عنها حتى كأنك لا تراها كضوء الشمس يمنعك من رؤيتها، وما غابت الشمس لكنَّ قوة إشعاعها وفيض نورها جعل كثيرا من الناس لا يقوون على النظر إليها.

٤- وجود الإحسان مع ردِّك بالعصيان:

وهذا هو اللؤم بعينه، وإذا كانت كتب الفقه تجعل الولاية للمنفق، فلله المثل الأعلى، لأنه هو الذي يرزق فهو الذي يحكم، وبئس ما تُرَدّ به هدية الله وفضله! أن تقابل إساءته بالإحسان، ويكون مقابل النعمة الجحود والعصيان، والمعاصي في بعض معانيها إعلان حرب، ولذا مثلا فقد جعل الله أكل الربا يستوجب الحرب منه سبحانه، لكنه مع ذلك لا يزال يتودد إليك! ولم يحرمك ولم يمنعك، وليس ذلك معك فحسب بل ومع الكفار، فقد جاء في الحديث الذي يقطر حلما ويفيض رحمة:

«ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعه من الله! يدَّعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم»[2].

وفي هذا المعنى قال المتنبي بيت شعرٍ سارت به الركبان:

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكته وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمردا

قال العلماء:

«معناه أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذى ينسب إليه الولد والند! قال

(١) شعب الإيمان ٧-٢١٢

(٢) صحيح: متفق عليه كما في مشكاة المصابيح رقم: ٢٣



المازري رحمه الله: حقيقة الصبر منع النفس من الانتقام أو غيره، فالصبر نتيجة الامتناع، فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى، ولذلك قال القاضي رحمه الله: والصبور من أسماء الله تعالى، وهو الذى لا يعاجِل العصاة بالانتقام، وهو بمعنى الحليم فى أسمائه سبحانه وتعالى، والحليم هو الصفوح مع القدرةعلى الانتقام»[١].

جاء في عمدة القاري:

«الصبر حبس النفس على المكروه، والله تعالى مُنزَّه عنه، وأجيب بأن المراد لازمه، وهو ترك المعاجلة بالعقوبة، قوله (على أذى) قيل إنه مُنزَّه عن الأذى، وأجيب بأن المراد به أذى يلحق أنبياءه إذ في إثبات الولد إيذاء للنبي ﷺ لأنه تكذيب له، وإنكار لمقالته، قوله (**يدَّعون له الولد**): أي ينسبون إليه، وينسبونه له، ثم يدفع عنهم المكروهات من العلل والبليات»[٢].

صدوره منه أولاً:

قال ابن الجوزي رحمه الله:

«إذا تمَّ علم الإنسان، لم ير لنفسه عملاً؛ وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل، الذي يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملًا، أو يعجب به، وذلك بأشياء: منها: أنه وفق لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]»[٣].

ولهذا جاء في الحِكم العطائية:

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧-١٤٦
(٢) عمدة القاري ٢٥/ ٨٥
(٣) صيد الخاطر ١/ ٣٩٣



«من تمام فضله عليك أن خلق فيك ونسب إليك».



ردّ الجميل!

ولابد من مقابلة إحسان الرب بإحسان العبد امتثالا لأمر النبي ﷺ:

«**إن الله تعالى مُحسِنٌ فأحسِنوا**»[1].

ولو لم يكن للمحسنين فضل سوى ما قرَّرته هذه الآية لكفى بها فضلاً:

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾

قال الإمام **القرطبي** رحمه الله في شرح الآية:

«هذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن»[2].

وقد رأى **المناوي** أن المحسن قد ارتقى أعلى مقامات الدين فقال:

«الإحسان غاية رتب الدين، وأعظم أخلاق عباد الله الصالحين!!»[3].

ومن شرف هذا المقام أن رحمة الله أقرب ما تكون من أصحابه:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(١) صحيح: رواه عدي عن سمرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٢٣
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٢٧
(٣) فيض القدير ٢/ ٢٦٤

قال **ابن القيِّم** رحمه الله:

«وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعُد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بُعدا بِبُعد، وقربا بقرب، فمن تقرَّب بالإحسان تقرَّب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يُحِبّ المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه»[1].



فما هو الإحسان؟!

وكما أن الصدق مثلاً لا يتجزأ، فالإحسان كذلك لا يتجزأ، وليس محُسِنا من تراه في نصف أعماله مسيئًا، والإحسان يدل على معاني ثلاثة جاء بها القرآن والسنة كما يلي:



الأول: الإحسان بمعنى المراقبة

كما ورد في حديث جبريل صراحة: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٧



يراك، وهو مقام جليل شريف يمثِّل غاية كل شريف حتى قال عنه **ابن القيم** رحمه الله وهو يبيِّن فضله ومكانته بين مدارج السالكين إلى رب العالمين:

«وهي لب الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ها هنا فهو من الإحسان»[1].

ولماذا؟

ما السِّر في هذا الارتقاء وشرف الاصطفاء؟!

السر:

أنه يكشف ستر الغيب عن العبد (حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين، فصاحب هذا المقام: كأنه يرى ربه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطلعًا على عباده ناظرًا إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم.

وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي، ويكلِّم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبر أمر المملكة، وأملاكه صاعدة إليه بالأمر، نازلة من عنده به.

وكأنه يشاهده وهو يرضى ويغضب، ويُحِبّ ويبغض، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويثني على أوليائه بين ملائكته، ويذُمّ أعداءه.

وكأنه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين، وقد قبضت إحداهما السماوات السبع، والأخرى الأرضين السبع، وقد طوى السماوات السبع بيمينه كما يُطوى السجل على أسطر الكتاب.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٣٩



وكأنه يشاهده وقد جاء لفصل القضاء بين عباده، فأشرقت الأرض بنوره.

نادى -وهو مستوٍ على عرشه- بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرْب (وعزتي وجلالي.. لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم.

وكأنه يسمع نداءه لآدم: «يا آدم، قم فابعث بعث النار» بإذنه الآن، وكذلك نداؤه لأهل الموقف ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وماذا كنتم تعبدون؟)[1].

ولذا عرَّف الإمام **الطبري** رحمه الله الإحسان ببعض ما يقتضيه، فقال:

«وإن معنى الإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته»[2].

ولا عجب، فإنك إذا خلوت بنفسك فقد استفردت بربك، فراعيت جانبه، وشعرت بنظره إليك، فحرصت على إرضائه بطاعة في خلوة، وعبادة سِرٍّ، وخبيئة من عمل صالح، ويستتبع ذلك تقوى الله في الخلوات، وأنك إن أسأت في سرِّك تُبْتَ سرا، كما أن الإساءة في العلن يلزمها الإحسان في العلن.



الثاني: الإحسان إلى الخلق

وهو يشمل الإحسان إلى الناس، كالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمسلمين وسائر الخلق أجمعين، وهو يستدعي ألا تقابل الحسنة بالحسنة فحسب، فهذا من مقتضيات المروءة، لكن يستلزم كذلك أن ترد الإساء بالإحسان، واسمع

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٤٥-١٤٦

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٤



الكلام القيِّم يفيض به لسان **ابن القيِّم** رحمه الله:

«وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيُحسن إليه كلما أساء هو إليه! ويهوِّن هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره! وتُحسِن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك!»[1].

وليس أرفع مقامًا ولا أعظم شرفًا من رسول الله ﷺ نقبِس من هداه، ونقتفي أثره في هذا المضمار، ومن ذلك ما كان مع اليهودي الذي أساء إليه، فقد (جاءه **زيد بن سعنة** قبل إسلامه يتقاضاه دَيْنا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال:

إنكم يا بني **عبد المطلب** مُطْلٌ، فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم! فقال رسول الله ﷺ:

«أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر! تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي».

ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث، وأمر **عمر** يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روَّعه، فكان سبب إسلامه!

ذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما، فأختبره بهذا

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ١٧/ ٢٨٠ ابن جرير الطبري - ط مؤسسة الرسالة



فوجده كما وصف)[1].

لكن ما الذي يدفعك لكظم غيظك ومخالفة طبيعتك البشرية ورد الإساءة بغاية الإحسان؟!

والجواب:

رجاء أن يعاملك الله نفس المعاملة، فهو أكرم الأكرمين، وهو الذي قال أنه أحق بهذا الفضل منك!

والدليل هذا الحديث:

«حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان رجلا موسرا، وكان يخالط الناس، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، فقال الله عز وجل لملائكته: نحن أحقّ بذلك منه.. تجاوزوا عنه»[2].

ولو لم يكن في الإحسان إلا رجاء أن يعاملنا الله بالمثل لكفانا.

لكن الأمر عند صفوة المحسنين يتجاوز البشر إلى البهائم، وذلك ليجني العبد بعض حسناته عن طريقها:

(وفي كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر).

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٢٧ – القاضي عياض – ط دار دار الفيحاء – عمان

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي مسعود كما في صحيح الجامع رقم ٣١٥٩



قال الإمام **المناوي** رحمه الله:

«نبَّه بالسقي على جميع وجوه الإحسان من الإطعام، وقال **القرطبي** رحمه الله: وفيه أن الإحسان إلى الحيوان مما يغفر الذنوب، وتعظُم به الأجور!»[١].

فهذا **محمد بن واسع** رحمه الله يضع تعريفًا جديدًا للمحسن يمثِّل غاية الإكرام ويعبِّر عن طبيعة نفسية خاصة، فيقول:

«لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحسِن إلى كل من صحبه ولو ساعة، وكان إذا باع شاة يوصي المشتري ويقول: قد كان لها معنا صحبة!»[٢].



الثالث: الإتقان

وهذا في الميدان العبادي أو المعاملاتي.

من الإتقان في العبادات: إسباغ الوضوء على المكاره.

ومن الإتقان في العبادات: الخشوع في الصلاة، وإلا فإنَّ من نقر صلاته كنقر الديكة، فليس له من الأجر شيء.

ومن الإتقان في العبادات: صوم الجوارح والقلوب، وذلك بأن تصوم الجوارح عن المعاصي الظاهرة، والقلوب عن الآثام والشرورالباطنة، ولا يستقيم صوم بدون الأمرين، وإلا كان صوما مردودا، أو منقوص الأجر، وليس كاملا متقنا: «**رُبَّ صائم**

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير٤/ ٤٥٨
(٢) تنبيه المغترين ص ٣١



ليس له من صومه إلا الجوع والعطش».

ومن الإتقان في العبادات: حُسْن تلاوة القرآن لقول النبي ﷺ:

«الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البررة»[(١)].

ومن الإتقان في العبادات: الدقة في رواية الحديث، وقد أورد الإمام **الذهبي** رحمه الله كلاما يكشف به دور الإتقان في رفع مقام الرواة أو انحطاطهم! فقال:

«لا ريب أن **ابن لهيعة** كان عالم الديار المصرية، هو **والليث** معا، كما كان الإمام **مالك** في ذلك العصر عالم المدينة، **والأوزاعي** عالم الشام، و**مَعْمَر** عالم اليمن، **وشعبة والثوري** عالما العراق، **وإبراهيم بن طهمان** عالم خراسان، ولكن **ابن لهيعة** تهاون بالإتقان، وروى مناكير، فانحط عن رتبة الاحتجاج به عندهم»[(٢)].

ولهذا لم يهتموا بكثرة الرواية بل بجودة الحفظ وإتقانه، فعن **عبد الرحمن بن مهدي** قال:

«الحفظ الْإِتْقان»[(٣)].

ومن مظاهر ضعف الإيمان عدم إتقان العبادة، ولذا كان الصالحون -لخوفهم من عدم الإتقان- يهتمون بقبول العمل أشد اهتماما منهم بالعمل نفسه، فعن **فضالة بن عبيد** رحمه الله قال:

لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا

---

(١) صحيح: متفق عليه عن عائشة كما في مشكاة لمصابيح رقم: ٢١١٢

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٣- الخطيب البغدادي - مكتبة المعارف - الرياض



وما فيها لأن الله يقــول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقــال **عطاء السلمي** رحمه الله:

«الحذر: الاتقاء على العمل أن لا يكون لله»[١].

بل وفي العادات يقول النبي ﷺ عن قتل الوزغ، وتفاوت الأجر فيه بناء على دقة من يصوِّب الضربة له:

«من قتل وَزَغا في أول ضربة كُتِبَت له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك»[٢].

فهذه الحسنات المتفاوتة كل مرة عن الأخرى، هي في حقيقتها مكافأة على دقة وإتقان العامل، ولو كان عملاً حقيرًا لا يؤبه له، فحتى المقتول الذي يغادر الحياة عليك أن تقتله قتلاً حَسَنًا!

«فإذا قتلتم فأحسِنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة»[٣].

(١) لطائف المعارف ١/ ٢٠٩

(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ١٤٧

(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن شداد بن أوس كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٩٥.



وما توفيقي إلا بالله



ما هو التوفيق؟!

والجواب:

«هو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشر، وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده»[١].

فالتوفيق منزلة عظيمة يهبها الله من أحب من عباده، فإذا علم من عبده الصدق والإنابة إليه وفّقه الله وهداه كما قال ربنا:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾

وإذا وفق الله العبد فقد اجتباه، ويسَّر له أبواب الخير وهداه، **وابن القيم** رحمه الله يقرِّر أهمية التوفيق وينسب الإجماع حوله بقوله:

«وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكلّ شرٍّ فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله نفسك، وأن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد»[٢].

وللتوفيق والخذلان علامات يستطيع عن طريقها العبد تحديد موقعه باستمرار في

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٠٧
(٢) الفوائد ١/ ٩٧



القرب أو البعد عن الله.

قال **ذوالنُّون**:

«ثلاثةٌ من علامات التَّوفيق:

الوقوع في أعمال الْبِرِّ بلا استعدادٍ له،

والسَّلامة من الذَّنْب مع الميل إليه وقلَّة الهرب منه،

واستخراج الدُّعاء والابتهال.

وثلاثةٌ من علامات الخذلان:

الوقوع في الذَّنب مع الهرب منه،

والامتناع من الخير مع الاستعداد له،

وانغلاق باب الدعاء والتَّضرّع [1].

ودور الملائكة رئيسٌ في هذا التوفيق، فيسدد الله أهل الحق بملائكته، فيثبِّتونهم على الحق ويلقونه على ألسنتهم، وهذا من أهم وظائف الملائكة: تثبيت المؤمنين، فكل إيعاز بالخير في نفسك هو من الملَك، واسمع كيف فهمت اليهود ذلك! اسمع:

اختصم مسلم ويهودي إلى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، فرأى **عمر** أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيتَ بالحق، فضربه **عمر بن الخطاب** بالدِّرة، ثم قال له: وما يدريك؟ فقال له اليهودي: «إنَّا نَجِد أنه ليس قاض يقضِي بالْحَقِّ إلَّا

(١) شعب الإيمان ١-٣٧٠



كان عن يمينه ملَكٌ وعن شماله مَلَكٌ يُسدِّدانِه ويُوَفِّقانه لِلْحَقِّ ما دام مع الحقِّ، فإذا ترك الحقَّ عرجا وتركاه»[١].

ويظل دور التوفيق الإلهي حاضرا مع العبد الرباني طوال حياته حتى لحظة الفراق، فقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إذا أراد بعبد خيرًا استعمله قيل: كيف يستعمله؟ قال: يُوفِّقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه**»[٢].

أنت يا أخي..

أفقر ما تكون إلى ربك.. أجهل ما تكون إلا به.. أضعف ما تكون من دونه، فلابد أن (يعرف العَبْد حاجته إِلَى حفظه له ومعونته وصيانته، وأنه كالوليد الطِّفْل فِي حاجته إِلَى من يحفظه ويصونه، فإن لم يحفظه مَوْلَاه الْحق ويصونه ويعينه فَهُوَ هَالك ولا بُد، وقد مدَّت الشَّياطِين أيديها إليه من كل جانٍ، تريد تمزيق حاله كله، وإفساد شأنه كله، وإن مولاه وسيده إن وكله الى نفسه وكله الى ضَيْعَة وَعجز وذنب وخطيئة وتفريط، فهلاكه أدنى إليه من شِراك نَعله)[٣].

والتأرجح بين التوفيق والخذلان هو بحسب إحسان العبد وعصيانه، فاستقرار العبد على حال واحدة منهما محال، وقد قال **ابن القيم** رحمه الله:

«العبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه

(١) موطأ الإمام مالك ٢/ ٧١٩
(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٥
(٣) مفتاح دار السعادة د ١/ ٢٨٨



ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه»[1].

ما أقبح الخذلان!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾.

تحكي هذه الآية عن أناس لديهم العدة والصحة والقدرة، وقد نودي عليهم للنفير مع خير الخلقِ رسولِ الله ﷺ في يومٍ من أعظم من أيام الله، وفي رحلة وعدهم الله فيها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾..

وبعد ذلك كله.. زهدوا في هذا الفضل العظيم.. وقعدوا مع القاعدين!

لقد كره الله جهادهم لما علم من سوء نيتهم وخبث باطنهم، فأبطل عزمهم، وبثَّ فيهم داعي الضعفِ وهاجس القعود!

فماذا عنّا اليوم؟!

كم من الطاعات لا نجد في نفوسنا انبعاثا لها؟!

وكم من مواطن خيرٍ تأخرنا عنها حين تقدَّم غيرنا؟!

هل علم الله منا تقصيرا في إعداد العُدّةِ فأقعدنا واصطفى غيرنا؟!

(١) مدارج السالكين ١/ ٤١٥



إن العبرة هنا بعموم اللفظِ لا بخصوص المناسبة، وسورة التوبة التي نزلت فيها هذه الآية سُمِّيت بالفاضحة لفضحها المنافقين إلى قيام الساعة، ففيها تحذيرٌ شديد اللهجة لمن رأى في نفسه التأخر عن مواطن الخيرات، لأن الله قد يكون قد كره انبعاثه لهذا الموطن فثبطه وأقعده.

وواجبك تجاه هذه الآية أن تراجع نفسك ثم تدافعها، وتراجعها في ما كسلت عنه من طاعات، وضعفت عنه من قربات.. الأهم فالمهم.. الفرائض فالنوافل..

مع حصر للأعذار الواهية والمبررات الهزيلة..

ثم بعد ذلك تدافعها وتجاهدها حتى تألف الطاعة ثم تحبها حتى لا تطيق فراقها.



شيخٌ مُغَنٍّ!

قال **الشافعي** رحمه الله متحدِّثا عن عجائب ما رأى:

«ورأيت شيخا قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره أجمع حافيا راجلا على القينات (الجواري) يعلمهُنَّ الْغناء، فإذا أتى الصَّلاة صلى قَاعِدا!»[1].

إنّها مرحلة أبعد ما بعد الكسل، وحقبة سوداء من فصول الخذلان، ومرحلة أشد بؤسا وأقبح دلالة..

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٩٩ - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي - ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع



خلاصتها أن يكسل الإنسان عن عمل صالحٍ في نفس الوقت الذي ينشط فيه للمعصية!

وإن لهذا الشيخ المغني نسبا متصلا في زماننا!

- هل نكسل عن ساعةِ قرآن بينما ننشط لساعاتٍ من تصفح صفحات التواصل على الإنترنت؟!
- هل نقبض أيدينا عن عشرات الجنيهات عند الصدقات، ثم ننفق المئات منها ضربة واحدة في سهرة واحدة؟!
- هل نتأفف لطول خطبة الجمعة ومدتُها دقائق، ثم ننفق الساعات في مشاهدة البرامج والمسلسلات؟!

أفٍّ لنا ولما نكسل عنه من القرُبات! واستبدلنا به المعاصي والسيئات! إنها مواجهات لازمة وصراحةٌ حتمية لإصلاح المسيرة واستدراك الفائت.



التوفيق محض مشيئة أم له أسباب؟

في كتاب الله ما يؤكد أن التوفيق للطاعة من ثمار سعي العبد، وقد أطلعنا الله في كتابه على ذلك فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فترتيب الكلام في الآية يفيد أن فضل الله على أولئك وتوفيقهم للهداية كان بسبب شكرهم، واعترافهم بفضل الله عليهم،



وقد أبان **ابن القيم** رحمه الله أن التوفيق والخذلان إنما يكون على (وجه الحكمة والعدل لا بالإتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هُدى من عَلِم الله أنه يزكو على الهدى، ويقبله، ويشكره عليه، ويثمر عنده؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالاته أصلاً وميراثًا)[1].



مفاتيح التوفيق!

١ إخلاص النية!

صدق النية وصلاحها من أول أسباب التوفيق. قال عز وجل عن الحَكَمين بين الزوجين المتخاصمين:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾

وانظر كيف تنعكس نية الحكمين على العلاقة بين الزوجين: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ الحكمين، وقيل: الزوجين ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، فمتى يأتي التوفيق؟!

عندما تصدق النوايا وتصح إرادة الإصلاح، وقتها يحلّ التوفيق ويتم الصلح، فالتوفيق الرباني للعبد على قدر نيته وصدقه فيها.

(١) أدب الدنيا والدين ١/ ٣٠٣



قال **أبو حامد الغزالي** رحمه الله:

«وكتب **سالم بن عبدالله** إلى **عمر بن عبد العزيز**: اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النيّة، فمن تمَّت نيّته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره»[1].

وفي قصة **يوسف** عليه السلام شاهدٌ آخر:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

والمخلِصين بكسر اللام من الإخلاص هي قراءة ثابتة، ومعنى الآية أن توفيق الله لعبده ونبيه وحمايته من المعصية كان بسبب إخلاصه لله عز وجل.

٢ التوكل والإنابة:

ومن مفاتيح التوفيق العظيمة ما نطق به نبي الله **شعيب** عليه السلام:

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

فصدق التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه من أعظم أسباب التوفيق ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ويأخذ بيدك إلى جنة التوكل إقرارك أن الله اشتَراك! ولا ينبغي لعبد بعد البيع أن ينازع في ما باع، لأن ما بعته وجب عليك تسليمه، وعدم المساومة عليه، والمشتري وحده هو الذي يملك التصرف فيك كيف شاء!

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٨٤



بعبارة أخرى..

إن كانت نفسك لك فاصنع بها ما شئت، ولست تملك ذلك، وان كانت لمالكها وخالقها فسلِّمها له يصنع بها ما شاء، وهو عين الراحة وأصل السكينة التي وصل إليها أحدهم فأرشدك:

لا تُدبِّرْ لك أمرا	**فأولوا التدبيرِ هلْكى**
وارضَ عنَّا إن حَكمْنا	**نحن أولى بِك مِنكا**

وليرتفع بعدها صوتك بالدعاء عاليا، وليمتلئ قلبك بالثناء على ربك راجيًا:

يا ربّ هيِّئ لنا من أمرنا رَشَدا	**واجعل معونتك الحُسنى لنا مدَدا**
ولا تكِلنا إلى تدبير أنفسنا	**فالعبد يعجز عن إصلاح ما فسدا!**

ومفتاح ثانٍ أرشدت إليه الآية:

الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، فإن من أعظم أسباب الخذلان المعاصي، وقد قال ربنا:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾

ولذا ختم الشيخ **السعدي** رحمه الله تفسيره بدعاء رائع في لفتة رائعة فقال:

«ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته!»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٩٢٧



٣ صلاة الاستخارة:

وهي مظهر من مظاهر التوكل، وطلب التوفيق من الله في خير الأمرين إذا احترت فيهما، ولأهميتها فقد كان رسول الله ﷺ يعلِّمها أصحابه كما يُعلِّمهم السورة من القرآن، ولجأ إليها الصالحون في كل ما احتاروا فيه، أو أرادوا أن يعلموا اختيار الله لهم فيه، واسمع قصة المحاميد الأربعة!

جمعت الرحلة بين **ابن جرير، وابن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني** بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على **ابن خزيمة**، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة (الاستخارة، وما كانوا يسألون الناس شيئا لعفتهم واستغنائهم بالله).

قال: فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع وخَصِيٌّ (خادم) من قِبَل والي مصر يدُقّ الباب، ففتحوا، فقال: أيكم **محمد بن نصر**؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صُرَّة فيها خمسون دينارا، فدفعها إليه، ثم قال: وأيكم **محمد بن جرير**؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك **للروياني، وابن خزيمة**، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً (نائما في القائلة: وهي نصف النهار) بالأمس، فرأى في المنام أن **المحامد** (جمع **محمد**) جياع قد طووا كشحهم، فأنفذ



إليكم هذه الصُّرَر، وأقسم عليكم: إذا نفدت، فابعثوا إليَّ أحدكم[1].

٤ الاستشارة:

ومن مفاتيح التوفيق الاستشارة، وما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأرشد أمرهم ووفَّقهم لخير الأمور، وقد قال **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه في مدحها:

«الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه»[2].

وهي عطية مجانية وهبة ربانية لا يستغني عنها إلا أحمق، ولذا قيل:

«الأحمق من قطعه العُجْب بنفسه عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة»[3].

وجوهرة التوفيق مخبوءة داخل كهف الاستشارة، فمن تقدَّم نحوها رزقه الله خيرها، ووقاه شرَّ ما هو مقبل عليه، ولذا اعتنى بها الصالحون من الأمراء والخلفاء، وجعلوها من عُدَّة النجاح واختيار الصواب، وإن بلغوا ما بلغوا من رجاحة عقل ونفاذ بصيرة، ومن هؤلاء الراشد الخامس **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه الذي قال:

«إنَّ المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يضلّ معهما رأي، ولا يُفقَد معهما حزم»[4].

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠، ٢٧١
(٢) أدب الدنيا والدين ١/ ٣٠٣
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ١/ ١٤٩
(٤) أدب الدنيا والدين ١/ ٣٠٠



وهل أرجح عقلاً وأعظم توفيقًا من رسول الله ﷺ؟! ومع هذا أتاه الأمر جازمًا من ربه:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾

والحكمة من هذا الأمر الإلهي لنبيه ومصطفاه ﷺ هي ما قاله **الحسن البصري والضَّحّاك**:

«ما أمر الله تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنّما أراد أن يُعلِّمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمَّتُه مِنْ بعده»[1].

وقد صاغ الشعراء هذه التواصي بالمشاورة شعرا حتى قال قائلهم:

شاوِر صديقك في الخفيِّ المُشْكِل ... واقبل نصيحة ناصحٍ متفضّلِ

فالله قد أوصى بذاك نبيَّه ... في قوله شاورهم وتوكّلِ

٥ الافتقار

ومن أعظم ما يُستجلب به التوفيق: التضرع والافتقار وإظهار الحاجة والانكسار، وهو لب العبودية. قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«أبواب الملوك لا تُطرق بالأيدي ولا تُضرَب بالحجر، بل بنَفَس المحتاج، وعُذري: إقراري بأن ليس لي عذر!»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٥٠

(٢) المدهش ١/ ٢٨٣، ٢٨٤.



فما هو مفهوم الافتقار؟

وكيف يفوز به قلب العبد ويحتفظ به؟!

قال الشيخ **عبدالرحمن السعدي** رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

«فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم (بها)، لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل (لهم) من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.



فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفَّق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها»[١].

ولذا يقرر **الفخر الرازي** ﵀ كلامًا مفيدًا عند حديثه عن الاستعاذة التي يكرِّرها الكثيرون غافلين عن مغزاها:

«أعوذ بالله: رجوعٌ من الخلق الى الخالق، ومن الحاجة التامة لنفسه إلى الغنى التام بالحق في تحصيل كل الخيرات ودفع كل الآفات، ففيه سر: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وفيه دلالة أن لا وسيلة إلى القرب من حضرة الرب إلا بالعجز، والعجز منتهى المقامات»[٢].

وهل مثل المحنة وتكالب الأعداء وتخاذل العلماء فرصة سانحة لكي يتذوق قلبك منتهى المقامات وأعلى المدارج (العجز).

هو كنز ظنَّه الطغاة منا علامة ضعف، وما دروا أنه أساس قوتنا ومفتاح غلبتنا وانتصارنا!

ربط **ابن القيم** ﵀ بين الافتقار والتوفيق برباط وثيق فقال في المدارج:

«إذا كان كل خيرٍ فأصله التوفيق، وهو بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٦٨٧ - عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي - ط مؤسسة الرسالة.
(٢) روح البيان ١/ ٥ - إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي- ط دار الفكر - بيروت.



وصدق اللجئ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطِيَ العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مُرْتَجًا دونه!

وما أتي من أتيَ إلا من قِبَل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظَفِر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء»[١].

ولابد للعبد حتى يحقق في نفسه الخضوع التام والانكسار الكامل لمقام الرب تعالى أن يملأ قلبه من تأمُّل (مشهد العجز والضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه؛ فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يمينًا وشمالاً.

ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى تجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحًا بين يدي وليِّه ملقى ببابه واضعًا خده على ثرى أعتابه، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم، وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله، كشاة مُلقاة بين الذئاب والسباع لا يردُّها عنها إلا الراعي، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء، وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن؛ فإن حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا، وإن تخلى عنه، ووكله إلى نفسه طرفة عين كان نصيب مَنْ ظفِر به منهم)[٢].

---

(١) الفوائد ١/ ٩٧

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٢٦



وقل اعملوا فسيرى الله عملكم
ورسوله والمؤمنون



وقد جاءت هذه الآية بعد آية قبول التوبة من التائبين، وكأن من تمام توبتك أن تزيد من أعمالك الصالحة لتجبر ما فاتك من أوقاتٍ عمرتها بالسيئات، وكان الأولى بك أن تملأها حسنات، وهذا دليلٌ عملي تُقدِّمه على صدق توبتك وفرط رغبتك في الارتقاء بقلبك إلى مدارج الكمال لتلحق بمن سبقك.

أيها التائبون..

ليس الذنب آخر المطاف بل أوله!

فاعملوا عملا جديدا يناسب اعترافكم بذنوبكم، ويليق بإعلان توبتكم، وقدِّموا عملا تستأنفون به رحلتكم الإيمانية بروح جديدة، ولأنَّ الأمر من الله لا يكون إلا بعمل صالح فقد حُذِف المأمور بعمله.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ تحذير كذلك لطالبي العلم وتُجّار الكُتُب أن لا يكون همهم كثرة الرواية وغزارة التحصيل، بل أن يعملوا بعلمهم، ويدفعوا زكاة تحصيلهم، ويترجموه إلى بذل وفعال بدلاً من التفاخر ببلاغة اللسان وحسن البيان.

قال **أبو الدرداء** رضي الله عنه:

«إنما أخاف أن يكون أوّل ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمتَ، فما عملتَ في ما علِمت؟»[1].

إن العالم لا يكون عالمًا بكثرة رواياته بل بخضوع أعماله لرواياته، وحضور قلبه في صلواته.

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي ص٤١



قال **الفضيل بن عياض** رحمه الله:

«لا يزال العالم جاهلا بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالما»[(١)].

ومن حوافز العمل والدوافع إلى البذل:

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾

هذا وعيدٌ لنا وتذكير باطلاع الله علينا وعلمه بجميع الخلائق، وفيه تحذير من التقصير أو ارتكاب المعاصي لأن كون عملنا بمرأى من الله يبعث في القلوب الخوف من المعاقبة، ويدفعنا إلى الحرص على ما يرضي الله تعالى.

اعلموا أننا نراقب أعمالكم، ونرى كل ما لا يراه البشر من النوايا ومكنونات الصدور، فأخلِصوا تتخلَّصوا، وراقبوا الله في السريرة وإلا فالخذلان ترقَّبوا، ولذا قالت **عائشة** رضي الله عنها وهي توصينا أن لا نغترَّ بالظواهر:

«إذا أعجبك حسن عمل امرىء فقل: اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ولا يستخفّنّك أحد»[(٢)].



فإياك أن تجعل الله أهون الناظرين إليك، وحذارِ أن يضطرب قلبك من اطلاع من تحب من البشر على عصيانك وقلبك مع الله صخري! تعبَّد الله بأسماء السميع والبصير والعليم والرقيب، واعلم أن الظاهر والباطن عند الله سواء، فهو الذي يعلم خائنة العين وما تخفي الصدور..

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي ص ٣٧
(٢) البخاري- الفتح ١٣/ ٥١٢



ورؤية الله لا تكون ذات قيمــة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثوابًا أو عقابًا، فهي ليست مجرد رؤية، بل رؤية من يملك مفاتيح الجزاء، وأنتم راجعون إليه في النهاية لا محالة.

ورسول الله يرى أعمالكم كذلك، وهذا لمن عاش في عصره، ولا ينصرف إلى المسلمين اليوم، فرسول الله ﷺ هو الذي يتولى معاملتهم بحسب أعمالهم، وما توحي به نورانيته وإشراقه.

أو هو سارٍ علينا اليوم باعتبار أن أعمال الأحياء تُعرض على الأموات كما في الحديث:

«إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[١]..



ولذا لما دخل **عيّاد الخواص** على **إبراهيم بن صالح** وهو أمير فلسطين فقال: يا شيخ! عِظْني، فقال: بم أعظك أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تُعرَض على أقاربهم من الموتى، فانظر ماذا يُعرض على رسول الله ﷺ من عملك، قال: فبكى حتى سالت الدموع على لحيته[٢].

والمؤمنون يرون ما يظهر من أعمـالكم، لأنهم شهداء الله في أرضه، فهم يشهدون على العبد في حياته، ولو استتر في بيتـه واختبأ في مغارة لفاح ريحه وفشا عمله، وقد

(١) ضعَّفه الألباني في الضعيفة رقم: ٨٦٣و٨٦٤ وضعيف الجامع رقم: ١٣٩٦، ثم صححه في الصحيحة رقم: ٢٧٥٨
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٢١



قال **عثمان بن عفَّان** رضي الله عنه:

«لو أنَّ رجلا عمِل في جوف سبعين بيتًا لكساه الله -عزَّ وجلَّ- رداء عمله خيرا أو شرًّ»[1].

وقال **ابن المسَيِّب بن رافع** رحمه الله:

«ما مِنْ رجُلٍ يعمل حسنة في سبع أبيات إلَّا أظْهرها الله»[2].

وتبقى شهادة المؤمنين للرجل الصالح حتى بعد وفاته لتكون بشارة بدخول الجنة وفوزه بالنعيم.

مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثنى عليها خيرًا، (وتتابعت الألسن بالخير)، فقالوا:

كان -ما علمنا- يحب الله ورسوله، فقال نبي الله ﷺ: **وجبت وجبت وجبت،** ومر بجنازة فأُثنِي عليها شرًا، (وتتابعت الألسن لها بالشر)، (فقالوا: بئس المرء كان في دين الله)، فقال نبي الله ﷺ: **وجبت وجبت وجبت،** فقال **عمر** رضي الله عنه: فدى لك أبي وأمي! مر بجنازة فأثني عليها شرا، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ:

«من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، (الملائكة شهداء الله في السماء)، وأنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، (وفي رواية: والمؤمنون شهداء الله في الأرض)، (إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر)»[3].

(١) تفسير القرآن العزيز ٢/ ٢٣٠-ابن أبي زَمَنِين المالكي- دار الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة
(٢) شعب الإيمان ٩/ ٢١٠
(٣) صحيح: رواه الشيخان والنسائي عن أنس بن مالك كما في أحكام الجنائز رقم: ٢٦





نبع التجرد

هذه الآية كذلك منبع التجرد، فلم يقل الله لك: اعمل وسترى نتيجة عملك! لا، بل الله هو الذي يرى عملك، فكيف تقعد عن العمل لعقبات تواجهك وفتور يعتريك؟! ويرى ثمارَه المؤمنون حتى أولئك الذين لم يولدوا يوم عملته سيرون غرسه بعد موتك! لتراه الأجيال المقبلة!

هذه الآية شرارة الاستمرار وحافز الثبات والاستقرار، وكأن الموت هو العذر الوحيد المقبول منك لترك العمل!

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾

حين سئل النبي ﷺ: متى الساعة ؟ قال لمن سأله:

«ماذا أعددت لها؟».

هكذا الرد المباشر لتنشغل بحالك وأعمالك عن زمانك وأقرانك، ولا تهتم بما هو خارج مسئولياتك، ولا تملك حياله أي شيء.



وقد خاب من افترى



في المعاجم:

«الخيبة: (الحرمان)، من خاب (يخيب)، إذا لم ينل ما طلب»[1].

وما هو الافتراء؟!

الافتراء هو العظيم من الكذب الذي يُتعَجَّب منه، ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يصح أن يكون، وفي الفارق بين الكذب والافتراء يقول **الراغب** رحمه الله:

«الكذب إما أن يكون اختراعًا لقصة لا أصل لها، أو زيادة في القصة أو نقصانًا يغيِّران المعنى، أو تحريفًا بتغيير عبارة، فما كان اختراعًا يقال له: الافتراء والاختلاق، وكل من أورد كذبًا في غيره، وأعظم الكذب ما كان اختراعًا بحضرة المقول فيه، وهو المعبر عنه بالبهتان»[2].

قد يكون الافتراء على الله بالإفتاء بغير علم كما قال ربنا:

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾

ولذا عدَّ العلماء الإفتاء بمثابة توقيع الحكم عن رب العالمين، فقال **ابن القيم** رحمه الله:

«وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض

(١) مجمل اللغة لابن فارس ١/ ٣٠٨ - أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي - ط مؤسسة الرسالة - بيروت
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ١/ ١٩٦ - الراغب الأصفهاني - دار السلام - القاهرة



والسموات؟»[١].

وقد يكون الافتراء على رسول الله ﷺ بأن يحدِّث عنه المرء بغير علم، وينسب إليه ما لم يقله، ففي الحديث:

«اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذَب عليَّ متعمِّدا فليتبوَّأ مقعده من النار»[٢].

قال **المناوي** رحمه الله وهو يحذِّر من الاختلاق على رسول الله ﷺ:

«ما علِمتم: أي تعلمونه بمعنى تتيقنون صحة نسبته إليَّ»[٣].

وقد حذَّر النبي ﷺ من ألوانٍ من الكذب، وعدَّها من أعظم الافتراء، فقال كما في حديث **واثلة بن الأسقع** رضي الله عنه:

«إن من أعظم الفرية -ثلاثًا- أن يفري الرجل على نفسه يقول: رأيت ولم يرَ شيئا في المنام، أو يتقوَّل الرجل على والديه، فيدَّعي إلى غير أبيه، أو يقول: سمع مني ولم يسمع مني»[٤].

وهي كما ترى اختلاقات يخترعها المرء دون سند من واقع أو حق، وفي حديث آخر يحذِّر النبي ﷺ من ألوان أخرى من الافتراء فيقول:

«أعظم الناس فِريةً اثنان: شاعرٌ يهجو القبيلة بأسرها، ورجلٌ انتفى من أبيه»[٥].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٩ – ط دار الكتب العلمية
(٢) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عباس كما في مشكاة المصابيح رقم: ٢٣٢
(٣) فيض القدير ١/ ١٣٢
(٤) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٣٠٦٣
(٥) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن ماجة عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٦٦



فمن أعظم الافتراء: التعميم، وهو داءٌ وبيل وكذبٌ صريح، فأن ينسب أحدٌ إلى ألوف البشر صفةً بناء على ما لاقاه من أحدهم هو من أعظم الكذب، ولذا قال الإمام **الشوكاني**:

«القدح في قوم بمجرد فرد أو أفراد منسوبين إليهم نسبة غير مطابقة للواقع لا يقع إلا ممن لا يعرف الشرع، ولا يهتدي هديه، ولا يُبصر بنوره»[1].

ومن الافتراء:

أن ينتفي الرجل من أبيه أي ينسب نفسه إلى غير أبيه، وفي رواية **(وزنّي أمَّه)** أي نسبَها إلى الزنا لأن كونه ابنا للغير لا يكون إلا بزناها.



عقوبات دنيوية وأخروية!

وهؤلاء المفترين يعاقبهم الله في الدنيا قبل الآخرة، وقد حكم الله -بموجب الآية التي بين أيدينا- أن المفتري لا يبلغ سعيه، ولا يُحصِّل مبتغاه، مهما ظن أنه مدرِكه، بل وفوق ذلك ما قاله **ابن القيم** رحمه الله:

«وقد ضمِن سبحانه أنه لا بد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يُسحِتهم بعذابه أي يستأصلهم»[2].

(١) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني ٢/ ١٠٥٢- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني - مكتبة الجيل الجديد، صنعاء - اليمن.
(٢) الصواعق المرسلة ٤/ ١٢١٢ - ابن القيم - ط دار العاصمة بالرياض



وبين أيدينا حديثان صحيحان فيهما عقوبات دنيوية لمن افترى الكذب للتحذير من سلوك مسلكهما.

الأول:

امرأة اسمها **أروى بنت أويس**.. ادَّعت على الصحابي الجليل **سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل** رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة أنه أخذ شيئا من أرضها، فخاصمته إلى **مروان بن الحكم**، فقال **سعيد** متعجِّبا:

أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ؟!

قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من أخذ شِبرًا من الأرض ظلما طُوِّقه إلى سبع أرضين».

والشبر هنا من باب المبالغة، فإذا كان يوم القيامة جاءت هذه القطعة التي أخذها مطوَّقة في عنقه من سبع أرضين عقوبة له، وكأنها تخنقه!

فقال له **مروان**: لا أسألك بيِّنة بعد هذا، فقال: «اللهم إن كانت كاذبة فعَمِّ بصرها، واقتلها في أرضها». قال: **«فما ماتت حتى ذهب بصرها، ثم بينا هي تمشي في أرضها، إذ وقعت في حفرة فماتت»**[1].

وفي رواية **لمسلم** عن **محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر** أنه رآها عمياء تلتمس الجدر

(١) صحيح مسلم ١٣٩



تقول: أصابتني دعوة **سعيد**، وأنها مرَّت على بئر في الدار التي خاصمته فيها، فوقعت فيها، فكانت قبرها.

وفي هذا إشارة إلى إجابة دعوة المظلوم، وسرعة الإجابة كرامة من كرامات **سعيد بن زيد** رضي الله عنه.

الثاني:

أسامة بن قتادة الذي ادعى على الصحابي الجليل **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه ما ليس فيه، وذلك حين أرسل **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه رجلاً إلى الكوفة يسأل عن **سعد**، فلم يدع مسجدا إلا سأل عنه، ويثني أهل الكوفة عليــه معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبني عبس، فقـــام رجل منهم يقال له **أسامة بن قتـــادة** يكنى **أبا سعدة** قال: أما إذ نشدتنا، فإن **سعدًا** كان لا يسيــر بالسَّرِية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعــدل في القضية، قال **سعد**:

أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا، قام رياء وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرِّضْه بالفتن.

وكان بعد إذا سئل يقول: شيخٌ كبير مفتون، أصابتني دعوة **سعد**!

قال **عبد الملك** (الراوي):

«فأنا رأيته بعد، قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطُرُق يغمِزهُنَّ»[١].

(١) صحيح البخاري ٧٥٥



وأهم منها وأشد العقوبات الأخروية للمفترين، ففي رؤيا الحق التي رآها رسول الله ﷺ من حديث **سمرة بن جندب** رضي الله عنه:

«رأيت الليلة رجلين أتياني قالا لي الذي رأيته يشُقّ شِدقه، فكذّاب يكذب الكذبة، فتُحمَل عنه حتى تبلُغ الآفاق، فيُصنَع به هكذا إلى يوم القيامة»[1].



عقوبة بشعة مؤلمة وهي أن يُشرشَر شدقه إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه بكلوب من حديد، وهي مع هذا عقوبة دائمة مستمرة في ظلمة القبور إلى أن تقوم الساعة بحسب عظمة جرمه وتأثير كذبه، لكن لماذا؟! وبم استحق هذا المسكين هذه العقوبة المرعبة؟!

قال **ابن حجر** رحمه الله في الفتح:

«وإنما استحق التعذيب لما ينشأ عن تلك الكذبة من المفاسد»[2].

ولاحظ أن وسائل الحضارة اليوم جعلت العالم قرية صغيرة، فبلوغ آفاق العالم اليوم مهمة سهلة يسيرة في لمح البصر، وبضغطة زر واحدة تنشر كلامك وآراءك في صفحات الإنترنت، بل وتجعلها مُشاهَدة على قنوات اليوتيوب لتكون متاحة بالمجان لمئات الملايين، فإذا حمل كلامك كذبا، وكان فيه افتراء تنال به من عِرض مسلم، أو تهتك به سترًا بغير حق، فلا عجب أن تكون عقوبتك على الوجه الذي مضى.

---

(١) صحيح: رواه البخاري هكذا مختصرا في الأدب من صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٩٣٥
(٢) فتح الباري ١٢/ ٤٤٥





ناقل الكذب كاذب!

وانظر إلى ثلاثة من خيار الصحابة:

حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش،

وكيف أنهم جُلِدوا علانية في حدِّ القذف بثمانين جلدة، بكلام نقلوه قبل أن يتوثقوا منه، وهو محض افتراء، فقد روى **أبو داود** عن **عائشة** رضي الله عنها أنها قالت: لما نزل عُذْري قام النبي ﷺ على المنبر، فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضُرِبوا حَدَّهم»[1].

وقد عاتبهم الله فقال:

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾

بأفواهكم لا بوعيكم، ولا بعقلكم، ولا بقلوبكم، إنّما هي كلمات قذفت بها الأفواه على الألسنة دون أن تمرَّ على العقول.

ولم يكن مهما لديهم أن تكون المعلومة صحيحة أم خاطئة، وصدقًا أم كذبًا.

وليس بالضرورة لديهم أن تكون منطقية أو غير منطقية، بل تتناولها ألسنة الغافلين دون روية ولا تفكير في العواقب.

(١) صحيح: رواه أبو داود عن عائشة كما في مشكاة المصابيح رقم: ٣٥٧٩



وهذا معناه أن من علامات العقل والنضج ورجاحة الفكر التّثبُّت في الأمور والتأكد من الأخبار قبل نقلها، والعكس من علامات قلة العقل والجهل والطيش، وذلك أنها تدمِّر المجتمع وتنشر فيه نار الفرقة والكراهية.



ذبح الإشاعة!

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

قال **قتادة** رحمه الله في تفسيرها:

«لا تَقُلْ: رأَيْت ولم تَرَ، وسَمِعْت ولم تَسْمَعْ، وعَلِمْت وَلَمْ تَعْلَمْ؛ فإنَّ الله سائلُك عن ذلك كُلِّهِ»[١].

ولذا حذّر النَّبي ﷺ من ادعاء رؤية شيء دون أن يراه المرء، وعدَّ ذلك من أفرى الفِرى أي أعظم الكذب، فقال:

«أفرى الفِرَى أن يُرِيَ الرَّجل عينيه ما لم تَرَيا»[٢].

أي أن يقول رأيت في ما لم يرَه.

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٧٥

(٢) صحيح: رواه البخاري عن ابن عمر كما في مشكاة المصابيح رقم: ٤٦٢٦





كي لا تكون مشاركًا في الجريمة!

١) لا تنقل كلَّ ما سمعت:

في صحيح **مسلم**:

«كفى بالمرء كذبا أن يُحدِّث بكُلِّ ما سمع»(١).

لأن ما يسمعه المرء يختلط فيه الصِّدق بالكذب، فتتسبَّب روايته في اضطراب الأحوال، وبلبة الأفكار، وعدم الهدوء والاستقرار، وهو حديث نبوي يكافح ميل النفس إلى نقل الحديث بلا هدف إلا شهوة الحديث، ولذا رأى الإمام **مالك** رحمه الله ذلك شرطًا من شروط الإمامة فقال:

«اعلم أنه ليس يَسْلَم رجلٌ حدَّث بكل ما سمع، ولا يكون إماما أبدا وهو يُحدِّث بكلِّ ما سمع»(٢).

٢) اترك قول: زعموا

وفي الوصية النبوية الوقائية:

«بئس مطية الرجل: زعموا»(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٨٢
(٢) صحيح مسلم ١/ ١١.
(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٨٤٦ والسلسلة الصحيحة رقم: ٨٦٦



وقولهم (زعموا) و(قالوا) سلوكٌ يتنافى مع وجوب التّثبُّت، وهي في الواقع مطية الكذب، فكلّ صاحبٍ غرض أو هوًى يريد نشر الكذب دون أن يُنسَب إليه، وكل مريض قلب يريد بثَّ الأخبار المضللة بلا أدنى مسئولية سيقول (يقولون)!

وقد أراد النبي ﷺ بذلك النهي بهذا عن نقل الكلام دون أن يستوثق الناقل من صِحَّته، أو عن إنشاء قولٍ كاذبٍ من العدَم.

وقد قيل: الراوي أحد الكاذبين، ولاشك أنه لولا نشر الجهلاء للأخبار الكاذبة بقصد أو بغير قصد ما انتشر الكذب وفشا.



أمة الإسناد

ومن أهم علامات الإشاعة: التجهيل! كأن يُقال: صرَّح مصدر مسئول دون أن تعلم من هو ومتى قاله!

وأمتنا تُعرَف بأنها أمة الإسناد، فقد نُقِل إليها دينها بأدَقِّ درجات الدقة في النقل، ثم بعد ذلك تجد من ينشر الأخبار دون أمانة أو تثبُّت! ويُصدِّق كل ما يسمع دون تأكد!

ولذا قال **عبد الله بن المبارك** رحمه الله:

«الإسناد عندي من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[1].

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٢١٣ - الخطيب البغدادي - مكتبة المعارف - الرياض



وأي متهم بالكذب لا يجوز الثقة به ولا نقل الأخبار عنه، ولذا تشدَّد الرواة الثقاة في النقل عن أمثال هؤلاء، فقد كان رجلٌ يُتَّهَم في الحديث، فقيل لأمير المؤمنين في الحديث **شُعْبة بن الحجاج** رحمه الله: ألا تُحَدِّث عن فلانٍ؟! فقال:

«لأن أزني أحبّ إليَّ مِن أن أُحَدِّث عن فُلانٍ»[1].

وفي إثبات أهمية نقل الحديث بدِقة قال:

«لأن أزني أحبّ إليَّ من أن أقول: قال فلان، ولم أسمعه منه»[2].

٣) ٧ قواعد في نقل الأخبار:

وهي وصايا تحاصر الإفك، وتذبح الافتراء والادعاء، ولو أمضيناها وعملنا بها لسادت السكينة والهناء الفضاءَ.

- إذا كانت فحص المعلومة والتأكد من صحتها ثقيل عليك أو غير متاح، فواجبك الصمت أو الاكتفاء بالاستفسار عنها وحسب.
- لا تغتر بالمعلومة او الخبر من أجل أن فلان من المشاهير والمفكرين والمثقفين والدعاة يرددونها، فالعقل الجمعي طوفان لا يسلم منه إلا المتثبتون وهم قِلَّة.
- صحة المعلومة لا تُقاس بمدى شيوعها بين الناس وانتشارها في المجتمع.
- قد يكون أصل المعلومة صحيحا، لكن يكمن الخطأ في تقدير حجمها أو الإضافة لها أو الحذف منها.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٩٠ - الخطيب البغدادي - مكتبة المعارف - الرياض
(٢) شرح علل الترمذي ٢/ ٦٠٠ - ابن رجب الحنبلي- د مكتبة المنار بالأردن



- العاطفة الإيجابية تجاه مصدر الخبر تؤدي إلى طمس الأخطاء، والعاطفة السلبية والعدوانية تؤدي إلى تضخيم الخطأ، وكلا الأمرين خطأ، فإياك أن تعتمد على مشاعرك عند نقل الأخبار..

تحب شخص أو جماعة فتكذب لهم وتصدِّق كل خبر يصبّ في صالحهم، أو تكرههم فتكذب عليهم أو تصدِّق كل خبر يسيء إليهم.

قال **ميمون بن مهران** رحمه الله:

«ما بلغني عن أخٍ لي مكروهٌ -قطُّ- إلا كان إسقاط المكروه عنه أحبَّ إلي من تحقيقه عليه، فإن قال : «لم أقل»؛ كان قوله: «لم أقل» أحبَّ إلي من ثمانية يشهدون عليه!»[1].

الصامتون أكثر إيجابية من الناطقين دون تثبت أو بهوى شخصي دون تقصي للحقائق (فليقل خيرًا أو ليصمت).

- سرعة الإقرار بالخطأ إن وقع، وإعلان وبيان حجمه خير سلاح تقضي به على الإشاعة.

(١) تاريخ الرَّقَّة ص ٢٥.



ليبلوكم في ما آتاكم



قال تعالى:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

بهذه الآية الكريمة تُختَم سورة الأنعام، وهى سورة كلها نِعَم وأفضال، وفيها ما لا يحصى من آلاء الله ونعمه على العباد، وهي تُظهِر أن الحكمة من رفع درجات العباد بعضهم فوق بعض هو الابتلاء..

والدرجات تشمل كل المجالات: القوة، والعافية، والمال، والعيال، والجاه، والخلق، والخُلق، وكأن هذا الرفع هو اختبار للبشر في ما أعطاهم الله من مواهب. فاللام في ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ تعليلية.

قال **الكفوي** رحمه الله:

«الابتلاء: التكليف في الأمر الشاق، ويكون في الخير والشر معا، ولكنهم (عادة ما) يقولون: في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاء»[1].

والابتلاء ليس أمرا مذموما في ذاته، بل هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته.

قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«ليبلوكم في ما آتاكم أي ليخبركم في ما أنعم به عليكم من درجات النِّعم حتى يظهر للناس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها، وهي المعبَّر عنها بالدرجات، والدرجات مستعارة لتفاوت النعم، وهي استعارة مبنية على تشبيه

(١) الكليات ١/ ٢٩.



المعقول بالمحسوس لتقريبه»[1].

إن ما منحكم الله في هذه الحياة من نعم هو رصيدٌ لكل منكم فى سوق الحياة، وفى هذه السوق يكون العمل، ليربح من يربح، ويخسر من يخسر، فانظروا في أحوالكم..

آتاكم البنات والبنين فماذا غرستم في عقِبكم؟!

آتاكم الصحة فهل بذلتموها في ما يرضيه؟!

آتاكم فراغا فهل ملأتموه بما ينفع لا بما يضركم دنيا وآخرة؟!

آتاكم القوة والشباب ليختبركم في ما أنفقتموهما؟!

آتاكم المنصب والسمعة والمكانة فهل افتخرتم بها واستكبرتم بها على خلقه أم سخَّرتموها في خدمتهم؟!

واختلاف حال العبد بين الرفع والخفض، والرخاء والشدة، والمنح والمنع له فائدة، بل ومن أعظم النعم، وفي ذلك يقول **ابن عجيبة** رحمه الله:

«اعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المنن عليه إن صَحِبَتْه اليقظة، فيرجع إلى الله تعالى في كل حال تنزل به، إن أصابته ضراء رجع إلى الله بالصبر والرضا، وإن أصابته سراء رجع إليه بالحمد والشكر، فيكون دائمًا في السير والترقي، فالرجوع إلى الله في السراء والضراء من أركان الطريق، والرجوع إلى الله في الضراء بالصبر والرضا، وفي السراء بالحمد والشكر، ورؤية ذلك من الله بلا واسطة»[2].

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٢١١
(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٤٦٠ بتصرف يسير- أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة - الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة



لا يصبر على السَّرّاء إلا الصديقون!

وقد اخبر **ابن القيِّم** رحمه الله أن ابتلاء الخير رغم أنه يوافق هوى العبد ومراده، لكنه يحتاج إلى صبر من عدة وجوه:

«**أحدها**: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحبّ الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها.

الثالث: أن يصبر على أداء حقِّ الله فيها، ولا يضيِّعه فيُسلَبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكِّن نفسه من كلِّ ما يريده منها، فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كلَّ الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السَّرّاء إلا الصِّديقون»[1].

وهو صبر على النعمة أو في حقيقته شكرٌ لها، والشكر كما قال **ابن القيم** رحمه الله:

«جعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتقَّ لهم اسما من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم

(١) عدة الصابرين ١/ ٦٤



القليل من عباده.

جعل الله الشكر سببًا للمزيد من فضله وحارسًا وحافظًا لنعمته، وموصلاً الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورًا»[1].

هي دار اختبار..

وغدًا تُعلن النتائج..

وكل ما تنعَّمت به اليوم أو عانيت منه، فغدًا تلاقي نتيجته حتمًا ولابد..

إذا علمت أن النعمة اختبار، فكيف يصيبك الزهو والغرور إن زارتك؟

وكيف تتلبَّسُك روح المتكبِّر إن نزلت بك النعمة وأصابتك؟!

ولقد كان رسولك نِعم القدوة والأسوة في هذا المضمار، وحاز قصب السبق فيه، فلقد فاوت الله أحوال نبيه عليه الصلاة والسلام، وجعلها تتقلب عليه حالاً بعد حال، فمن الشدة إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الغنى، فكان في مكة لا يجد شيئًا يأكله إلا شيئًا يواريه إبط بلال، وجاع، وحوصر، وأخيف، ولكنه ثبت في المحنة، وصبر على الشدة، فلما فُتحت عليه الدنيا، وأتته الأموال، وأغناه الله في آخر حياته كان نعم العبد الشكور، وهذا هو المنتظَر منك.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٣٢



يُضل به كثيرًا ويهدي به كثيرًا



قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

قال **قتادة** رحمه الله:

«أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكرَ منه شيئًا ما، قلَّ منه أو كثُر. إن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذِكْر هذا؟ فأنزل الله الآية»[1].

ومع هذا أخبر الله تعالى أن القرآن قد يكون سببًا لضلال صنف من النَّاس، مع أن القرآن هو الهدى الذي هدى الله به رسوله وعباده المؤمِنين، وليس أعظم فسادًا من قلبٍ يضل بما يهتدي به الآخرون، وكما قيل:

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريض ... يجِد مُرًا به الماء الزلالا

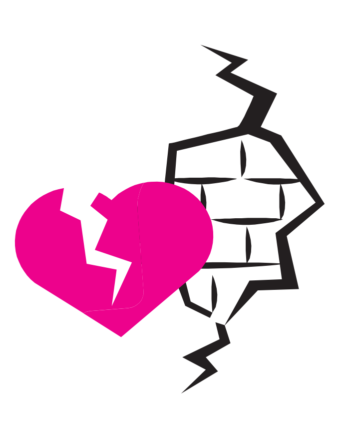
والعيب ليس في الماء الزلال بل في فم المريض، ولهذا أخبر سبحانه إنَّه إِنَّمَا يهتدي به من اتبع رضوان الله.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٣٩٩- أبو جعفر الطبري- ط مؤسسة الرسالة. ذكر العلماء أن في هذه البعوضة جهاز رادار تتجه به في ظلمة الليل إلى الإنسان النائم على فراشه دون أن تخطئ الهدف، وفيها جهاز لتحليل الدم، وقد يُعجِبها دم هذا النائم، ولا يعجبها دم أخيه، فتعكف على الأول وتترك الثاني، ولها جهاز لتمييع الدم، لأن لزوجة الدم لا تعينها على امتصاصه في الجزء التي تُلدَغ، فتفرز مادةً تميِّع بها الدم، وهل تصدِّق أن هذه البعوضة تملك جهاز تخدير لأنها لو وقفت على جلدك، وغمست خرطومها في جلدك، وشعرت بها لقتَلتها في الحال، لذلك تُخدِّرك، وإذا طارت البعوضة سُمِع لها طنين، وسبب الطنين أن عدد خفقان أجنحتها أربعة آلاف خفقةٍ في الثانية الواحدة!



قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾



لا أعظم نعمة على العباد من نزول آيات القرآن، ومع هذا تكون لقوم محنة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقومٍ آخرين منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فالسورة واحدة، والآية واحدة، لكن القلوب المستقبلة لها متباينة، فالمؤمن يستقبلها بمَلكاتٍ سليمة، فيزداد بها إيمانا، والمنافق ومريض القلب يستقبلها بنفس خبيثة، فيزداد بها نفاقا وبُعدا عن الله، واذا فسد القلب فسد إدراكه ونظرته للأمور، فرأى الحق باطلا، والباطل حقا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفًا.

إن هؤلاء الضُّلّال أشبه بالهوام التي يجرفها السيل المندفع ويُغرِقها، على حين يحيا به كل كائن حي، ويهش له كل ذي حياة، وإنهم أشبــه بالخفافيش التي يُفزِعها ضوء الشمس فتهرب منه، على حين يهرب الخلق إلى الشمس حيث النور والحياة!

إنه مرض الشبهة وهو أردأ من مرض الشهوة؛ إذ مرض الشهوة يُرجى له الشفاء



بقضاء الشهوة، وأما مرض الشبهة فلا شفاء له، إن لم يتداركه الله برحمة.



سبب التباين بين القلوب؟!

وهل الإنسان -بموجب هذه الآية- مخيَّر بين الهدى والضلالة أم مجبر على أحدهما؟

والجواب: كلا

قال **قتادة** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

«فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم»[(١)].

إن سعي العبد إذن.. هو السبب الحقيقي في هدايته أو ضلالته، وكما جاء في المثَل:

«يداك أَوْكَتا وفوك نَفَخَ»[(٢)].

ومن هو الفاسق؟!

هو الخارج عن طاعة الله الذي استمرأ الفسق، وداوم عليه حتى صار الفسق وصفا ملازما له؛ فلا يبغي به بدلا، والذي أوجد هذا الفسق هو الإنسان الذي خُلِق مختارًا.. قادرا على أن يفعل أو لا يفعل، فاقتضت حكمة الله إضلالهم لاختيارهم

(١) تفسير ابن كثير ١: ١١٩، والدر المنثور ١: ٤٢، والشوكاني ١: ٤٥

(٢) قصة هذا المثل: وزعموا أن قوماً كانوا في جزيرة من جزائر البحر في الدهر الأول ودونها خليج من البحر، فأتاها قوم يريدون أن يعبروها فلم يجدوا معبراً، فجعلوا ينفخون أسقيتهم، ثم يعبرون عليها، فعمد رجل منهم فأقلَّ النفخ وأضعف الربط، فلما توسط الماء جعلت الريح تخرج حتى لم يبق في السقاء شيء، وغشيته الموت فنادى رجلاً من أصحابه أن يا فلان إني قد هلكت، فقال: ما ذنبي؟! يداك أوكتا، وفوك نفخ فذهب قوله مثلاً. أمثال العرب ١/ ١١٧ - المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي - ط دار الرائد العربي



العناد والخروج على أمر الله، وكما اقتضت حكمته هداية من تحلى بالإيمان واتصف بالأعمال الصالحة.

والهداية هدايتان:

هداية دلالة وهداية توفيق، فهداية الدلالة أو الإرشاد هي كما ورد في القرآن:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾.

أي أرشدناهم إلى طريق الهدى، فاختاروا الضلالة بسبب خُبث قلوبهم، والله تعالى يقول:

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾.

«أَيْ: يُصْرَف عنه من صُرِفَ»[1].

ومن هداية الدلالة ما قاله ربنا في شأن نبيه ﷺ:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

لكن هدايةً أخرى بيد الله وحده لا بيد نبي ولا ولي، وفيها قال ربنا في آية يبدو في ظاهرها التناقض مع الآية السابقة:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

فنسب الله الهداية إلى النبي ﷺ في آية ونزعها منه في أخرى، فالأولى هداية الدلالة والثانية هداية التوفيق، وما قيل في رسول الله ﷺ يُقال في ورثته من أهل الدعوة

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٢/ ٣٩٩



والبلاغ، فليس بأيديهم الهداية والتوفيق، وإنما الإرشاد وبيان الطريق، وليس شرطا كي ينالوا أجورهم أن يهتدي الخلق، وإنما إذا بذلوا جهدهم في بيان الحق

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾.

وهداية التوفيق هي أفضل عطاء وأعظم جائزة ينالها المتقون من ربهم، فليست النعمة الحقيقية في مزيد المال أو العيال أو التوسعة في الرزق الدنيوي والمتاع الزائل، بل في مزيد الهداية، ولهذا قال ربنا في بيان جائزة ومكافأة من اهتدى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

أجزل العطايا الربانية وأقسى العقوبات ما كان في القلوب، وإذا عُمِرَت القلوب صحَّت الأبدان «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلُح الجسد كله**».

ولذا كانت أفضل دعوة تنالها ممن يحبك: (ربنا يهديك)!



فارق الفرقان!

قد تعجب من صاحب لك يجادلك في قضية واضحة؛ والحق فيها بيِّنٌ جلي لا يحتاج إلى مزيد شرح أو إيضاح، ومع هذا يجادل فيه، ولا يستبين وجه الحق، بينما آخر من البسطاء لا يحمل شهادة عالية ولا مؤهِّلا مرموقا لكن الأمور لديه واضحة، ويتضح له فيها وجه الحقيقة على الفور، والسبب الرئيسي في هذا التباين هنا هو التقوى!



هي التي تجعل التقي يميِّز الحق من الباطل، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، بل ويفرِّق بين السمين والغث من الأفكار المطروحة، وهذه ثمرة التقوى البارزة التي ذكرها ربنا في سورة الأنفال فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فرقانا: أي بصيرة تفرِّقون بها بين الحق والباطل، حتى يعرفوه ويهتدوا به؛ وذلك من قولهم: فرقت بين الشيء والشيء: أفرِق بينهما فرقا وفرقانا، وهذا الفرقان هو ثمرة وميراث لما قدَّموه من الإحسان.

ويميِّز العلامة **محمد رشيد رضا** رحمه الله بين نوعين من العلم؛ **الأول** هو ما يقوم به على التلقين كالعلم بأصول الشرع وفروعه، **والثاني** وهو ثمرة الأول إذا عُمِل به، وهو العلم الذي تتبيَّن به خفايا الأمور وبواطنها، والفارق بين الحق والباطل، وهو المقصود في الآية، ولا يكون إلا ثمرة التقوى، والعمل بالعلم الأول.

قال رحمه الله:

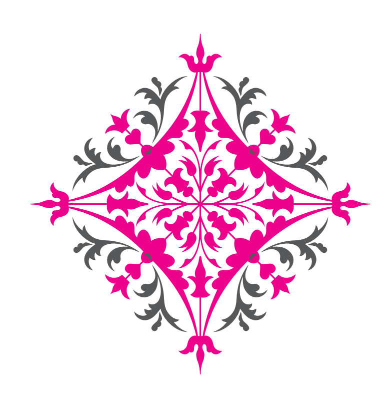
«وتقوى الله تعالى في الأمور كلها تُعطي صاحبها نورا يفرق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس، فهي تفيده علمًا خاصًا لم يكن ليهتدي إليه لولاها.

وهذا العلم الذي هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه؛ لأنها عبارة عن العمل -فعلا وتركا- بعلم، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم كما ورد في الحديث (**العلم بالتعلم**).

والعلم الذي هو فرعها وثمرتها هو ما تفطن له النفس بعد فيفيدها الرسوخ في



العلم الأول بالعمل به، فإن العلم يكون في النفس مجملاً مبهمًا حتى يُعمل به، فإذا عُمِل به صار مفصَّلاً جليًا راسخًا تتبين به الدقائق والخفايا، وبذلك تفطن نفس العامل إلى مسائل أخرى تطلبها بالتجربة والبحث حتى تصل إليها، وهو المشار إليه بحديث: **(ومن تعلَّم فعمل علَّمه الله ما لم يعلم)**، وحديث **(من عمل بما علم ورَّثه الله عِلمَ ما لم يعلم)**»[(١)].



(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ٣/ ١٠٨ بتصرف يسير- محمد رشيد بن علي رضا - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب



كُل نفسٍ بما كسبت رهينة



وفي ظلال الآية نتأمل هذه المعاني:



قال ابن عبَّاس رضي الله عنه:

«مأخوذةٌ بعملها»[1].

أي محاسبة به في الدنيا والآخرة، ومأخوذة بعملها؛ إما خلَّصها وإما أوبقها.

والرَّهن هو ما يوضع وثيقةً للدَّيْن، فإن أديت ما عليك من ديْنٍ فككت رهنك، وإلا ظل الرهن في حوزة صاحب المال، والعمل الصالح بمنزلة الدَّيْن الثابت على المرء حيث أنه مطالب به، ونفس العبد مرهونة به، فكما ترهِن بعض ما تملك حتى تؤدي ما عليك من دَيْن، فكذلك هو الحال مع العمل الصالح، فما لم يصل إلى الله ما عليك فلن يخلِّص نفسك المرهونة من العذاب.

عملك إذن ديْن مفروض عليك، إن عمِلت واجتهدت فقد تحرَّرتَ وإلا هلكت، وهو ما نصَّ عليه الحديث:

«فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها»[2].

وتخليص نفسك عن طريق عملك هو محض فضل من الله الذي غرس فيك حب

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥
(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٩٢٥



الخير ثم أثابك عليه، وإلا فأعمالنا كلها لا تكفي لعتق رقابنا من النار:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾

وفي الآية إعلامٌ بهول العذاب لنتقيه، فكلمة ﴿نَفْسٍ﴾ تفيد أن هذا العذاب لا تتحمله أي نفس على تفاوت النفوس في احتمال الآلام.

قال **الحسن البصري** رحمه الله:

«المؤمن في الدنيا كالأسير، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله»[1].

قال الشيخ **السعدي** رحمه الله:

«أي أن كل نفس مرتهنة محبوسة وموثقة بكسبها السيء، وحبسها في العذاب السيء؛ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكما حبس المجرمون ما لديهم لله ولخلقه من الحقوق اللازمة، فلم يؤدوا الصلاة التي هي أكبر العبادات المتضمنة للإخلاص للمعبود، ولا أطعموا المساكين من الحق الذي أوجبه الله لهم في أموالهم، ولا حبسوا نفوسهم على ما شرع، بل أطلقوها فيما شاءوا من المرادات الفاسدة، فخاضوا بالباطل مع الخائضين، بل كانوا يكذبون بيوم الدين، فلذلك حبسوا في هذا المحبس الفظيع، وأدخلوا في سقر، ولما كان أصحاب اليمين قد حبسوا نفوسهم في الدنيا على شرع الله تصديقًا وعملا، وأطلقوا ألسنتهم وجوارحهم في طاعة الله ومرضاته، أطلق الله إسارهم وفكَّ رهنهم، فلم يكونوا في ذلك اليوم مرتهنين، بل كانوا مطلقين في ما اشتهت أنفسهم ولذَّت عيونهم، فعملُ العبد في الدنيا إما أن يكون سببًا لارتهانه

(١) الزهد لابن المبارك (٣٠٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٢٠٨)



أو سببًا لخلاصه، بل الأصل أن الإنسان في حبس، وأن عمله سيُرتَهن، لأنه ظلوم وجهول طبعًا، إلا من خلَّصه الله من هذا، ومنَّ عليه بالصبر وعمل الصالحات، فلهذا جعل الارتهان عامًا، واستثنى منه أصحاب اليمين»[١].

ومن هؤلاء العتقاء:

أبو هريرة رضي الله عنه الذي كان يسبِّح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، ويقول: أسبِّح بِقَدْر دِيَّتي[٢].

ومنهم: **أبو محمد حبيب الفارسي** صاحب المكرمات مجاب الدعوات الذي اشترى نفسه من الله بأربعين ألفا[٣].

ومنهم: **عمرو بن عتبة** الذي كان يجتهد في الأعمال الصالحة ويقول: إنَّما أنا أسيرٌ أسعى في فكاك رقبتي[٤].

وكانوا يعظون بعضهم بعضًا بهذه الوصية، وكانت خير موعظة تعلق بالقلوب، فلا تفارقها حتى الموت!

قال **أبو بكر بن عيّاش** رحمه الله:

«قال لي رجل مرَّة وأنا شابٌّ: خلِّص رقبتَك ما استطعتَ في الدنيا من رقِّ الآخرة، فإنَّ أسيرَ الآخرةِ غير مفكوكٍ أبداً. قال: فوالله ما نسيتُها بعد»[٥].

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ٨٢، ٨٣- عبد الرحمن السعدي _ ط دار الحضارة للنشر التوزيع.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١٠
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٦/ ١٤٩
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ١٥٦
(٥) حلية الأولياء ٨/ ٣٠٤ وصفة الصفوة ٣/ ١٦٤



أثامــن بالنفـــس النفيســـةِ ربَّها — ولَيـسَ لها فـي الخلق كُلِّهم ثَمَــنْ

بها تُملك الأخـرى فإنْ أنـا بعتُهَا — بشيءٍ من الدُّنيا، فـذَاكَ هُوَ الغَبَنْ

لَئِنْ ذَهَبَتْ نفســـي بدُنيـا أُصيبُها — لقَدْ ذَهَبَتْ نفسي وقد ذَهَبَ الثَّمنْ



الحبـــس

لن تفلت منه ولو تحصنت بالقلاع والحصون، ومن يستطيع منا الفرار من الله؟!

ولأن الرهن متعلِّقٌ بالحبس، فإن لم يؤدِّه العبد ظل محبوسا في النار حتى يؤدي ما عليه، فالمرهون محبوسٌ بيدِ الدائن إلى أن يستوفي دَيْنه منه، والحبس لا تستطيع الخروج منه، بل لا تملك حرية الحركة داخل محبسك.

قال تعالى في صفة النار وإحكام إغلاقها:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾

قال **الضحاك** رحمه الله:

«حيط لا باب له»[١].

أي مطبقة أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها، ولا فرج، ولا خروج منها إلى الأبد، ومعنى إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واستحالة الهرب واليأس من الإِفلات كحال المساجين الذين أُغلق عليهم باب السجن، ومضاعفة العذاب بالحبس يستهدف

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣١٧



تشديد العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وهو مجرَّد تمثيل وتقريب صورة أما حال جهنم فأشد من أن يتصوره عقل.

والرهن شائع عند العرب، فقد كانوا يرهنون في الحمالات والديات إلى أن يقع دفعها، فربما رهنوا أبناءهم، وربما رهنوا واحدًا من صناديدهم، ومن حديث **كعب بن الأشرف** أنه قال **لعبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه: أرهنوني أبناءكم.

ودينك هو أي عمل صالح ينقذك من يد زبانية العذاب، وفي الآخرة لا فرصة لديك لتؤدي ما عليك، وتقضي ما تأخرت فيه، فيكون الحبس الدائم في العذاب الخالد.



أيتها الرهينة!

مقبولٌ منك عملك الصالح ما دمت في دنياك، لكنه عديم النفع لا يساوي شيئا إن قدمته في أخراك، فالبدار البدار، واغتنام الأوقات قبل المحاسبة على الهفوات فضلا عن السيئات.



الأخذ بالشدة

والرهن مشعِرٌ بالأخذ بالشدة والإكراه، ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من المغلوب ضمانا لئلا يخل القوم بشروط الصلح، وحتى يعطوا ديات القتلى



وإلا كان الانتقام من الرهائن قتلاً وتنكيلاً.

والله تعالى يخاطب العقول بما تفهم، ويضرب لها المثل لتقترب الصورة وتصير في متناول القلوب والعقول، وإلا فالله لا يلزمه شيء.



من الذي حبسك؟

من الذي قضى عليك العذاب؟

هل غيرعملك الخبيث؟!

هل غير التوجه نحو النار بسعي حثيث؟!



المسئولية الفردية

فلا يمكن أن يؤخذ من حسنات أحد إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فتُحمَل عليه إلا ما ورد من القصاص للمظلوم من الظالم.

كان **محمد بن أسلم** شديد التمسك بسُنة النبي ﷺ حتى قال عنه **إسحاق بن راهوية** يقول: لم أسمع بعالم منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من **محمد بن أسلم**.

قال **محمد بن أسلم**:

«ما لي ولهذا الخلق؟

كنت في صُلب أبي وحدي،



ثم صِرت في بطن أمي وحدي،

ثم دخلت الدنيا وحدي،

ثم يقبض روحي وحدي،

ثم أدخل في قبري وحدي،

ثم يأتيني منكر ونكير فيسألاني وحدي،

فإن صِرت إلى خيرٍ صرت وحدي،

ثم يوضع عملي وذنوبي في الميزان وحدي،

وإن بُعِثت إلى الجنة بُعِثت وحدي،

وإن بُعِثت إلى النار بُعِثت وحدي، فما لي وللناس؟»[١].

ولهذا كان لا يبالي بنظر الناس إليه لأنهم لن يكونوا معه حين تُوفّى كل نفس ما كسبت، ويحلف أكثر من مرة فيقول:

«لو قدرت أن أتطوَّع حيث لا يراني ملكاي لفعلت، ولكني لا أستطيع ذلك خوفًا من الرياء»[٢].

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣١٧
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣١٧



كُلُّ الناس يغدو



في الحديث:

«كلُّ الناس يغدو، فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها»[(١)].

والغدو هو السير أول النهار وهو ضد الرواح، وفيه بركة البكور حين يتجه المرء إلى عمله وكسبه، وسرّ هذا التشبيه أنَّ الحياة تجارة، والعمر فيها رأس مال ينفقه الإنسان في سلعة رائجة أو بائرة، ولذا تنادي كل دقيقة صاحبها إذا لم يغتنمها: قد ضِعت منك إلى يوم القيامة، فكيف إذا أنفقها في الخسران عن طريق العصيان؟!

وقد جعل الله الدنيا طريقًا يسير فيه الجميع نحو نتيجة سعيهم، فكل إنسان كادحٌ إلى ربه كدحا فملاقيه، وفي نهاية الطريق يجد الله عنده ليوفيه حسابه؛ إحسانًا بإحسان، وهوانًا بهوان.

وفي هذه السُّنة الربانية فوائد عدة:



الفائدة الأولى: كلٌّ يغدو

إن الناس في حركة دائبة، وفي عملٍ من غدوّ ورواح لا يتوقف لحظة، وحتى القاعدين منهم والنائمين تعمل قلوبهم وهم ساكنون.

ومن أعمال القلوب تمعرها لمشاهد الحرام أو استئناسها بها.

وانقباضها لوقوع المنكرات أو انبساطها.

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٩٢٥



ولا عذر لأحد في ترك أعمال القلوب المحمودة أو في التحلي بصفاتها الخبيثة، فقد يُعذَر المرء في ترك النهي عن المنكر باللسان أو باليد، ولكن لا عذر له البتة في ترك الإنكار بالقلب، فلا مناص من أن توالي القلوب من والى الله، وتعادي من عادى، وتستبشر بالحق، وتُبغِض الباطل، وليس من وراء ذلك مثقال حبة من خردل من إيمان!

فسائل نفسك كل فترة:

هل أنت على الصراط اليوم أم انحرفت بك عجلة القيادة؟!

هل تتجه بأعمالك صوب الجنة أم تسير نحو حتفك في جهنم؟!

انظر من أي الفريقين أنت؟

وفي أي الصفين اصطففت، فحدِّد موقعك اليوم لتستشرِف به مستقبلك الحقيقي ومصيرك الأبدي غدا!



الفائدة الثانية: ربحٌ أو خسارة

ونتيجة هذا الغدو ربح أو خسارة، ولا ثالث لهما:

«فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها».

إنها نتيجةٌ ملازِمةٌ للفائدة الأولى ذلك أن نتيجة هذا السعيِ بيعٌ لا محالة، ولكنه ليس بيعا كأي بيع بل بيعٌ لأغلى ما يملك الإنسان: نَفْسه التي بين جنبيه، والبيع هنا



كناية عن الانكباب على غرض وغاية، ففي سعي العبد فكاك نفسه من عذاب الله وإعتاقه، أو تسليم نفسه إلى النار عياذا بالله.

أخي!

إن الدنيا سوق، والناس كلها ترتاد هذا السوق، ولابد من بيع فيه وشراء، ومن غدو وروحة، والنفس أغلى سلعة، والربح الجنة، والخسران النار، ولذا قال **عامر بن العباس الهمداني** الزاهد:

إنَّما الدُّنْيا إلى الجنة والنــــار طريق — واللَّيالي متْجَر الإنسان والأيَّام سوق

الفائدة الثالثة: من لم يبع نفسه لله فسيشتريه الشيطان!

نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، والقلب الفارغ يُغري كل شيطان مريد بالإقامة فيه، والعبد الصالح له شغلٌ بالطاعات يطرد عنه السيئات، وأما البطَّال فحليف إبليس، ومرشَّحٌ لكل عمل خسيس.

إنها مشاهدات تجريبية لعالم من علماء القلوب هو **ابن قيِّم الجوزية** رحمه الله، وقد استغرقت منه أزمنة طويلة للرصد والمتابعة والإثبات حتى خرج علينا بهذه النتيجة الصادمة:

«العبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلَّت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره.



بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع فإنه تعظم محبته له، ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه.

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه: تنقُص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه.

ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها: لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة.

ومن أدمن على أخذ الحكمة والأدب من كلام حكماء فارس والروم: لا تبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع.

ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم: لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، **ونظير هذا كثير**»[1].

الفائدة الرابعة: راحة ترتدي ثوب التعب!

كل تعب يبذله الإنسان في سبيل الله فإن الله مكافئه عليه عاجلاً في الدنيا غير الآجل في الجنة.

ويلتذ المؤمن الذي أعتق نفسه من النار هي في حياته، وفي قبره، ويوم القيامة، فهو في حياته سعيد بطاعة الله ولذة مناجاته واصطفاء الله له بالقُرب منه، فإن عظم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/ ٥٤٣ – ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي – دار عالم الكتب، بيروت، لبنان



مقامه عند ربه استعمله في خدمة دينه، وحتى لو لقي الأذى في سبيله، فإن حلاوة ثوابه تنسيه مرارة بلائه (**من يُرِد الله به خيرا يُصَب منه**)، ومستبشِرٌ هو عند الموت ببشارة الملائكة، وهانئٌ في قبره بما ناله من نعيم، ومستطارٌ فرحا بمقعده الذي يراه من الجنة فيهتف: ربِّ أقم الساعة، ثم ضاحكٌ مسرورٌ طوال يوم القيامة فلا يشعر مع ذلك بطول يومٍ مقداره خمسين ألف سنة: «**يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر**»[1]، والأهم من ذلك كله ترافقه راحته وتتضاعف سعادته حتى يكاد يموت فرحا باجتياز الصراط إلى نعيم الجنات.

وأما موبق نفسه فمحرومٌ من ذلك كله، فهو معذَّب في الدنيا بتعبه في تحصيل معصية الله، ثم متــألِّم من جراء اقترافها، وشقيَّةٌ روحه بآلام البعاد عن ربِّ العباد، وتعيسٌ عند احتضاره بسوء اختياره، وبائسٌ تحت التــراب بما يلاقي في قبره من العذاب، وعند البعث يفـزع الفزع الأكبر ويرتعــد، ثم يلاقي هـول الحساب وما بعد الحساب، ومن أعظـم شقاء هؤلاء: حرمانهم من النظر إلى وجه الله الكريم كما توعَّـدهم ربهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ومن وراء الحرمان مقاساة ألـوان العذاب فـي النيـران: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ حتى إنهم ليطلبون تخفيف العذاب عنهم يومًا واحـد فلا يُجابون ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وصدَق الشاعر:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنـــايا أن يَكُنَّ أمانيـــا

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٩٣.



نعم.. هناك عبادات يجد المؤمن فيها المشقة، ومنها:

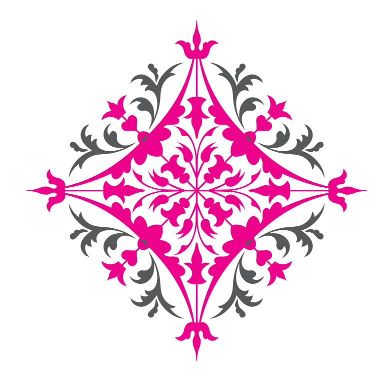
* إسباغ الوضوء على الكريهات أو على السَّبرات، وهو الوضوء عند البر القارص.

* ومنها المشي إلى المساجد خاصة في الظلمات، ومنها الانتظار في المساجد بعد الصلوات.

* ومنها الصبر على ما يصيب الداعية في سبيل نشر كلمة الحق والثبات عليه.

لكن هل في مقابل هذه المشاق إلا ثمار رائعات من تكفير السيئات، ورفع الدرجات؟!

وشتان بين تعب يورث الجنة، وآخر ثمنُه النار!





وكلاً نقصُّ عليك من أنباء
الرسل ما نثبت به فؤادك



قال تعالى:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

والقَصَص مأخوذ من القصِّ، وهو اتبـاع الأثر؛ ومنه (اقتصَّ) الأثر، ويُقال (القاصُّ) وهو من يأتي بالقصة على وجهها، ويتتبَّع معانيها وألفاظها، وسُمِّي كذلك لاتباعه خبـرا بعد خبـر، وسوقه الكلام سوقًا بلا زيادة أو نقصان، وقد (اقتصَّ) الحديث أي رواه على وجهه، وأصل القَصَص في العربية اتباع الشيء بالشيء، ومنه قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾.

والذي يقصّ علينا القصص هنا هو الله جلَّ في علاه، ولو قرأتَ في كتب التاريخ أي حدث تاريخي لوجدته يعبِّر عما رآه أو سمعه راوي الخبر، ولعلَّ ما رآه أو سمعه منقوص غير كامل، وغاب عنه فيه جزءٌ من (الحقيقة)، فإذا أضفت إلى هذا أن كل قصص التاريخ تعبِّر عن وجهات نظر رواتها وآرائهم واتجاهاتهم؛ لعلمت أنه لا بد للراوي من الميل إلى طرف على حساب طرف، والتأثر بالبغض أو الحُبِّ..

ولذا فقصص البشر ليست هي الحق المطلق، وليس أي من أوجه القصور هذه موجود في كتاب الله، فهو القصص الحق، ولا انحياز فيه إلا للحق، ولا مجال فيه إلا للحقائق المطلقة.

وجاء التعبير في الآية عن الأنباء لا الأخبار..

فما الفرق؟!



«الفرق بين النبأ والخبر أن النبأ لَا يكون إِلَّا للإخبار بما لا يعلمه الُمخْبَر، ويجوز أن يكون الخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه، وفي القرآن:

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

وإنما استهزءوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته، ولو علموا ذلك لتوقوه يعني العذاب، وقال **علي بن عيسى** رحمه الله عن النبأ: معنى عظيم الشَّأن»[1].

ولأن النبأ خبرٌ لم تكن تعلمه قبل إخبار الله به، ولأنه -كما في معناه اللغوي- عظيم الشأن ذو أهمية، فلابد أن يختلف حال المرء بعد العلم به، فحالك بعد سماع هذا القصص غير حالِك قبله، ولابد لأن يكون لما سمعت أثرٌ على قلبك وحركتك في المستقبل.

ثم أورد سبحانه الحكمة من القصص القرآني فقال:

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾

أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى، فتزداد به تثبيتا ويقينا، وإذا كان قلب خير المرسلين في حاجة إلى التثبيت من الله، فكيف بقلبك أيها المسكين؟

وقد قالها ربنا مخاطبا نبيه:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾

وهذا ما يُلقي في روعك أنه لولا الله ما ثبت أحد على الإسلام، ولا صبَر بشرٌ على

(١) الفروق اللغوية ١/ ٤١ - أبو هلال العسكري - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر



مقتضيات الحق والرسالة مهما كان قدره وقوته، وهو ما يستلزم المداومة على ما كان يدعو به النبي ﷺ: **اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك.**



سَلِ الله الثبات!

إنها زاوية جديدة وعلامة فارقة جديرة بأن يقسِّم الله خلقه فريقين بناء عليها كما قال ذلك **ابن القيم** رحمه الله أثناء تعليقه على هذه الآية:

«والخلق كلهم قسمان: مُوَفَّق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت»[١].

هل عرفت اليوم لماذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ:

اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك؟!

إن هذه الرسالة الربانية والسُّنة الإلهية ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ موجَّهة بالأساس إلى القلوب لا الآذان، فهي التي تستقبل كلمة الحق؛ وتقبل الذكرى، وتخشع لجلال الموعظة، ولذا أجبني صادقا:

كم مرة دعوت بهذا الدعاء اليوم؟!

وافضح سلوكك وأظهِر خبيئة قلبك في ضوء إجابتك:

هل ما أنت عليه:

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٣٦- ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت



اقتداء أم ادعاء؟!

بكاء أم تباكي؟!

نائحة ثكلى أم مستأجرة؟!

من أنت؟!



من جند الله

قال **ابن رجب** رحمه الله في فوائد القصص ويا حبذا القرآني:

«إن في سماع أخبارِ الأخيارِ مقويًّا للعزائم ومُعينًا على اتِّباع تلك الآثارِ، وقال بعض العارفينَ: الحكايات جندٌ من جنودِ اللهَّ، تقوى بها قلوب المريد، ثم تلا قول الله عزَّ وجل لرسوله ﷺ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾»[1].

ومن بديع ترتيب سور القرآن أن الله أتبع سورة هود التي جاءت فيها هذه الآية بقصة **يوسف** عليه السلام، وذلك في سورة كاملة جاء فيها تفاصيل القصة ودقائق أحداثها، وما لاقاه من إخوته، ومرارة الخدمة في بيت **العزيز**، وضراوة كيد المرأة، وطول ليل الأسر، ثم ما آلَتْ إليه حاله من حُسْنِ العاقبة وجميل الخاتمة، ليحصل للرَّسُول ﷺ وورثته من بعده التَّسلية الجامعة حين يُلاقون الأذى من البعيد والقريب، وجاءت

(١) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) ١/ ٥٧٢ - ابن رجب الحنبلي- دار العاصمة



قصَّة **يوسف** عليه السلام وكأنها تفصيل وشرح مطوَّل لموجز: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وذلك زيادةً في بثِّ الطمأنينة والثقة والتثبيت في قلب النبي ﷺ، وهو يقرأ القصة كاملة من بدايتها المؤلمة وصولا إلى خاتمتها المبهجة.

وقد نزل القرآن مُنجَّما لتنزل قصص التثبيت بحسب الموقف والحال، فكانت كلما ضاقت الأرض بنبينا اتسعت له السماء، ونزل عليه الوحي بالسكينة والتثبيت في ثنايا قصة رسولٍ مضى قبله لاقى مثل ما لاقى نبينا، وعانى كما عانى، وانتصر كما سينتصر! ولذا كان تكرار القصص في القرآن لتكرار التثبيت بحسب الحاجة.

يا **محمد**!

لستَ بدعًا من الرسل؛ فكلّ رسولٍ بُعِث إلى قومه قوبل بالاضطهاد والتكذيب، واستُقبِل من قومه بالإيذاء.

يا **محمد**..

ستتعرض لما تشيب لهَوْله الرءوس، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبلك: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة٢١٤].

وصدق الله في ما وعد!

- ألم يُضطهد رسول الله ﷺ وأصحابه ويُعذَّبوا ويُحاصروا في شِعْب **أبي طالب** بلا مأوى أو طعام، حتى أكل وأصحابه جلود الحيوانات وأوراق الشجر؟!



♦ ألم يتعرَّض لكل ألوان الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء والبهتان حتى نال الأمر أحب الخلق إليه **عائشة** رضي الله عنها فرُميت بالفاحشة؟!

♦ ألم تُكسَر رباعيته؟ وتُشَجّ رأسه الشريف، وتسعى شياطين الإنس والجن في الفتك به واغتياله؟!

♦ ألم يُقتل أحب أحبابه وأقرب أوليائه بين يديه وأمام عينيه؟!

♦ ألم تتلون عليه الأحوال من أمن وخوف، وسلم وحرب، وغنى وفقر، وإقامة في وطن وغُربة؟!

وصبَر النبي ﷺ على ذلك كله، واحتمل ما لم يحتمله نبيٌّ قبله، فقابل الله ذلك منه بأعظم المنح والعطايا، فلم يُعْط نَبِي ما أُعطِيه، فرفع الله ذِكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس، وأقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأسمعهم شفاعة، وهو تكريمٌ رباني ينتظر الورثة إن سلكوا نفس الطريق.



ما أشبه اليوم بالبارحة!

وتتجلى روعة قصص القرآن في أنها تنقل لنا أحداثًا تتكرَّر بحذافيرها على مدار التاريخ وعلى مرِّ العصور، فمثلا:

* قصة **فرعون** هي قصة ظالم وطاغية من البداية إلى النهاية.

* وقصة أهل الكهف هي قصة كل طائفة مؤمنة فرَّت بدينها من بطش عدوها



واستمسكت بالحق حين تخلى عنه الناس.

* وقصة **يوسف** عليه السلام هي قصة الصراع بين العفاف والرذيلة، والقوة والصمود أمام سلطان الشهوة، والصبر على مرارة البلاء حتى مطلع شمس التمكين.

* وقصة **ذي القرنين** هي قصة كل إمام عادل منحه الله الأسباب، ومكَّن له بها في الأرض.

وقصة **شعيب** عليه السلام هي قصة السارق في الكيل، ومن طفَّف في الميزان.

وكان لكل قصة قرآنية أعظم الأثـر في تثبيت فؤاد النبي ﷺ وأصحابه في ما يزلزلهم من الحوادث والأهوال، فهي في حقنا ليست لقتل الأوقات وتسلية العباد، ولكنَّ هدفها الأسمى هو تثبيت الحكمة في قلوب المؤمنين، والبناء على تجارب السابقين.



نصيب الورثة!

إنها رسالة الدعوة واحدة من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والمحظوظ من سلك نفس الطريق، فانشغل بدلالة عباد الله على الله، ولذا قال ربنا مشيرا إلى وحدة الرسالة: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] مع أن رسولهم واحدٌ، وهو **صالح** عليه السلام، وذلك إشارةً إلى أن رسالة الرُّسُل واحدة، وأنهم صدروا عن مصدر واحد وهو الحق تبارك وتعالى، فلا تختلف الرسالات إلا في الشعائر لا في المقاصد والعقائد.



وفي ضوء هذا.. هل ابتلاء نبينا ثم تكريمه أمرٌ خاص به ﷺ وحده؟!

كلا والله.. فالله أكرم من هذا وأجلّ!

قال **ابن القيم** رحمه الله وهو يفتح لنا الأنوار بمفتاح دار السعادة:

«وهذا حال ورثته من بعده، الأمثل فالأمثل، كلٌّ له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بِحَسب مُتابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك، فحظه من الدُّنيا حظّ من خُلِق لها وخُلِقت له، وجُعِل خَلاقَه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغدا، ويتمتع فيها حتَّى يناله نصيبه من الكتاب.

يُمْتَحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش.

ويخافون وهو آمن.

ويحزنون وهو في أهله مسرور.

له شأن ولهم شأْن، وهو في واد وهم في واد.

همُّه ما يُقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتُسمَع به كلمته، وهمُّهم إقامة دين الله، وإعلاء كَلمته، وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله سبحانه من الحِكَم في ابتلائه أنبياءه ورُسُله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة



إلَّا على جسر المحنة والابتلاء؟!»[1].



الظالم لا يقرأ!

لكن لماذا لا يقرأ الظالمون هذا القَصَصَ؟ وإن كانوا يقرأون فلم لا يأخذون العبرة والعظات منه؟!

إنهم لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون..

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

(فشبَّه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرِّقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تُفرِّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرُّشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه)[2].

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠١
(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠١



ولتستبين سبيل المجرمين



قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وهذه الآية تُقرأ بثلاثة أوجه:

♥ **الوجه الأول**: ولتستبين -بالتَّاء، وسبيلَ: بنصب اللَّام، ومعناه: ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين؛ فإن قيل: ألم يكن هذا السبيل مستبينا للنبي ﷺ؟ قيل: معناه لتزداد بيانًا.

♥ **والوجه الثاني والثالث**: وليستبين: بالياء والتَّاء، وسبيل: بِرَفْع اللَّام، وقالوا: لأن السَّبيل يذكر ويُؤَنَّث؛ وأهل نَجْدٍ يذكِّرون السَّبيل، وأهل الحجاز يؤنِّثونها، فإن قيل: لم خصَّ سبيل المجرمين؟! قيل: تقديره ولتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنِين؛ فحذف أَحدهما اختصارا، أو تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين عن سبيل المؤمنين.

والتَّفصيل هو التبيين بين المعاني الملتبسة، والإشارة بِقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ﴾ إلى ما تقَدَّم من النَّهي عن طرد المؤمنين وبيان ظلم من يفعل ذلك.

وبان الشيء واستبان بمعنى: وضح وظهر، ويُقال: استبنت الشيء بمعنى استوضحته وتبينته.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أي ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين، فيمتاز بها عن طريق المؤمنين، ومثل هذا التفصيل البيِّن لأحوال المجرمين تمتلئ به آيات القرآن ليكون المؤمنون منها على حذر



وحيطـة، فلا يقعون فيها من حيث لا يشعرون، ولا يلتبـس عليهم الحق بالباطل.

قال ابن القيم رحمه الله:

«اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما»[1]، وليستوضحوا كذلك سبيل تعاملهم مع المخالفين لهم بما يجب أن يُعاملوا به.



وحكمة ثانية

أن الأشياء تُعرَف بأضدادها كما قيل: (وبِضِدِّها تتميز الأشياء)، فمقابل سبيل المجرمين سبيل المؤمنين، فإذا استبان لنا سبيل المجرمين فقد عرفنا بالمقابل السبيل القويم والسكة الصحيحة، ولا ثالث لهما، وهكذا يترك الله لفطنة السامع أن تأتي بالمقابل وتتعرف عليه.

إن معرفة الشر أساس مواجهته؛ لأن الذي يعرف الشر وعواقبه يكون بغضه للشر أعظم ممن لا يعرف إلا الخير، وأصل الدين التوقي من الشر[2]، كما قال أبو حامد الغزالي رحمه الله، وهذا معنى قولهم: من بُلي بالآفات؛ صار أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدَّها، وهو قول أبي فراس الحمداني:

عرفت الشـر لا للشـر لكن لتوقيـه ... ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر أفضل من الذين وُلِدوا في الإسلام؛ لكمال علمهم بضده، فازدادوا للحق معرفة وحبًا، وفيه جهادًا وبذلا،

(١) الفوائد ١/ ١٠٩
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٧٧



وذلك حين عرفوا ما نجّاهم الله منه، وقد قيل **لعمر بن الخطاب** رضي الله عنه: إن فلانا لا يعرف الشرَّ، فقال: ذلك أحْرى أن يقع فيه، وقال: إنما تنقضّ عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وتفسير قول **عمر** رضي الله عنه أن من لم يعرف الجاهلية وما عابه القرآن وذمَّه؛ وقع ولابد فيه، وربما أقرَّه ودعا إليه واستحسنه؛ فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف لديه منكراً، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، وبهذا تدرك سر قول الله تعالى في سياق امتنانه ببعثة نبيه:

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.



حكمة ثالثة

إن ما يقابل الأمة اليوم من حوادث جسام ومحن شداد هو بمثابة الكواشف لما في الصدور، وهي الفاضحة لكل من اختبأ وراء طلاقة لسانه مع أنه من المجرمين، ولما لم يعُد هناك وحيٌ يتنزل يفضح المنافقين ويشير إليهم بإصبع المواجهة والاتهام، ولا عاد **حذيفة** يحمل في صدره أسماء المنافقين كاتمًا سر رسول الله ﷺ، ولذا كان لابد أن يتصدى لهذا الدور أحداث عظيمة ووقائع جليلة بعد انقطاع الوحي، ولذا حذَّر النبي ﷺ أمته وخاف عليها مما تلقاه بعد رحيله فقال:

«إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كلَّ منافقٍ عليمِ اللسان»(١).

(١) صحيح: رواه رواه الطبراني في الكبير والبزار كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٣٢



فالتحذير النبوي واضح من عالمٍ طلق اللسان، لكنه جاهل القلب فاسد الباطن، يخالف فعله قوله، فيغُرّ الناس بفصاحته، ويُضِلُّهم بآرائه، فيزلّ بسببه خلق كثير.

وسبب تحديث **عمر** رضي الله عنه بهذا الحديث أن **الأحنف بن قيس** سيد أهل البصرة كان فصيحًا مفوهًا، فقدِم على **الفاروق** فحبسه عنده سنة يأتيه كل يوم وليلة، فلا يأتيه عنه إلا ما يحب، ثم دعاه فقال: تدري لم حبستك عندي؟! قال: لا، فروى له الحديث، ثم قال: خشيت أن تكون منافقًا عليم اللسان، وإن رسول الله ﷺ حذَّرنا منه، وأرجو أن تكون مؤمنًا، ثم صرفه إلى بلده، فماذا لو كان **الفاروق** بيننا اليوم؟! كم كان عدد من يكشفهم فينا من المُدَّعين؟!

ولذا كان **عمر** رضي الله عنه يكرِّر التحذير في خطبه ويقول: إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم، فقالوا: وكيف يكون المنافق عليمًا؟! قال:

«يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور أو قال المنكر»[١].

ولكي لا يتعجَّب أحدٌ كيف يغزو النفاق قلوب العلماء، فقد أخبرنا النبي ﷺ أن داء النفاق لا يستثني أحدًا، غير أنه غير مرئي بل خفي، وأن أقرب من يصابون به هم أصحاب التدين الظاهر والعلم الغزير، فقال ﷺ:

«أكثر منافقي أمتي قراؤها»[٢].

ولعل هذا من علامات تغير الزمان، فقد قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه لإنسان:

---

(١) تعظيم قدر الصلاة ٢/ ٦٣٣- محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي- ط مكتبة الدار - المدينة المنورة

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٠٣



«إنك في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ قراؤه، تُحفظ فيه حدود القرآن، وتُضيَّع حروفه، قليلٌ من يسأل، كثيرٌ من يُعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قراؤه، يُحفَظ فيه حروف القرآن، وتُضيَّع حدوده، كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يُعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم»(١).

وفتنة الأئمة المضلين تنبأ بها النبي ﷺ، وعدَّها -لقسوتها وصعوبتها- أشدَّ علينا من فتنة الدجال! فقال في الحديث:

«غيرَ الدجال أخْوَف على أمتي من الدجال: الأئمة المضلون»(٢).

وقد جاء الحديث بروايتين؛ بالرفع والنصب، فأما بالرفع **«الأئمة المضلون»** فتقديره: الأئمة المضلون أخْوَف عليكم من الدجال، وأما بالنصب **«الأئمةَ المضلين»** فتقديره وكأنه سئل: من تعني بغير الدجال؟ فردَّ بقوله أعني الأئمةَ المضلين.

والأئمة هم من يُقتدى بهم من العلماء والأمراء والوجهاء ورموز المجتمع وقادته الذين تتعلق بهم أفئدة الجماهير، تنتظر منهم التوجيه، وتلتمس منهم الأسوة والاقتداء.



حكمة رابعة

وينتج عن هذه الرؤية والاستبانة همَّة لا تفتر، وعزم لا يلين في معرفة الشر وأهله،

(١) الاستذكار ٢/ ٣٦٣
(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي ذر كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٦٥.



وثباتًا في مواجهة ضلال العصر وشروره، وعدم اغترار بعلو الباطل وانتفاشه لأن الله قال:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]

وأما من لم يعرف الباطل جيدا، فهذا يُعجب به، وينبهر بانتفاشته الزائفه وعلوه المؤقت، وتنهزم روحه فيسير في ركابه صاغرًا، بل قد يصبح من جنده مستسلما!



حكمة خامسة

حين يعرف الإنسان أعداءه، ويتعرف على سعيهم الدءوب ووصلهم الليل بالنهار في سبيل باطلهم تدب في قلبه الغيرة لنصرة الحق، ويسعى مثل ما سعوا، ويخطِّط لغايته مثل ما خططوا.

ولمعرفــة الصحابة بأهميــة معرفة الشر رأينــا بعضهم يتكفل عن الباقين بسؤال النبي ﷺ عنه لأنه كان يخاف أَنْ يُدْرِكَه، فعن **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكُنْت أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يُدْرِكَني، ولهذا اختص **حذيفة** بمعرفة الفتن، وقد وصف له النبي ﷺ دعاة الفتنة بأنهم دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها، فسأله **حذيفة**: يا رسول الله! صِفْهم لنا، أي: لنتقي خطرهم، ونكشف خبثهم، ونعرف صفتهم؛ فقد يزينون لنا الكلام؛ ويتخفون تحت رداء حسن البيان وفصاحة الكلام وكثرة الجاه والجمال، وقد كان!





حكمة سادسة

ومن واجب الخطباء والأئمة والدعاة اليوم أن يعروا الباطل وينزعوا القناع عن سبيل أهل الفجور دون تورية، وأن يمرِّغوه في التراب، وهو أحسن ما تقوم به الدعوة، فإظهار عوار المبطلين وجهل الجاهلين وألاعيب المنافقين هو خير ما يخدم به أحدٌ دين الله تعالى؛ لأنها تمنع هدم ما بناه المصلحون وشاده حملة الوحي، ومن أهم مهام الدعاة على مدى الزمان أن يزيلوا أي التباس أو غموض يصيب الناس؛ حين يلبس المنافق ثوب المؤمن الصادق، والضالَّ ثوب المهتدي، وخاصة في هذه الفترة من عمر الأمة التي تسبق ظهور الدجال، وقد تحققت فيها نبوءة رسول الله ﷺ:

«سيأتي على الناس سنوات خدّاعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[١].

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٥٠



والله غالب على أمره ولكن
أكثر الناس لا يعلمون



يقول الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

اشتملت هذه الآيــة على عدة صفات لله عز وجل: كصفة العلم وصفة القدرة، فلا يكون غالبًا على أمره إلا إذا كان عالـمـًا بمـا يصيـر إليه الحال، ولا يكون غالبا على أمره إلا إذا كان قادرًا على إمضاء ما أراد، ومفتاحا القضاء والقدر هما العلم والقدرة.

وفي نفس الوقت من سماتك أيها الإنسان: الجهل والعجز، فمن الجهل الجهل بالمستقبل، والجهل بما ينفعك وما يضُرُّك، والجهل بأفضل ما يؤدي بك إلى بلوغ مرادك، والعجز كذلك من صفاتك، فقدراتك محدودة، ومهما كنتَ قادرًا، فهناك دومًا من هو أقدر منك وأقوى.

وعدم العلم هنا ليس الجهل، بل هو العلم غير المصحوب باليقين، وهذه هي الحقيقة المُرَّة: أكثر الناس لا يوقنون أن الله غالب، وأنه قادر على كل شيء؛ لأنهم لا يقدُرون الله قدره.

وجاءت الجملة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ بالسياق الأسمي، ولم ترد بالسياق الفعلي، فلم يقل الله: (ويغلب الله)، وذلك لأن هذا الحكم كالقانون الذي لا يتبدل مع **يوسف** عليه السلام أو مع غيره، والجملة الإسمية أكثر دلالة على الثبات من الجملة الفعلية، وابتداء الجملة بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ يشعرك بالهيبة والعظمة إضافة إلى ما في مادة الغلبة من دلالة القوة.



قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«وجملة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ معترضة في آخر الكلام وتذييل، لأن مفهومها عام يشمل غلب الله إخوة **يوسف** عليه السلام بإبطال كيدهم، وضمير أمره عائد لاسم الجلالة، وحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ بعد مادة الغلب ونحوها يدخل على الشيء الذي يُتوقع فيه النزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء، وأمر الله هو ما قدره وأراده، فمن سعى إلى عمل يخالف ما أراده الله فحاله كحال المنازع على أن يحقق الأمر الذي أراده، ويمنع حصول مراد الله تعالى، ولا يكون إلا ما أراده الله تعالى، فشأن الله تعالى كحال الغالب لمنازعه. والمعنى والله متمِّم ما قدَّره»[1].

وعجيب أن يأتي هذا القانون عقب ذكر بيع **يوسف** عليه السلام كعبد يخدم في قصور الملوك، ففي أشد اللحظات قسوة يأتي ذكر أعظم البشارات وأعلاها قدرًا، وكأن الله يختصر القصة المطوَّلة للابتلاء والتمكين في آية واحدة، وهي بمثابة يد حانية تمسح على قلب المؤمن، وتغرس فيه اليقين في موعود الله وسط الأعاصير وأوقات الزلزلة.



الله غالب كلِّ إرادات البشر

الناس لا يرفعون ولا يضعون، ولا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، ولا يقرِّبون ولا يُبعِدون لأن الأمر كله بيد الله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١].

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٧



وهذا التركيب: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ يعني: والله متمّ ما قدَّره، ولا رادَّ لحكمه وتدبيره، وهذا يشير إلى أن إخوة **يوسف** عليه السلام أرادوا شيئا، وأراد له الله خلافه، فكان ما أراد الله سبحانه.

كم أراد الناس حطَّ إنسان فرفعه الله، وكم أرادوا تقليله فكثَّره الله، وكم أرادوا ضرَّه فنفعه الله، أو نفعه فما أتمَّ لهم الله..

هذا هو القول النافذ؛ الله غالبٌ كل مخلوق على أمره: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، والقهر يستلزم الخضوع، والكلّ خاضعٌ لحكم الله جل وعلا، ومستسلمٌ لقضائه طوعًا أو كرهًا: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾!

وقصة **يوسف** من أولها إلى آخرها تجسيد لهذه الآية العظيمة! وكأن آيات السورة بُنِيت آية آية على أساس هذه الحقيقة المطلقة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

- أراد **يعقوب** عليه السلام من ابنه **يوسف** عليه السلام ألا يقص رؤياه على إخوته، فغلب أمر الله حتى قصَّ رؤياه.
- أراد إخوة **يوسف** عليه السلام قتله، فغلب أمر الله فنجا حتى ساد وصار مَلِكاً لمصر.
- أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب يعقوب، وتذكَّر **يوسف** عليه السلام بعد غياب سنين قائلاً: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤].
- أرادوا أن يكونوا من بعده قوما صالحين تائبين، فغلب أمر الله حتى نسوا ذنبهم وأصروا عليه.

♦ أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص، فغلب أمر الله فلم ينخدع بهم وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ [يوسف:١٨].

♦ أرادت امرأة **العزيز** فتنة **يوسف** عليه السلام، فغلب أمر الله وثبَّته حتى قال **العزيز**: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩].

♦ أراد **يوسف** عليه السلام أن يتخلص من السجن عن طريق الساقي بذكرِه عند سيده، فغلب أمر الله، فنسي الساقي، ولبث **يوسف** عليه السلام في السجن بضع سنين.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

آيةٌ عظيمة ينبغي على المؤمن أن يستحضرها في أوقاته كلها، وشؤونه كافة، وخاصة إبان نزول الشدائد العظام، ووقوع المصائب الكبار، فهي آية مفتاحية تفيد أن مرجع الأمور إلى الله تعالى، وأن مقاليد الأمر بيده، وأن سعي المرء غير نافذ إلا بمشيئة الله، وأن الله بيده أن يبدِّل الأحوال وينجّي من الأهوال. كما قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف:٢٠]، امتدت أكفهم بين يديه بالطلب يقولون: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]»[1].

خلاصة الخلاصة:

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(١) صيد الخاطر ١/ ٦٦-٦٧.



فتأمل الحكمة لتنجح في الاختبار!

وهي رسالة خاصة للمصلحين ممن يواجهون العقبات والتضييق عليهم ممن يعاديهم أن استمروا ولا تتوقفوا، فالله غالبٌ، ومن استعان به أعانه، ومن ركن إليه أغاثه، ويا خيبة من يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا؛ متناسين أو ناسين أن الله من ورائهم محيط، ولو انتبه هؤلاء لَعلِمُوا أن الله يُبطل كيدهم وهو غالبهم، فاصدح بصوتك عاليًا مع **سالم بن عمرو**:

إذا أذِن الله في حاجة	**أتاك النجاح على رسله**
وقرَّب ما كان مُستبعدا	**وردَّ الغريب إلى أهله**
فلا تسأل الناس من فضلهم	**ولكن سلِ الله من فضله**

ولما كان هذا القانون الصارم وهو غلبة أمر الله، ووقوع ما قدَّره سبحانه، مما يغفل عنه أكثر الناس، أو يفعلون ضدَّ مقتضاه، فقد جاء الاستدراك الذي يبيِّن حالهم في ختام الآية:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قال **أبو السعود** رحمه الله:

«لا يعلمون أنَّ الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعما منهم أنَّ لهم من الأمر شيئا، وأنَّى لهم ذلك! وإن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا لطفه»[1].

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٣



أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها



ما هو الترف؟

«الترَف: التَّنَعُّم، والتُّرْفة النَّعْمةُ، والتَّتْريف حُسن الغِذاء، وصبيٌّ مُتْرَفٌ إذا كان مُنَعَّم البدن مُدَلَّلًا، والمُتْرَف: الذي قد أبطَرَتْه النعمة وسَعة العيْشِ، وأَتْرَفَتْه النَّعمة أي أطغَتْه»[1].

وقد حذَّر منه النبيّ ﷺ **مُعاذ بن جبلٍ** رضي الله عنه لما بعث به إلى اليمن، فقال له في ما أخرجه **أحمد**:

«إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنَعِّمين»[2].

والإسلام لا يُحرِّم الترف لذاته، بل يُحرِّم التوسُّعَ فيه بما يُخرِج إلى السَّرَفِ والتَّبْذيرِ والشَّرَه..

وفي الصحيحين عن **عائشة** رضي الله عنها:

«كان يُحِبّ الحلواء والعسل»[3].

وفي الحديث:

«إن الله جميل يحب الجمال، ويُحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس»[4].

(١) حسن: رواه أحمد والبيهقي عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٦٨
(٢) حسن: رواه أحمد والبيهقي عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٦٨
(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن عائشة كما في صحيح الجامع: ٤٩١٩
(٤) صحيح: صححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٣٥٩ ح ١٧٤٢، وعزاه للبيهقي في الشعب عن أبي سعيد.



ولذا قال ﷺ لوالد **أبي الأحوص**:

«فإذا آتاك الله مالاً فليرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته»[1].

لكن الغالب أنَّ الترفَ يُلازِمُه إسراف وطغيان وتجاوزٌ للحد وهو الظلمُ،وهو ما يَغْتال الأخلاق، ويُفسِد الفِطرة، ويبعث على الكِبر والغُرور والفُجور، ويُنْسي العبد شكر النعمة، ويجعلُه لا يذكر آخرةً ولا جزاء، بل ينشغل بالكرسيِّ الزائلِ والاستزادة من الثروات حتى يستحِلَّ ما حرَّم الله، ولذا ورد ذكر الترف في القرآن الكريم في ثمانية مواضع كلها في موضع الذم والتحذير منه، وقد عدَّ رسول الله ﷺ المترفين من شرار أمته.. من استسلموا لداعي التكاثر.. تكاثر الأموال واللذائذ على حساب الآخرة، فقال ﷺ:

«شِرار أمتي الذين غُذّوا بالنعيم الذين يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدَّقون في الكلام»[2].

هي صرخة تحذير من غزو الدنيا لقلبك لتطرد منه همَّ الآخرة، والهدف: أن تبقي الدنيا واقفة ذليلة صاغرة على بوابة قلبك لا تتعداه.

قال **أبو حازم سلمة بن دينار** رحمه الله:

«يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة»[3]، فإذا كان هذا حال اليسير من الدنيا فكيف بحال الكثير؟!

(١) صحيح: أبو داود ٤/ ٣٣٣١ ح ٤٠٦٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٨٤ح ١٣٣٣.
(٢) حسن: رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن فاطمة الزهراء كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٠٥
(٣) الزهد لابن أبي الدنيا ١/ ١٤٠ – أبو بكر ابن أبي الدنيا – ط دار ابن كثير، دمشق.





سقوط الدول وانهيار الحضارات!

يحدِّثُنا القرآن العظيم عن الترف كأحد أهمِّ أسبابِ سقوط الأمم وانهيار الحضارات وهدم البنيان، وأول معول في هذا المصير المؤلم حين يتسلَّم المسئوليةَ ثلة من المترَفين الفسقة والأمراء الظَّلَمة، فيمارِسون من مواقعِ السلطةِ في سبيل اكتساب المزيد من أشكال التَّرَفِ والفِسْقِ الذي من شأنِه أن يؤُول إلى إلحاق التفكُّك والدمارِ بهم وبالأمة التي انتصبوا قادةً ورُوّادا لها، فاستسلمتْ لمصيرها التعيس معهم، فيقول تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾.

والأقوال المشهورة في قول ربنا: ﴿أَمَرۡنَا﴾ هنا ثلاثة:

القول الأول:

أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا، وهو قول جمهور المفسرين مثل **ابن عباس وسعيد بن جبير والطبري والرازي والشوكاني والألوسي وأبي السعود** وغيرهم.

قال **الزجاج** رحمه الله:

«ومثله في الكلام: أمرتُك فعصيتني؛ فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر، وكذلك



الفسق مُخالفة أمر الله»[1].

وهو القول الراجح على غيره من الأقوال بناء على قراءة ﴿أَمَرْنَا﴾ بالقصر والتخفيف، وهي قراءة جمهور القراء، وهذا المعنى هو الأقرب لفهم الآية والمراد منها؛ لأن جميع أوامر الله تعالى في القرآن هي أوامر بطاعته وعبادته، ومحالٌ أن يأمر الله عباده بالمعصية أو الفحشاء ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

القول الثاني:

كثَّرنا يقال: أمرت الشيء وآمرته أي: كثَّرته، والمعنى أكثرت عدد المترفين، وهو قول **أبي عبيدة وابن قتيبة** رحمهما الله.

القول الثالث:

معنى أَمرنا: أمّرنا أي سلّطنا مترفيها بالإمارة، ويؤيد هذا القول قراءة «أمَّرنا»، وعلى هذه القراءة جاء تفسير **ابن عباس** حيث قال:

«سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣]»[2].

والأقوال الثلاثة المشهورة في تفسير الآية كلها صحيحة، ويمكن الجمع بينها، فيكون المعنى: إذا أراد الله إهلاك قرية -لسابق علمه أنهم هالكون- كثَّر مترفيها،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٣ - إسحاق الزجاج - ط عالم الكتب - بيروت
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ١٧/ ٤٠٤



وجعلهم أمراء متسلطين، وأمرهم بالطاعة فعصوا حتى تكون المعصية والفسوق غالبين؛ فإذا تحققت هذه الأمور مجتمعة حقَّ عليها القول، فدمَّرها الله تدميرًا.

لكن لماذا خصَّ المترفين دون غيرهم بالفسق؟!

قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله مجيبًا:

«وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس؛ لأن عصيانهم الأمرَ الموجه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم؛ إذ هم قادة العامة، وزعماء الكفر؛ فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتبعهم الدهماء، فعمَّ الفسق أو غلب على القرية، فاستحقت الهلاك»[١].

ولأنَّ الترفَ مُلازِم للطغيان، فقد اشتكى نبيّ الله **موسى** عليه السلام إلى ربِّه من الغِنَى والتَّرفِ اللذيْن آتاهما الله **فرعونَ** وملأَه فرصدُوهما لمحاربةِ الحق.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهي قصةٌ مُعادةٌ، وموقفٌ مكرورٌ على مدار الدهور، وهو الترف الذي يُغَلِّظ القلوبَ، ويُفْقِدُها حساسيتها؛ ويُفْسِد الفطرةَ ويُغَشِّيها فلا ترى دلائلَ الهداية؛ فتستكبر على الهدى، وتُصِرّ على الباطل.

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٥٥





عاقبة ولاية المترفين!

المُترَف الأول: قارون

وهو النُّموذج الأبرز في التاريخِ لسُوءِ التَّصرُّف في النِّعْمة، ولطغيانِ رجل الأعمال الَّذي دفعه لا إلى إنكارِ نعمةِ اللهِ فحَسْبُ، بل تعمُّد التَّحدِّي وكسْرَ قلوبِ الناس.

قال تعالى:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

والمترف الثاني: المعتمِد بن عبَّاد

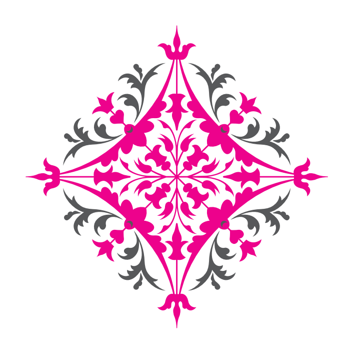
كان المعتمِد بن عبَّادٍ أحد أبرز أُمراء الأندلُس، وأقام بالمُلْك نيِّفًا وعشرين عامًا، وذكر المؤرِّخون أنَّ زوجته اشتهتْ أنْ تمشيَ في الطِّينِ، وتحملَ القِرْبة على رأسِها؟! فأمرَ المعتمِد أنْ يُنْثَرَ المِسْك على الكافورِ والزَّعْفرانِ، ويُعْجَنَ منه طينٌ لتخوضَ فيه



زوجتُه؛ تحقيقًا لشهوتِها!

وجرَت السُّنَّة الإلهيَّة وتهاوَى ملكُه بسببِ لهوه وغفلته، ليُؤْخَذ **المعتمد** أسيرًا إلى (أَغْمات)، ويبقى بنوه وبناتُه يتجرَّعْن كأسَ الفقر بعد الغِنى، والذِّلَّة بعد العزَّة، وكُنَّ بناتُه يغْزِلْنَ للنّاسِ بالأُجرةِ في أغْمات، وذكروا أن بنيه وبناته دخلوا عليه في السجن يُهنُّونه يوم عيدٍ، وعلى بناته أطْمارٌ (أي ثيابٌ باليةٌ)، وأقدامُهنَّ حافيةٌ، وآثار نِعْمتِهنَّ عَافِيَةٌ (أي ذاهبة)، فانصدع قلبه، وقال:

فيما مضَى كُنْتَ بالأَعْيادِ مَسْرورًا	**فساءَكَ العيد في أَغْمات مأْسُورا**
تَرَى بناتِك في الأَطْمَارِ جائِعَةً	**يَغْزِلْنَ للنَّاسِ لا يَمْلِكْنَ قِطْميرا**
بَرَزْنَ نحوكَ للتّسليم خاشعَةً	**أبْصارُهُنَّ حَسيرات مَكاسيرا**
يَطأْنَ في الطِّينِ والأَقْدَام حافِيَةٌ	**كأنّها لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وكافُورا**
قد كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأمُرْه مُمْتَثِلًا	**فَرَدَّكَ الدَّهْر مَنْهِيًّا ومأْمُورا**
لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهره	**وليس إلا مع الأنفاس ممطورا**
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا	**فردَّك الدهر منهيا ومأمورا**
مَنْ باتَ بعدَكَ في مُلْكٍ يُسَرّ به	**فَإنّما باتَ بالأَحْلامِ مَسْرُورا**





وربك يخلق ما يشاء ويختار



قال ﷻ:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص٦٨]

فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار من بين خلقه، وإنما المراد بالاختيار ها هنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق.

واذكر أخي أن كل ما ارتبط بإرادته تعالى، فهو جارٍ وفق حكمة بالغة تابعة لكمال علمه عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام ٨٣].

فهو -سبحانه- أعلم بمواقع اختياره، ومحالِّ رضاه، ومن يصلح للاختيار ممن لا يصلح، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه من الوجوه.



هل اختارك الله؟!

إن اصطفاء أهل الإيمان سنة ربانية بين الناس، وضدها كذلك من طرد أهل الفجور ونبذهم، ويشهد لهذا حديث **حذيفة** رضي الله عنه الشهير:

«حدَّثنا رسول الله حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: حدَّثنا أن الأمانة نزلت في جِذر (أي: أصل) قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلِموا من القرآن، وعلموا من السنة.



ثم حدَّثنا عن رفع الأمانة، فقال: ينام الرجل النومة، فتُقبَض الأمانة من قلبه...».

هذه شهادة من **حذيفة** رضي الله عنه الذي تُوُفِّي سنة ست وثلاثين من الهجرة، لكن الشيء الخطير في هذا الحديث، هو أن الله تعالى يغرس الإيمان في أصل قلوب الرجال، ثم هو عز وجل من ينزعه من قلوبهم وهم نيام، فلماذا، وعلى أي أساس؟!

إن هذا الإيمان أعظم كنز يمكن أن يحظى به أحد، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى لا يضعه إلا في القلوب التي تستحقه، وأول وأفضل من غرس الله عز وجل الإيمان في أصل قلوبهم هم رسله عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج ٧٥].

فالرسل من الملائكة هم صفوة الملائكة، والرسل من الناس هم صفوة الناس، والله هو الذي اختارهم واصطفاهم دون غيرهم من باقي خلقه.



اعتراض أهل الإعراض!

قد اعترض أناس من قبل على ميزان الله في اختيار نبيه ﷺ:

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف٣١]..

يعنون أحدا أشرف من **محمد** ﷺ وهما **الوليد بن المغيرة** من أهل مكة، **وعروة بن**



مسعود الثقفي من أهل الطائف، وذلك أنهم ظنوا أن أساس الاصطفاء الجاه والمظهر، وليس القلب والجوهر.

وبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، فهذا الميزان الرباني، وذلك الصفاء والإخلاص القلبي قد لا يروعك بهاؤه إلا حين تقارنه بضده، وكم لذلك الضد من نظير ومثيل..

إنه **أبو عامر عبد عمرو بن صيفي** سيد الأوس قبل الإسلام، والذي كان قد تعلم وقرأ الكتب السابقة فعرف أن نبيًا قد أطل زمانه، وطمعت نفسه أن يكون صاحب هذا المقام الرفيع، ليس إخلاصًا بل لحظ نفسه، فجدَّ لذلك واجتهد، وتزهد وتعبَّد،ولبس المسوح، حتى لقب **بأبي عامر الراهب** لكثرة عباداته..

كل هذا **ومحمد** ﷺ أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن له طمع ولا تطلع لمنزلة خاصة ينال بها الرئاسة على الخلق، فلم ينتظر رسالة ولا كتابًا حتى قال تعالى فيه:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

ولما افترق الطريقان: طريق الله، وطريق الهوى؛ اختار **أبو عامر** طريق نفسه، ورضي بالخروج عن طريق ربه، فاستحق أن ينال لقب: **أبو عامر الفاسق** بدلاً من الراهب، بل بلغ من تلاعب الشيطان به أن انحاز إلى كفار قريش وخرج معهم لقتال النبي ﷺ والصحابة في أحُد، وكان هو الذي حفر الحُفرة التي وقع رسول الله ﷺ فيها.





اصطفاء الصحابة

لكن هذا الاصطفاء أخي ليس مختصًا بالأنبياء والمرسلين فحسب، بل هو سارٍ على المؤمنين والصالحين بدرجات متفاوتة بحسب قلوبهم، فأكمل القلوب بعد قلوب الأنبياء قلوب أصحاب رسول الله ﷺ، إذ الصحبة شرفٌ عظيم سبقوا به من جاء بعدهم «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم».

وكما اعترض الجاهلون على اختيار الأنبياء، اعترضوا كذلك على اختيار أتباعهم من المؤمنين، فقصَّ الله علينا في قصة نوح عليه السلام ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فلأي شيء تُختار للرسالة؟! ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فهم أقل الناس فينا قدرا وأحقرهم شانا ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي أن هؤلاء قد غرَّتهم دعوتك فتسرعوا إلى متابعتك، وذلك لنقص عقولهم ولو أعادوا النظر والتأمل لعلموا أنك لا تستحق المتابعة، فلأي شيء يُختارون ليكونوا أوائل المؤمنين؟!



ثم اصطفاء المؤمنين..

ثم الاصطفاء من بين جموع الخلق للجنة، فقد جاء في الحديث:

«إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء



في النار ولا أبالي»[1].

ثم الاصطفاء الثاني للمؤمنين للطاعة، وهي شرف عظيم يمنحه الله لمن يستحق، وهاك الأمثلة:

القيام اصطفاء، فإذا اختارك الله ليلة للقيام بين يديه، وسؤاله مما لديه، فاعلم أنك من المصطفين الأخيار! فقيام الليل لا يستحقه إلا من أسلف في نهاره حسنة ظاهرة أو سريرة طيِّبة. قال **أبو سليمان الداراني** رحمه الله:

«من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره»[2].

والذكر اصطفاء لأنه في حقيقته مجالسةٌ للرب جل في علاه **(أنا جليس من ذكرني)**. قال **شُعيب بن حرب**: دخلت على **مالك بن مِغْوَل** وهو في داره بالكوفة جالسٌ وحده فقلتُ: أما تستوحِش في هذه الدَّار؟ فقال:

«ما كُنْت أظُنّ أحدًا يسْتوحِش مع الله عزَّ وجل»[3].

والقلوب بهذا على قسمين: مقرَّب ومطرود كما قال بعضهم:

«إن هذه القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشِّ»[4].

فهل يختارك الله للقرب منه أم يحكم عليك -جزاء فعلك- بالطرد؟!

---

(١) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عبد الرحمن بن قتادة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٥٨.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٨٤
(٣) العزلة للخطابي ١/ ١٦
(٤) الداء والدواء ١/ ١١٨



هل يحبك الله أم يكرهك؟!

كيف تعرف؟! اسمع الحقيقة التي قرَّرها **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

«وإن الله يُؤْتي المال من يُحِبّ ومن لا يحب، ولا يُؤْتي الإيمان إلَّا من أحب، فإذا أحب الله عبدا أعطاه الإيمان»(١).

وأتبِعها بتأكيد **عبيد بن عمير**:

«إن الله عز وجل يُعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب»(٢).



سرّ الاصطفاء بين يديك!

وأخيراً ذكر الله حكمته في الاصطفاء قائلاً:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام٥٣].

بلى إن الله أعلم بالشاكرين، وهم الذين تمتلئ قلوبهم إخلاصا وإيمانا يدفعهم لشكر أعظم نعم الله عليهم، وهي نعمة الإيمان، والشكر مفتاح المزيد، والمزيد هنا هو الاصطفاء لأشرف المقامات.

(١) الترغيب والترهيب للمنذري رقم ٢٤١٣
(٢) الزهد لأحمد ١/٣١٦



إن فاتتك أخي منزلة من منازل الدين، وموطن قُربٍ من رب العالمين، وحالٌ سامية من أحوال المؤمنين، وإن رأيته أعطى غيرك ومنعك، وفتح الباب لهم وأغلقه دونك، وأردت أن تعرف السبب، فاقرأ ذلك الميزان الرباني الصادق الذي يصطفي الله به الأصفياء والأولياء ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام٥٣]، ثم اجتهد بعد أخي أن تلحق بالركب، وتدخل في الزمرة، وراقب قلبك وعملك، فهما محل نظر الرب سبحانه، وليكن همك:

هل يرى منك ما يحبه فيصطفيك؟! أم ما يكره فيُبعِدك ويُقصيك؟!

إن ما ذكِر في الحديث الثاني «**حدِّثنا عن رفع الأمانة**» يدل على أن الإيمان ليس حقًا مكتسبًا لا يزول، ولا ملكا ثابتا لا يتحول عن صاحبه، وإنما هو عطاءٌ من رب العالمين لمن يصطفيه من عباده؛ يُزاد بالشكر، ويُزال بالكفران، فاحذر التحول والزلل، فوالله ما رفع الله إيمانًا من قلب إلا لتقصيره في الشكر كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال٥٣]، فكم من إيمان سَلَبَهُ العصيان، وكم من ذنبٍ تسبَّب في الحرمان، (ومتى رأيت تكديرًا في حال، فاذكر نعمة ما شُكِرَت، أو زلة قد فُعِلت، واحذر من نِفار النعم، ومفاجأة النقم، ولا تغترَّ بسعة بساط الحلم؛ فربما عجل انقباضه، وكان **أبو علي الروذباري** رحمه الله يقول: من الاغترار أن تسيء، فيحسن إليك، فتترك التوبة توهمًا أنك تسامح في الهفوات)[1].

(١) صيد الخاطر ١/ ٣٢



رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرًا للمجرمين



وهي وعدٌ من **موسى** عليه السلام لربه إني لن أعيـن ظالـمًا على فُجورِه، وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وإعانته، حيث لفرعون كالولد مع والده حتى كان يُسمى ابن فرعون! وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، وهو الإسرائيلي الذي استصرخه على القبطي مما أدى به إلى قتل من لم يحل له قتله، وهو الأرجح.

و﴿بِمَآ﴾ استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِكَ عليَّ اعصمنِي، فلا أكون معينًا لأحد على إجرامه.

ويرى كثيرٌ من المفسرين أن النعمة التي أشار إليها **موسى**، والتي ترتب عليها هذا العهد الذي قطعه على نفسه هو قبول ربه لتوبته ومغفرة ذنبه، لكن رأى **الطاهر بن عاشور** رحمه الله وغيره أن هذا بعيد، وذلك لأن **موسى** لم يكن قد أوحى إليه بعد، فمن أين يعلم أن الله قد غفر له؟

والأَوْلى أن يُقال إن النعمة التي أشار إليها **موسى** عليه السلام هي ما وجده في نفسه من القوة الجسدية حتى استطاع بها أن يقتل رجلاً بوكزةٍ بيده، فهذه نعمة القوة الخارقة التي أنعم الله بها عليه، وينبغي لكي يحافظ على النعمة أن يؤدي شكرها، وشكرها أن لا يستخدمها إلا في الخير، وألا يساند بها مجرما: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، فمن إشراقات هذه الآية أن من تمام شكر أي نعمة ربانية أن نحمي أنفسنا من تسخيرها في خدمة الباطل والوقوف في صفوف المجرمين.

ومن تمام نعمة الله على **موسى**: ما أوتيه من الحكمة حتى ميَّز حقائق الأشياء، ولم يبق لحظ النفس تأثير على شعوره. فأصبح يبصِر الأشياء بعين البصيرة ومنظار الآخرة، فنسب الفضل في كل أمره إلى ربه، واعترف بأن ما لديه من العلم والحكمة



والقوة إنما هو من الله سبحانه، ثم قرَّر بعد ذلك أنه لن يكون متعاونا مع المجرمين ولا المفسدين.

ولكنك عندما تتأمل في صف بعض من غمرتهم نعم الله وتتابعت عليهم المواهب الدنيوية إذا بك تراه نصيرا للفسدة، ويدا للظلمة، فيكون ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

إن الانحياز لصف المصلحين ومعسكر الحق هو النصف الثاني المفهوم ضمنا من هذه الآية؛ لأن موسى عليه السلام إن لم يكن ظهيرا للمجرمين فلابد أن يكون ظهيرا للمؤمنين.

وعالمنا الإسلامي اليوم يمرّ بأزمة التباعد والمفاصلة بين معسكري الإصلاح والمصلحين ومعسكر الإجرام والمفسدين، وذلك عبر مواجهة شرسة على جميع الجبهات السياسية والثقافية والإعلامية والمهنية، وإن على الناس -إن أرادوا النجاة- أن يقتدوا بنبي الله موسى عليه السلام، فيراجعوا مسيرتهم ويتأكدوا أنهم على الطريق الصحيح، وعلى خطى المصلحين لا المفسدين، وأن ولاءهم للأبرار لا الفجار.



أعاهد الله..

أن..

* مكانتي وشهرتي وجاهي لن أستعين بهم على تأييد باطل أو الركون إلى ظالم،



وكيف وأنا أقرأ هذه الآية:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾

* علمي ومالي الذي رزقنيه ربي لن أسخِّره في الدعاية لمعتدٍ أو الإنفاق على طاغية.

وذلك لأن في أذني صدى هذا الحديث لا يفارقني:

«لتؤدُنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة؛ حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها»[١].

لقد أقسم النبي ﷺ -ولا حاجة به إلى القسم- أن الحقوق ستؤدى إلى أهلها يوم القيامة، ولن يضيع لأحد حقٌ، وحقك إن لم تستوفه في الدنيا استوفيته ولابد في الآخرة، فالقصاص قادم لا محالة، وعلى جميع الأصعدة، ولو كانت البهائم، ومع أن البهائم لا تكليف عليها غير أنه يُقتصّ من الشاة القرناء من الشاة الجلحاء (التي لا قرن لها)، لأن القرناء إذا ناطحت التي ليس لها قرون آذتها أكثر، فإذا كان يوم القيامة قضى اللّه بين الشاتين قصاص مقابلة لا قصاص تكليف إمعانا في العدل وانتزاع الحقوق.

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٠٦٢



هذا وهي بهائم لا تعقل ولا تكليف عليها، فكيف بظلم الإنسان لأخيه الإنسان!!

فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها: كوني ترابًا، فتكون ترابًا، وحين يرى أهل القيـــامة هذا المشهد يتمنى الكافر لو كان مكانها فيقول: يا ليتني كنت ترابًا.

ويتمنى القوي الباطش ظلمًا لو كان ضعيفًا لأن قوته جرَّته إلى العذاب.

ويرجو من منَّ الله عليه بفصاحة اللسان والبلاغة، فسخَّر ذلك في إغواء الناس عن الحق والدعاية للطغاة أن لو كان أبكم، لأن لسانه أورده المهالك.

ويودّ من سخَّر سلطانه وجاهه لخدمة غير الحق أن لو كان مغمورا بين الناس لأنهما سبب هلاكه.



فهموها وضيَّعناها!

قال **عطاء** رحمه الله معلِّقًا على الآية السابقة:

«فلا يحل لأحد أن يعين ظالمًا، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئًا من ذلك فقد صار معينًا للظالمين»[١].

ولذا روى **الرصافي**: قلت **لعطاء بن أبي رباح**: صاحب قلم إن هو كتب عاش هو وعياله، وإن ترك افتقر، قال لي: من الرأس؟ قلت: **القسري خالد** (أحد الطغاة)، قال:

(١) القرطبي ١٣/ ٢٦٣



قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾[1].

ولذا لما بعث **عبد الرَّحمن بن مسلم** إلى الإمام **الضَّحَّاك** وقال: اذهب بعطاء أهل بُخارى أعطهم، فلم يزل يستعفيه حتَّى أعفاه، فقال له بعض أصحابه: ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا فقال:

«لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أَمرهم»[2].

وقد جعل العلماء الربانيون هذه الصفة فارقة في تقييم الأشخاص وتقديمهم، فرغم أن الإمام **مالك** أعلم وأفقه من **ابن أبي ذئب**، ولكن الإمام **أحمد** وغيره كانوا يقدِّمون **ابن أبي ذئب** على **مالك** لشجاعته وصدعه بالحق وأمره بالمعروف، فمواقفه مع الخلفاء والأمراء مشهورة، ومنها وقوفه أمام **أبي جعفر المنصور** في مكة، ونصحه أمام حاشيته بالعدل، وقوله له بعد أن استنصحه: وربِّ هذا البنية (أي الكعبة) إنك لجائر[3]!!

ودخل **ابن أبي ذِئْبٍ** على **أبي جعفر المنصور** مرة فلم يخف أن يقول له:

«الظُّلم فاشٍ ببابِك»[4].

وكان الإمام **أحمد** يشبِّهه **بسعيد بن المسيب**، ويقول:

«**ابن أبي ذئب** أَقْوَم بالحق من **مالك** عند السلاطين»[5].

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣١٥
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٤٠٠
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٩/ ٦٠٣
(٤) ابن حجر في تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠٦
(٥) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٨



وقد كان الإمام **أحمد** سبَّاقًا إلى الإنكار على العلماء إذا ظاهروا الظلمة، فقد رُوي أنه أنشأ أبياتا في شأن **علي بن المديني** وأرسلها إليه، وهي:

يا ابن المدينيِّ الَّذي عرضت له	**دُنيا فجـاد بدينـه لِينـالها**
ماذا دعاك إلى انتحال مقـالة	**قد كُنْت تزعُم كافرًا من قالها**
أَمرٌ بـدا لك رُشْـدُه فتبِعْتَـه	**أم زينـة الدُّنيـا أَردْت نوالها**
ولقد عهِدْتُك مـرَّةً مُتشـدِّدًا	**صعبَ المقالة للَّتـي تُـدْعى لها**
إنَّ المُرَزَّى من يُصـاب بدينـه	**لا من يُـرَزَّأ ناقـةً وفِصالها**

ولهذا حذَّر **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما من موالاة الظلمة بل وأمر باجتنابهم والبعد عنهم لئلا يُفسِدوا دين من دخل عليهم، فقال رضي الله عنه:

«اجتنبوا أبواب الملوك! فإنَّكم لا تُصيبون من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من آخرتكم ما هو أفضل منه!»[٦].

وحذَّر **وهب بن مُنبِّه** صاحبه **عطاء الخراساني** وقد أقبل عليه قائلاً:

«ويحك يا **عطاء**!

ألم أُخبَر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا؟

ويحك يا **عطاء**!

تأتي من يُغلِق عنك بابه، ويُظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك

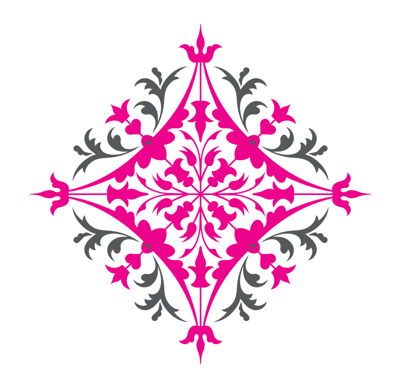
(٦) تنبيه الغافليـن بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي ٥٢٨ - أبو الليث السمرقندي ط دار ابن كثير، دمشق - بيروت



بابه، ويُظهِر لك غناءه، ويقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]»[1].

واهتف مع الشاعر المؤمن في نفسك وصحبك:

واهجر أبواب الملــوك فإنَّنــي	**أرى الحــرص جلّابًا لكُلِّ مذَلّــة**
إذا ما مَدَدْت الكفَّ ألتَمِس الغنـى	**إلى غيرِ مَنْ قال اسألوني فَشُلَّتِ**



(١) صفة الصفوة ٤٥٧



إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم



قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

توحي الآية بقانون صارم ثابت يحكم العلاقة بين المحتوى الداخلي النفسي للناس، وتغيير حال المجتمع إيجابًا أو سلبًا، نحو الأحسن أو نحو الأسوأ.

أهمية هذه الآية أنها توجه الأنظار إلى أن النفس البشرية هي ساحة التغيير الأولى وميدان التحدي الأساسي، فنحن لا ننتظر تحسن الأحوال وتحرير البلاد ونهضة الأوطان والتمكين لديننا قبل أن نستدرك تقصيرنا ونعالج أخطاءنا، فهي آية ترسِّخ قانونًا صارمًا يحكم العلاقة بين ميدان النفس وميدان المجتمع، وتغير النفس وتحولات المجتمعات البشرية سلبًا أو إيجابًا، وذلك نحو الأحسن أو الأسوأ.

وهي آية لها وقع كبير ومساحة مميزة في فكر كل المصلحين على مرِّ الأزمان ممن عملوا على تغيير واقع الامة، فقد أفاد منها علماء السياسة فكرة (المراجعات)، وأفاد منها علماء الاجتماع في مفهوم (النقد الذاتي)، وأفاد علماء التزكية في أصول (محاسبة النفس)، وحتى اليوم فإن أصحاب المشروع الحضاري الإسلامي ممن تبنوا التغيير التدريجي قد اتخذوا من هذه الآية شعارا، فكان الفرد المسلم، ثم الأسرة المسلمة، ثم المجتمع المسلم، وهو الطريق الأجدى نفعًا والأسلم طريقة من التغيير القسري من القمة بالطريقين السياسي والعسكري.



فكر المؤامرة!

وكثيرًا ما يكون اتهامنا للاستعمار وأعدائنا من اليهود والمنافقين من أعداء



الإصلاح ذريعة للاستسلام، فننام ملء جفوننا؛ معتقدين أننا معذورون، والواقع أن القرآن الكريم أرشدنا:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أي لا يضركم كيدهم أي شيء، لكن فكر المؤامرة مهربٌ نفسي سهل يلجأ إليه الكثيرون ليقعدوا عن القيام بالواجبات الملقاة على عاتقهم في مواجهة الواقع، وهو ما يؤدي إلى عدم مراجعة خطواتهم السابقة من حيث الصواب والخطأ، والحسن والأحسن.

لا نشكِّك في كيد الأعداء، وندرك خطر كيدهم ومدى مكرهم لكن مع ذلك كله- مطالبون بأن نواجه هذا الكيد بما هو أشد منه، وحين نواجهه بالسعي والتخطيط والإخلاص سيدفعه الله تعالى عنا، وتبوء جهودهم بالبوار، وجهودنا مهما قلَّت يباركها الله إذا استفرغنا وسعنا جهدًا وفكرًا وعزمًا وقلبًا.

ما أسهل أن نعيبَ غيرنا والعيب فينا، ونحمِّل الأسباب غيرنا، وننسى أسباب نفوسنا، وإذا سمعنا أحدا ينتقد، أو ينصح أو يوجه؛ توجهت الأصابع على الفور إلى (هم)، وغابت (نحن)، ولذلك يقلّ الانتفاع من الكلام، لأنَّ الكل يعتقد أنه ليس المخاطب ولا المقصود.

فارق شاسعٌ بيننا وبين أعدائنا في التخطيط للمستقبل، فدراستهم مبنية على دراسات وأبحاث يقوم بها أهل الخبرة والاختصاص؛ بينما قراراتنا مبنية على انطباعات وميول شخصية، فما قيمة رأي عشرة مهندسين في تشخيص مرض حين



يخالفون به رأي طبيب واحد؟!

وتبقى سنن الله لا تتغير، فمن اجتهد بفهم أعمق فاز، و من اجتهد بفهم سطحي فقد يفوز مرة ويخسر مرة، وأما من ركن إلى سنن الله دون اجتهاد فحتما لن يصل.



نفسك أولاً

يجب ألا تحتقر ذنبا مهما صغر، ولا تتهاون به مهما قل، فإن الذنوب الصغيرة تجتمع على الرجل حتى تهلكه، وتورده الموارد.

يأتيه الشيطان فيقول له ويغويه:

«ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيتَ من اللمم، أوما علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولايزال يُهوِّن عليه أمرها حتى يُصِرّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[1].

ولو رجعنا إلى أسلافنا لرأينا كيف كان الشعور عندهم بأثر المعاصي في دقيق الأمور وجليلها، كما جاء عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه -وهو يروى مرفوعًا وموقوفًا-:

«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»..

كانوا يرجعون كل شيء يحصل من الخطأ إلى ما نسوا من أمر الله، أو في ما اجترءوا

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٣٩.

عليه من حدود الله، وقد علمنا كثيرا من تعليلهم وتحليلهم لأسباب ما يحل بهم، وأنه بأثر ذنوبهم.



ذنوب الأمم والجماعات

والذنوب هنا هي المخالفات كلها، صغيرها وكبيرها، سواء كانت ذنوب أفراد، أو ذنوب أسر، أو ذنوب جماعات، أو ذنوب مؤسسات، أو ذنوب دول، فهذه كلها ذنوب يجب على فاعلها أن يتوب وإلا عوقب بها.

قال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

التغيير

وانظروا ماذا غيَّرت الأمة لكي ينزع الله منها نعمه وتمكينه، ففي جانب العقيدة غيَّرت، وفي جانب العبادة غيَّرت، وفي جانب التشريع غيرت، وفي الأخلاق غيرت، وإن حصر عملية التغيير المطلوبة في الشعائر التعبدية والذنوب الفردية مثل الصلاة والصوم والقرآن وغض البصر مع إهمالها في العبادات التعاملية والسلوكية كإتقان العمل والأمانة والوفاء هو من الاختلال في الموازين الشرعية ومن التعامل السطحي مع أمراض الأمة.

وإذا كانت أخطاء الفرد تؤخِّر النصر، فما بالك بخطايا المجتمع ككل؟!



وبصورة أشمل..

وفي مجال إصلاح المجتمع..

يتأكد لنا كل يوم -في إطار عملية التغيير المنتظرة من الأمة- أن عدم القيام بمراجعات، وغياب النقد الذاتي أو الاعتذار عن الأخطاء هو من أهم أسباب الانتكاس وعدم تحقق الأهداف.

إن محاولة حل المشاكل بنفس الأشخاص ونفس الأساليب ونفس الأفكار ثم انتظار نتائج مختلفة ليس من العقل في شيء، وإن عدم الاعتماد على أهل الاختصاص (الذِّكر)، والاعتماد على غير ذوي الكفاءات، وتقديم الثقة على الكفاءة، وعدم دراسة التجارب التاريخية، وعدم الإلمام التام بالواقع، وغياب الرؤية وضعف التخطيط.. كل هذه أخطاء بل خطايا تمثل الأركان الرئيسة لضعفنا وبقائنا في ذيل الأمم، وتحمل في طياتها بذور انكسارنا وتعدد هزائمنا، وهي على رأس أسباب تأخر النصر.

إنها الأسباب التي أمرنا بها دون الاعتماد عليها..هي خطوة «اعقل البعير» جنبا إلى جنب مع «وتوكل».



صفات الطائفة المنصورة!

عندما ننشد تغيير هذا الواقع المر الذي نحياه نعلم علما يقينيا أن هذا التغيير لن يحدث إلا إذا نال الأفراد المخلصين من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهؤلاء من



يخلِّصون الأمة من أعدائها، وينقذونها من الشتات وعالم الضياع، ويصلون بسفينة الأمة إلى بر الأمان، وهم نوع خاص اختاره الله سبحانه وتعالى، وجعل فيهم من الصفات والمزايا ما يستطيعون به حمل هذا الدين، والصبر على تبليغه والأذى الذي يلقونه في سبيل الله، وصفاتهم أوجزها الإمام **البنا** في ضوء ما درس من تجارب ناجحة على مدار التاريخ، فقال:

«إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور:

* إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف.
* ووفاء ثابت لا يعدو عليه سكون ولا غدر.
* وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل.
* ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه».

وأخيرًا..

لو ربطت بين الفرج الذي ترجوه وتغيير نفسك لاختصرت مسافات، وقطعت نحو هدفك -في لمح البصر- ما يقطعه غيرك في سنوات ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. لو!

تريد أن ترى العجب ولم تبذل من نفسك لربك ما يستوجب العَجَب!

ويحك! المعاملة بالمثل!



الفهرس


ينابيع الرجاء


ينابيع الرجاء


ينابيع الرجاء


ينابيع الرجاء

طبعة مزيدة ومنقحة 2015

ينابيع الرجاء

الجزء الأول

٣٠ سُنة ربانية وبشارة إلهية



د. خالد أبو شادي



طيبة

للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	ينابيع الرجاء (الجزء الأول)
المؤلف	د. خالد أبو شادي
مقاس الكتاب	20.5 × 14.5
عدد الصفحات	232
عدد الألوان	2 لون
رقم الإيداع	2014 / 4110

موبايل: 0100 1390293 - 0100 20047865

٤٢ شارع رياض - حلوان - القاهرة

E-Mail: tibaadv@yahoo.com



ومضات

سألني:

هل هناك أمل؟!

فأجبته:

بل هناك يقين!

اليائس لا يقوى على البناء لأنه كيان مهدوم، وفاقد الشيء لا يعطيه!

الحزن حبل من حبال الشيطان يعقـده على عزم الإنسان ليُقعِده عن الانطلاق واللحـاق بمضمار السباق، والغاية الجنة!





ليست وعود بَشَر..

بل وعود الذي لا يخلف وعده..

ولا يخذل عبده..

فما الذي أودعها اليوم وادي النسيان!

وقد امتلأت بها آيات القرآن وأحاديث النبي العدنان.

أجهلاً بها؟!

أم تكاسلا عن القيام بشروطها؟!

أشكٌّ في الوعد أم شكٌّ في الواعد؟!

أم أن استطالة الطريق أقعدت؟!

وسطوة الأعداء أتعبت؟!

وقسوة الظالمين أرهبت؟!

وكثرة الأدعياء وزيغات العلماء أحبطت؟!



فإن لم يكن شيء من ذلك، فلم السكون!!

تقدَّم!!

اركض برجلك..

ارحل عن وادي اليأس بقلبك..

لا تعلِّق آمالك إلا بربِّك..

هذا مغتسل بارد وشراب..

هذا سكة الأنبياء..

وطريق فيه آثار خير الصِّحاب..

فاقبض على هذه السنن فإنها مفاتيح النجاة..

وتشرَّبها بقلبك فهي إكسير الحياة..

وإذا ألقى الشيطان في روعك شبهة من الشبهات..

أو رماك مكتوفًا في وادي الأحزان وأنت تسمع فلانٌ أصيب وغيره مات!

فاقرع أسماع شياطين الإنس والجن ببشارة الحق في قوة وثبات:

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾





إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾لعل

أما بعد..

ففي هذه المرحلة الحرجة التي تعيشها الأمة، وفي خضم التحولات الهائلة التي نتعرض لها، فإن كثيرًا من الشباب استولى عليهم اليأس، وتمكّن منهم الحزن، وهم يرون سلاسل الشهداء، وأنهار الدماء، وتصاعد المكر والدهاء، وتعثر مسيرة التحرر من مكائد الأعداء، وقد سرت هذه الروح المُعدِيَة، فتملّك التشاؤم بدلاً من التفاؤل، وفاضت الروح من عزائم الكثيرين، مما يستدعي تدخلاً سريعًا وحلاً ناجعًا!



ولاشك أن الوحي من قرآن وسنة هو شفاءٌ لما في الصدور، فهو الذي لو تنزل على جبل لتصدَّع من الخشية، ولولا مسّ القلوب للانت وبرِئت من القسوة، ولذا فقد جمعتُ لكم في ثنايا هذا الكتاب ثلاثين سُنة ربانية وبشارة إلهية، وهي كفيلةٌ بإحداث انقلاب في نفوس اليائسين منكم، وبثِّ الروح في أجساد المحبطين، وهي سننٌ وثيقة الصلة بالصراع الدائر بين الحق والباطل، وتأخذ بأيدي العاملين للعبور على جسر الابتلاء إلى روعة الجزاء، فأينا سيكمل المسير ليحقِّق وعد الله للأمة بالظَّفَر وتحرير الأقصى الأسير؟!

إن فارقًا ضخمًا بين من يبذل جهده اليوم متفائلاً، وبين من يبذله يائسًا قانطًا كَلَون من ألوان تأدية الواجب فحسب..

فارق في ما تصل إليه من نتائج..

فارق في سرعة بلوغ الأهداف..

وفارق أهم في ثواب الأعمال ودرجات العاملين عند رب العالمين..

حُكِي أن الإمام **أحمد** قيل له أيام المحنة:

يا **أبا عبد الله**.. أولا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟

قال: «كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق»[1].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٨- شمس الدين الذهبي- ط دار الرسالة.



وصدق والله..

فهذا هو مقياس النجاح لدى أهل الآخرة! فليس الانتصار في معركة اليوم أن يهزم أهل الحق أهل الباطل، فهذا الأمر لله وحده، يصرِّفه كيف يشاء ومتى يشاء.

الانتصار في امتحان الآخرة ليس عن طريق أين وصلت، بل كم مِنْ جهدٍ بذلت، ومسافات قطعت منذ أن بدأت!!

وتبقى القضية الأهم بل والهمُّ الأجلُّ الذي يجب أن تسأل عنه نفسك:

- هل اخترتُ الطريق الصحيح؟
- هل التحقتُ بالعاملين المصلحين أم كنتُ في الغافلين والمبطلين؟!
- هل فترت همتي وانقطع نفَسي من طول المسير فقعدت واسترخيت؟!
- هل تكاسلت أو قصَّرت في واجبي وما هو مفروض عليَّ وإن لم أبلغ؟!

إن إجابة صادقة على هذه الأسئلة يحدد أين أنت في نظر الله، وتخبرك عن درجتك في مدارج الإيمان اليوم، ثم درجات الجنة غدًا، وإن الأحداث الجسام المحيطة بالأمة اليوم وعبر السنوات المقبلة تستدعي اليوم عزائم الأبطال، لأن التاريخ الآن يُكتب، وما نقدِّمه اليوم من سعي وبذل سيشكِّل وجه المنطقة ويغيِّر مسار الأمة خلال العقود المقبلة.

نعم..

هناك كثرة مخدوعة أو غافلة، وفي مقابلها قلةٌ باذلة مضحية..



نعم..

هناك جَلَدٌ متصاعد للفُجّار مع عجزٍ للثقات..

نعم..

مُطالبٌ أنت اليوم أن تسبح عكس التيار..

لكن..

متى كان الأمر يومًا غير هذا؟!

لقد ظلت سنة الصراع بين الحق والباطل مكرورة عبر التاريخ، وقواعد التدافع بينهما سارية، ومن هذه القواعد قلة السالكين وكثرة الهالكين، فهذا الإمام **أحمد** ينخسه أحد الجلادين بقائمة سيفه قائلاً: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟!

وجعل أحدهم يقول له: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟!»[1].

وهي كلمة أراد بها إضعاف عزيمته وتوهين قوته، فما استجاب له الإمام بل صمد!

وضرب لنا المثل في الزهد الحقيقي العميق لا السطحي الزائف، والزهد لمن ظنه في المظهر والتخشع ليس إلا ما قاله **أبو هشام المغازلي** حين سأله عنه **أحمد بن أبي الحواري** فقال:

«قطع الآمال، وإعطاء المجهود، وخلع الراحة»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥١.

(٢) قوت القلوب ١/ ٤٤٤- أبو طالب المكي – ط دار الكتب العلمية.



وهذا هو هدف الكتاب..

* قطع الآمال الدنيوية بالتعلق بنعيم الآخرة.
* وإعطاء المجهود وأقصى الطاقة للصلاح والإصلاح، والاهتداء والهداية.
* وخلع الراحة فلا نلقاها إلا عندما نحُطُّ رحال سفرنا في الجنة.

والله أسأل أن يبارك هذه الصفحات، ويطوي بها في ساحات البذل مسافات شاسعة وأزمانا طويلة، فيبلِّغنا نصرًا عزيزًا للإسلام، ويُقِرَّ عيوننا بولادة مجد تَليد وعزة مفتقدة ووحدة إسلامية جامعة.





إِنَّ اللّٰهَ لا يُصلح عَمَلَ المُفسدين



وهذا من كلام **موسى** عليه السلام لسحرة **فرعون** يوم المواجهة الكبرى، ومعناه: أن الله لا يصلح عمل من سعى في أرض الله بما يكره الله، وعمل فيها بمعاصيه، فلا يؤيِّده الله بجميل الخاتمة، وليس المرادُ بعدم إصلاحِ عملِهم عدم جعل فسادهم صلاحًا بل عدم إتمامه بل يمحق الله بركته، ويسلِّط عليه الدمارَ والبوار، والجملةُ تعليلٌ لما سبقها من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ ﴾.

قال **المراغي** في مزيد إيضاح:

«أي إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحًا للبقاء، فيقوّيه بالتأييد الإلهي ويديمه، بل يزيله ويمحقه، ويثبّت الحق الذي فيه صلاح الخلق، وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية، وهي مقتضى إرادته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومن ثم سيُنصَر موسى على فرعون، وينقِذُ قومه من عبوديته»(١).

ويقول **الطاهر بن عاشور** مبيِّنا طبيعة الباطل المضمحلة وزواله الحتمي:

«فإذا نفى الله إصلاحها فذلك بتركها وشأنها، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل»(٢).

ولهذا قال الله بعدها: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾.

(١) تفسير المراغي ١١/ ١٤٣.
(٢) التحرير والتنوير ١١/ ٢٥٦.



والإحقاق هو التثبيت، ومنه سُمِّي الحق حقًا لأنه الثابت، وإظهار اسم الجلالة في هذه الجملة ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ﴾ مع أنه مذكور في الجملة السابقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هو أمر مقصود، مع أن مقتضى الظاهر هو الإضمار وعدم التكرار، وذلك لإلقاء المهابة في نفوسهم، وقول الله تعالى ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

«فمعناه بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك»(١).

فالأمر الذي يريده الله سبحانه يتحقق بكلمة (كُنْ) فيكون الشيء، ولا توجد كلمة أقصر من (كُنْ) عند البشر؛ لكن الله لا يحتاج إلى الزمن الذي تُقال فيه كلمة (كُنْ)، وما يشاؤه الله سبحانه إنما يتحقق ويبرز إذا أراده الله وقدَّره.. ولا يعلم عاقبة الفساد مثل الرب سبحانه وهو الذي قال :

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣]

قال **البقاعي** رحمه الله: «أي ثابت وموجود، انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته من غير حيلة تصاحبه إلى رد ذلك القرار ولا خفاء على أحد، فلابد أن ينتهي الحق من كل شيء من الآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات وغيرها إلى نهايته فيثبت ثبوتاً لا زوال له، وينتهي الباطل مما ادعاه الخلق فيه إلى غايته فيتلاشى تلاشيًا لا ثبات له بوجه من الوجوه، فإذا استقرت الأمور ظهر ما هم عليه وعلموا الخاسر من الفائز»(٢).

فسبحان العليم الحكيم الذي لا يفجؤه شيء، ولا تروعه حادثة ، فكل أمر عنده مستقر، مهما هاج وفزع لأجله أهل السماوات والأرض، فأولُّ كلِّ أمرٍ عنده كآخره،

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ١٣٦.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١٩/ ٩٧ -البقاعي- دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.



فهو عالمٌ بحقيقته ومآله، والعالم بمآل الشيء لا يجزع منه.

وأما المصلحون الذين قصدوا بأعمالهم وجه الله تعالى، فإنَّ الله يبارك أعمالهم ويرقّيها، وينمّيها على الدوام، فالعبرة ليست بالحال بل بالنّهاية والمآل، وثقة المؤمن في ضوء هذا القانون أن عمل المفسدين قد ينجح لبرهة وفي ظروف معيَّنة، لكن سرعان ما يصير وبالاً على أصحابه ولعنة عليهم!

ولهذا كان من حكمة الحُكّام وبصرهم الثاقب التزام هذا القانون، وأن يوصوا به عُمّالهم، يقصدون بذلك حماية ما شيَّدوا من الهدم، وصيانة ما غرسوا من أن الاقتلاع، فليس لهم بمواجهة الله من طاقة، والله قضى قضاء لا يُرَدُّ أن كل من أفسد فهو لسعيه بالمرصاد، ولذا كتب الخليفة الخامس **عُمر بن عبد العزيز** إلى عامله **عبد الرحمن بن نُعَيْم** ينصحه في سطر واحد:

«أما بعد، فاعمل عمل من يعلم أنَّ الله لا يُصْلِح عمل المُفْسدين»[1].

ولذا صلحت ولايته، وكانت نعم الإمارة، وساد البلاد العدل والإصلاح بعد أن اندحر عنها الفساد والمفسدون، وصلحت الرأس فصلح الجسد، وطابت السواقي لما طابت العين.



الله يعلمُهم!

قد يُفلِح قومٌ في لبس الحق بالباطل، وإظهار المفسدين في صورة المصلحين لبرهة من الزمن، لكن الله لا تخفى عليه خافية ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١١٤.



﴿ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]

سبحانه يعلم ما تُضمِر القلوب، وتميل إليه من الإفساد أو الإصلاح، ويحاسبكم على الدقيق والجليل حتى مثاقيل الذر! وإنما نبَّه القلوب إلى ذكر علمه تعالى، لتراقب الله عند كل عمل، وتترقَّب الجزاء الحتمي عن كلِّ ما تعمل.

قال ابن عثيمين رحمه الله: «العلم هنا علم معرفة؛ لأنه لم ينصب إلا مفعولاً واحدًا؛ وكأنه ضمَّن «العلم» معنى التميز؛ يعني يعلمه، فيميِّز بين هذا، وهذا؛ ويجازي كل إنسان بما يستحق؛ لأن التمييز بين هذا وهذا يقتضي أن يميِّز بينهما أيضًا في الثواب والجزاء؛ ويشمل ذلك الإفساد الديني والدنيوي؛ والإصلاح الديني والدنيوي؛ ويشمل الذي وقع منه الإفساد أو الصلاح»[1].

الغاية النبيلة لا تُدرَك إلا بطريق نبيلة!

وهذا الإفساد قد يتسلل إلى معسكر المصلحين! وذلك حين يلجؤون إلى سبُلٍ معوجة للوصول إلى غايات نبيلة.

إنك لو وصلت إلى أهدافك بالتنازل عن مبادئك وسلوك طريق الاعوجاج، فهذا وصول!

لكن إلى غضب الله وسخطه!

وما ظننته ظفرا بمرادك سيكون عين الضياع، وذلك لأن الله ينزع منك بركته،

(١) تفسير الفاتحة والبقرة ٣/ ٧٢ – محمد بن صالح بن محمد العثيمين- دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.



ويحرمك ثمرته.

واسمعوا كيف تمسك الصحابة بالمبادئ ولو أدى ذلك إلى التضحية والمخاطرة.

جعفر بن أبي طالب لما هاجر إلى الحبشة.. يسأله **عمرو بن العاص** عند النجاشي عن **عيسى بن مريم**، وذلك ليستخرج منه ما يوقع بينه وبين **النجاشي** الذي استضافه وآواه، فماذا فعل **جعفر**؟!

«لا مفرَّ من قول الحقيقة التي تحاشوا ذكرها من قبل، لم تعُد تُجدي العبقرية هنا لأننا أصحاب مبادئ لا تجار سياسة، لأننا أمام دعاة إلى الله، وليس مع دجالين نهازين للفرص حتى يصلوا إلى الحكم، وهنا تقف حدود السياسي على عتبة الداعية، وهذا ما قرَّره الدعاة المسلمون بعد كل هذه المكاسب التي حققوها.

كيف يتصرَّف السياسي المسلم أمام هذه الموازنات؟!

أمام هذه الخيارات الصعبة؟!

أن يجد كل ما يتمناه منهارا في لحظة واحدة، أو يجد الدولة التي يريدها على وشك أن تقوم، ثم يُطلب منه أن يضحي بهذا كله من أجل حقيقة عقيدية واحدة..

أبدًا.. إما السياسي وإما المسلم.. فلا خيرها عندها له إلا الإسلام..

انتهى دور العبقرية ولم يكن من بد إلا إعلان إعلان العقيدة..

ولو كانت تغيظ الكثيرين أو تقضي على كل ما حقيقة المسلمونمن مكاسب، قالوا وبلا خلاف: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»[1].

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية ص ٩٧، ٩٨- منير الغضبان- مكتبة المنار الزرقاء بالأردن.



وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ



العاقبة من كل شَيْء آخِره، ومنه عَقِبُ الرَّجُل، ومنه العقوبة، لأنها تاليةٌ للذَّنب وعنه تكون، وقد وعد الله وعدًا جازمًا أنها للمتقين، وهي هنا:

النصر والظفر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

والدليل على أنَّ المراد هو العاقبة في الدنيا قبل الآخرة أن الله ذكر ذلك عقب قصة **نوح**، ونصَرَه بعد صبره على قومه، فقال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

أي أن عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت **لنوح** عليه السلام ومن آمن معه.

قال **الطاهر بن عاشور**:

«فإذا عُرِّفَتْ العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله، وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخر أحواله خيرا من أولها لكراهة مفارقة الملائم، أو للرغبة في زوال المنافر، فلذلك أطلقت العاقبة مُعرَّفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وفي حديث **أبي سفيان** قول **هرقل**: «وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة»، فلا تطلق المُعَرَّفَة على عاقبة السوء.

فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا ليناسب قوله ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وتشمل عاقبة الخير في الآخرة لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون.

وجيء في جملتي: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ



﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ بلفظين عامين، وهما: ﴿ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ و﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، لتكون الجملتان تذييلاً للكلام، وليحرص السامعون على أن يكونوا من المتقين»[1].

وهي بشارة جميلة ووعدٌ لا يتخلف، و«قد عُلِم من قوله: ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارض، وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى»[2].

قد ينتصر الباطل في جولة، ولكن الجولة الأخيرة يقينًا لأهل الحق، والنصر لأهل الله، والبشارات في ذلك معروفة مأثورة سارت بها الركبان عبر ما بشَّرت به آيات القرآن وأحاديث سيد الأنام ﷺ.

وفي وصف تفصيلي للمتقين حتى لا يختلط علينا الأمر، ولا ننخدع بالاسم عن المسمى، قال **محمد رشيد رضا** رحمه الله:

«فالمتقون في هذا المقام -مقام استعمار الأرض والسيادة في الممالك- هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٦٠.



في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي»[1].

قال الإمام **المراغي** رحمه الله:

«والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه في أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق وإقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المكاره، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع.

والخلاصة- إن الأمر ليس كما قال **فرعون**، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله، ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض ونحن الموعودون بذلك، ولكن بشرط أن نُقيم شرعه ونسير على سننه في الخلق»[2].

لكنَّ هذا لا يراه إلا أصحاب البصائر الإيمانية الثاقبة كما قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها؛ نال خيرها، ونجا من شرّها، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحسّ، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السّلامة، وبالنَّصَب ما رجا منه الرّاحة»[3].

واعتبِر بحال **الخضر وموسى** عليهما السلام، فإذا خفيت الحكمة على **موسى** مع مخلوق، فكيف بحكمة الخالق؟! قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«وهذا أصلٌ إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر، وإن ثبت

(١) تفسير المنار ٢/ ٣٨٠.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٣٨.
(٣) صيد الخاطر ص ٢٥.



استراح عند نزول كلِّ آفة»[1].



شبهة وردُّها!

وهنا شبهة رائجة ردَّ عليها بكلام ثمين قيِّم عالم في منزلة **ابن القيم**، وقد أوردتُ كلامه على طوله لأهميته:

«نذكر هاهنا نكتة نافعة، وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرًا من الكفار والفُجَّار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفُجّار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فإذا ذُكِّر بها وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط.

وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟

قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد:

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

أو قال: فعل بهم هذا ليعرِّضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات،

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٨٧.



وتوفية الأجر بغير حساب.

وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية على مقدمتين..

إحداهما:

حسن ظن العبد بنفسه وبدينه، واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نهى عنه، واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك، وأنه تارك للمأمور، مرتكب للمحظور، وأنه نفسه أولى بالله ورسوله ودينه منه.

والمقدمة الثانية:

اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيش عمره مظلومًا مقهورًا مستضامًا، مع قيامه بما أمر به ظاهرًا وباطنًا، وانتهائه عما نهى عنه باطنًا وظاهرًا.

فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل، ومتدين لا بصيرة له، ومنتسب إلى العلم لا معرفة له بحقائق الدين.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين، وللفجار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوعد الله تعالى ووعيده.

فأما المقام الأول:

فإن العبد كثيرًا ما يترك واجبات لا يعلم بها، ولا بوجوبها، فيكون مقصِّرا



في العلم، وكثيرًا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلاً وتهاونًا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هى من باب الفضائل والمستحبات.

قال تعالى:

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان..

وكذلك النصر والتأييد الكامل. إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]

وقال:

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هى بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذى يورده كثير من الناس على قوله تعالى:

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].



ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة.

والتحقيق:

أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان.

وأما المقام الثاني:

الذي وقع فيه الغلط، فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق يكونون في الدنيا أذلاء مقهورين مغلوبين دائمًا، بخلاف من فارقهم إلى سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصا بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان أو يجعله معلقا بالمشيئة، وإن لم يصرِّح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بيَّن في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذا كثير في القرآن»[1].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٧٧-١٨٣ بتصرف.



وتلك الأيام نُداولها بين الناس



هي سنة عظيمة رائعة من سنن الله تعالى اسمها سنة (المداولة)، وقد عرض لها **أبو سفيان** رضي الله عنه قبل إسلامه، ففي حديث **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه في صحيح **البخاري** حول ذهاب **أبي سفيان** إلى **هرقل**، قد سأله **هرقل** عن حالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«الحربُ بيننا وبينه سِجَالٌ، ينالُ منَّا وننال منه».

فهي إذن سنة ربانية لا تتخلف، وحركة تاريخية لا تتوقف، فاليوم ترح وغدا فرح، اليوم عَبرة وغدًا حَبرة، وهي سنة جارية على الأفراد والجماعات والدول.

وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أُحُد، وذلك أن الله أمكن المشركين من المسلمين في أحُد، فقتلوا منهم سبعين صحابيًا، كما سبق وأن أمكن المسلمين من المشركين في بدر، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين.

قال الإمام **المراغي** رحمه الله:

«﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أن مداولة الأيام سنة من سنن الله في المجتمع البشرى، فمرةً تكون الدولة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق، وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يُستطاع من القوة، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتُحكِموها أتم الإحكام حتى تظفروا وتفوزوا، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مُضعِفا لعزائمكم، فإنَّ الدنيا دول»[1].

وجاءت صيغة المضارعة ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ للدلالة على تجدد سنة مداولة الأيام من

(١) تفسير المراغي ٤/ ٧٩.



الأمم واستمرارها، وفي هذا قال القاضي **أبو السعود**:

«وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها»[1].

فيومٌ علينا ويــومٌ لنــا ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ[2]

ونلحظ أن مداولة الأيام إنما هي بين ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ فالأصل أن الناس سواسية إن تجردوا من منهج السماء، لكن صاحب الحيلة يغلب، وذو القوة يعلو، والأكثر عددا وعُدّة ينتصر، فما الذي يعوِّض المؤمن في مواجهة كل هذه الحيل والقوى والأعداد والعُدد؟!

ما الذي يضمن له الغلبة؟!

إنها موالاة ربِّه لـه، فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهته إذا كان الله وليه ونصيره.



والقرآن يشهد!

من يملك القوة في أكثر الأحيان يغتر بها، ويظن أن حصونه تمنعه من قوة الله عز وجل، وقد قال الله في شأن اليهود:

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر:٢]

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٨٩.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١/ ٢٨١.



وهزيمتهم أمر لم يكن في حسبانهم، ولم يضعوه في الاعتبار، وما غفلوا عنه كان سِرَّ زوالهم ومفتاح انهزامهم.. وآية أخرى هي قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس:٢٤].

فهل دام الزخرف والزينة؟! كلا والله بل جرت عليه السنة الإلهية:

﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس:٢٤].



حكمة!

- **لكن ما الحكمة في المداولة بين المؤمنين والكافرين، والمصلحين والمفسدين؟!**
- **ولماذا لا تكون العاقبة دائمًا لأهل الحق من المؤمنين؟**

يجيب على هذا التساؤل في كلام بليغ وتفصيل بديع وحكمة بالغة **إسماعيل حقي**، وذلك في تفسيره فيقول:

«وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين، وأخرى ينصر الكافرين، وذلك لأن نصره تعالى منصبٌ شريف، فلا يليق بالكافر، بل المراد أنه تعالى تارة يشدِّد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، وأنه لو شدَّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروري



والاضطراري بأن الإيمان حقٌّ وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، فلهذا المعنى تارة يسلِّط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية، والمكلَّف يدفعها (هذه الشبهات) بواسطة النَّظَر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام، فيعظم ثوابه عند الله، ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون إما تشديد المحنة عليه في الدنيا أدبا له، وإما تشديد المحنة على الكافر، فإنه يكون غضبا من الله»(١).

تنبأ أبو الجوزاء رحمه الله بما سيجري في المستقبل وذلك من خلال تدبره لهذه السُّنة الربانية، وبلغ من يقينه أن أقسم في ثقة:

«والله ليُعِزَّنَّ الله ملك بني أمية كما أعزَّ ملك من كان قبلهم، ثم ليذلنَّ ملكهم كما أذلَّ ملك من كان قبلهم، ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]»(٢).



فلا تضِقْ ذرعًا يومًا من سوء الحال وغموض المآل، فدوامُ الحالِ من المُحالِ، والأيام دُوَلٌ، والدَّهرُ قُلّبٌ، والليالي حُبَالى، والغيبُ مستورٌ، والحكيمُ كلَّ يوم هو في شأنٍ.. نعم.. كلَّ يوم هو في شأنٍ.

(١) روح البيان ٢/ ١٠٠.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٥٣.



وفي تفسير هذه الآية وتعلقها بسنة المداولة قال **السعدي** رحمه الله:

«﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يُغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويعطي قومًا، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته»[1].



خمس بخمس!

وانظروا في آيتين متتاليتين في كتاب الله تلمح فيهما هذه السنة واضحة جلية بين **فرعون** وبني إسرائيل:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٨٣٠.



خلاصة الآيتين:



(١) إن فرعون علا في الأرض.

(٢) استضعف حزبًا من أحزاب مصر.

(٣) قتل الأبناء.

(٤) استحيا النساء.

(٥) إنه كان من المفسدين.

وقد قابل سبحانه هذه البلايا الخمسة بخمسة وعود ربانية مبهرة وعد الله بها بني إسرائيل:

(١) منَّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته.

(٢) جعلهم أئمة مقدَّمين على غيرهم في الدارين.

(٣) أورثَهُم ديــار قوم آخريـن على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يُعرفون بالجبابرة، وهي أرض الشام.

(٤) مكَّن لهم وثبَّت سلطانهم في ما ملكوه من أرضِ الشام ومصر.

(٥) أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هلاكهم وذهاب ملكهم على أيديهم.

هي قصة استضعاف وتمكين يتعاقب أحدهما مع الآخر كما يتعاقب الليل والنهار، وهي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وصدقت العرب حين قالت في المثل:

ما طار طيرٌ وارتَفَع... إلا كما طار وقَع.





والتاريخ القديم يشهد!

دخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه وقالت: هجم علي مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة، وأنا أزعم أن ابني جعفرًا عاق لي!

وكانت أخت أحمد بن طولون صاحب مصر كثيرة السرف في إنفاق المال حتى أنها زوَّجت بعض لعبها، فأنفقت على وليمة عُرسها مائة ألف دينار، فما مضى إلا قليل حتى رؤيت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس[1].

وكذلك كانت الحروب الصليبية، فقد انتهت وتطهرت القدس من الغزاة بعد قرنين كاملين من الزمان، ولم يدم الحال للغاصبين، واستطاعت المقاومة أن تحقِّق أهدافها بطرد المعتدين في نهاية المطاف، وما كان الصليبيون يمثِّلون أكثر من ظاهرة عرضية موقوتة لا تقدر على مدِّ جذورها في الأرض، وكذلك اليوم حال دولة العدو الصهيوني، فهي جسمٌ غريب زُرِع في كيان غير متجانس مع ما حوله، ولهذا فإن الأرض ستلفظ هذا الكيان حتمًا لأن الأجسام الغريبة محكومٌ عليها بالطرد.

كانت الدائرة بالأمس للمسلمين على غيرهم، وهي اليوم لهم علينا، فالدور الآن

(١) لطائف المعارف ١/ ٢٩.



على هذه الأمة لتستلم مقود القيادة وتتصدى لصدارة الأمم، ونشرق بعد الغروب، ونعلو بعد الأفول.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾.

والتـاريخ الحديث يشهد!

خذ على سبيل المثال:

الشيوعية، كان لها دول تحميها ونظم عالمية عظيمة تتحدث باسمها وتفاخر بنشر مبادئها.. ودام لها الأمر عشرات السنين؛ ما يقارب السبعين سنة أو تزيد قليلاً، ثم ماذا؟!

ثم طالتها سنة المداولة، وبدأ العـدُّ التنازلي لانهيارها، فزالت من على وجه الأرض.

إن الإنسان يستطيل الأيام والشهور والأعوام، إلا أن الأمر أبعد من ذلك، فعشر أو عشرون أو ثلاثون سنة لا تساوي في حياة الأمم والشعوب شيئا؛ لكن الإنسان ابن لحظته، ولذا يرى الواقع القاتم أمامه سرمديًا لا يزول.

والمح هذا الإسقاط على أحداث التاريخ في قصيدة **أبي البقاء الرندي**، وقد رأى بعيني رأسه غروب شمس دولة الإسلام بالأندلس، فليست سنة المداولة جارية على غيرهم دون أن تنالهم:

لكل شيءٍ إذا مـا تـمَّ نقصـان ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتَها دُوَلٌ ... من سـرَّه زمنٌ ساءتـه أزمان

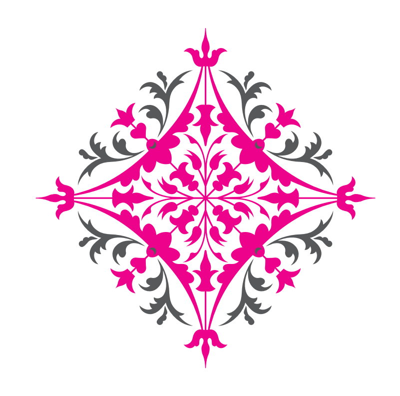


وصدق من قال وهو يخاطب من ظنَّ دوام الأحوال كثبات النعم واستمرار النِّقم:

لو أَنَّ مــا أنتمو فيــه يدوم لكُم	ظَننتُ ما أنــا فيــه دائمًا أبــدا
لكنَّنــي عــالــم أنِّــي وأنكــم	سنستجدي خِلاف الحالتين غدا

وهو ما يدفع العبد إلى عدم العلو والطغيان، وترك الاغترار بما حازه من قوة وسلطان، بل ينغِّص صفو حاله علمه بدنو رحيله كما قال **ابن الرومي**:

إذا طاب لي عيــشٌ تَنَغَّصَ طيبُــهُ	بِصِدق يقِيني أن سيذهب كالحلُمِ
ومن كان في عَيْشٍ يُرَاعي زوالَــهُ	فذلك فــي بُؤْسٍ وإن كان في نِعَمِ





لأنصرنكَ ولو بعد حين



وهي وصية النبي ﷺ:

«اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام؛ يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[١].

والمعنى: لا أُضيِّع حقَّك ولا أردُّ دعاءك، ولو طال الزمن لأني حليمٌ لا أُعاجِل بالعقوبة، لعلَّ الظلمة يَرْجعُون عن ظُلمهم فيردون المظالم إلى المظلومين، وفيه دلالة إلى أن الله يُمْهِلُ ولا يُهمِل.



ولصدق دعوة المظلوم إخلاص صاحبها تصعد في سرعة البرق إلى السماء، ولقوتها ورفعة مكانتها بين الأدعية لا تواجه في طريقها أي حُجَّاب أو حرس؛ ولذا حذَّر نبينا في وضوح:

«اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»[٢].

لذا صدق من أنذرك:

خَفْ دعوةَ المظلوم فهْي سريعةٌ   طلعَتْ فجاءتْ بالعذابِ النـازلِ

وليست إجابة دعوة المظلوم متعلِّقة بصلاحه أو فساده، وقربه من الله أو ابتعاده، والسبب واضح جليٌّ في قول نبيك:

«دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا، ففجوره على نفسه»[٣].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والضياء عن خزيمة بن ثابت كما في صحيح الجامع رقم: ١١٧.
(٢) صحيح: رواه الحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٨.
(٣) حسن: رواه الطيالسي عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٧٦٧.



بل ولا حتى ديانة الداعي تؤثِّر في إجابته! وفي هذا غاية التخويف من عاقبة الظلم مهما كان قدر من وقع عليه، ففي الحديث:

«اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب»[(١)].

وتكرار لفظ **«اتقوا»** فيه إشارة إلى ضرورة الهرب من هذه الدعوة وكأنها شبحٌ يطارد الظالم ولعنة تُمسك بخناقه!

ولا تُتَّقى دعوة المظلوم إلا بالتوقف عن الظلم والتحلل من المظلوم.

حُكِي أن الأمير **نوح بن أسد** لما وضع الخراج على أهل سمرقند، بعث بريدًا إلى أميرها، فأحضر الأئمة والمشايخ وأعيان البلد، وقرأ عليهم الكتاب، فقال الفقيه **أبو منصور الماتريدي** للبريد: قد أدَّيتَ رسالة الأمير، فاردُد إليه الجواب، وقل له:

زِدْنا ظلمًا حتى نزيد في دعاء الليل!

ثم تفرقوا، فلم تذهب إلا أيام حتى وجدوه قتيلاً وفي بطنه زجُّ رمح مكتوب عليه:

بغَى والبغي سهامٌ تنتظر … أنفذ في الأحشاء من وخز الإبرْ

سهام أيدي القانتاتِ في السَّحر … يرمين عن قوسٍ لها الليل وَتَرْ

ولهذا لم يحرس الملوك أملاكهم بمثل إقامة العدل وصيانة الحقوق، وهو ما غفل عنه أكثر الولاة والأمراء اليوم فزال ملكهم واهتزت عروشهم، ولذا لما بنى **ابن مروان** سور آمد قال **لأبي يوسف القزويني** الفقيه الحنفي، وقد أراه إياه وعجَّبه من حصانته

(١) حسن: رواه أحمد والضياء عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ١١٩، والسلسلة الصحيحة رقم: ٧٦٧.



وإحكامه:

كيف تراه؟

فقال له العالم الرباني:

«يحفظك بالليل، ويردّ عنك السبل، ولا يحجب عنك دعوة المظلوم!»[1].

وذلك أنهم أجمعوا على أنَّ المظلوم موقوف على نصرة الله له مصداقًا لقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

ولذا قال **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه مستشعرًا قوة المظلوم لوقوف الله إلى جواره:

«إني لاستحي أن أظلم من لا أجد له ناصرا عليَّ إلا الله»[2].

وبكى **علي بن الفضل** يومًا فقيل له: ما يبكيك؟ قال:

«أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حُجَّة»[3].

ولذا جاء في المثل:

أقرب الأشياء صرعة الظلوم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم، ومن طال عدوانه زال سلطانه، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه.

(١) التذكرة الحمدونية ٧/ ٢١٠ – أبو المعالي بهاء الدين البغدادي– ط دار صادر، بيروت.
(٢) عيون الأخبار ١/ ١٤٤ – ابن قتيبة الدينوري– ط دار الكتب العلمية.
(٣) المستطرف ١/ ١١٦.





واسمع هذه القصة تنبيك عن نفاذ سهم المظلوم في قلب الظالم ولو تأخَّر:

قال صاحب كتاب (روضة الأزهار، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار):

ولما مرَّ أمر **المنصور بن أبي عامر** بسجن **المصحفي** بالمُطبق (المُطبَق بضم الميم هو السجن لأنه أُطبقَ على من فيه) في الزهراء ودَّع أهله وداع الفُرقة، وقال لهم: لستم تروني بعدها حيًا! فقد أتى وقت إجابة الدعوة، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة! وذلك أنّي أشركت (شاركت) في سجن رجل في عهد **الناصر**، وما أطلقتُه إلا برؤيا رأيتها بأن قيل لي: أطلق فلانًا فقد أجيبت فيك دعوته، فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته عليَّ، فقال: دعوت على من شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون، فقلت: إنها قد أجيبت، فإني كنت ممن شارك في أمره، وندمت حين لا ينفع الندم، فيروي أنه كتب **للمنصور بن أبي عامر** بهذه الأبيات:

هبني أسأت فأين العفو والكرم	**إذ قادني نحوك الإذعان والنَّدم**
يا خير من مدَّت الأيدي إليه أما	**ترثي لشيخ نعاه عندك القلم**
بالغتَ في السُّخط فاصفح صفح مقتدر	**إنَّ الملوك إذا ما اسْتُرحِموا رَحِمو**

فأجابه **المنصور** بأبيات **لعبد الملك الجزيري**:

يا جاهلاً بعدما زلَّت بك القدم	**تبغي التكرُّم لمّا فاتك الكرم**
ندمت إذا لم تعد منّي بطائلةٍ	**وقلّما ينفع الإذعان والنَّدم**



فبقي في المطبق حتى مات، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم»[١].

ولهذا صار شعار **شريح** القاضي يحمل في طياته وعد المظلوم ووعيد الظالم، فقد أقام **شريح** قاضيًا ما زاد عن سبعين سنة، وكان إذا جلس للقضاء يلهج بهؤلاء الكلمات التي هي سنن لا تتخلف، وقوانين ربانية لازمة:

«إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصر»[٢].

أصابع الضعفاء ومجانيق الضعفاء!

ولذا حذَّر الصالحون من أصابع الأيتام؛ يقصدون بها رفع إيديهم بالدُّعاء على الظَّالم، وحذَّروا كذلك من مجانيق الضُّعفاء أي دعواتهم، وقوة هذه الأسلحة في خفائها، حيث لا يراها إلا أصحاب البصائر والتجارب، فالظلم هو الذنب الذي لا يغفره الله لأنه تعلَّق بحقوق العباد إلا أن يعفوا ويغفروا.

ولهذا لما حجَّ **أبو مسلم الخراساني** قام بعرفات يدعو ويقول: اللهم إني تائب إليك مما لا أظنك تغفره لي، فقيل له: أيعظم على الله غفران ذنب؟ فقال:

«إني نسجت ثوب ظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني العباس، فكم صارخة لعنتني

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ١/ ٦٠١.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٩.



عند تفاقم الظلم!

فكيف يغفر لمن هذا الخلق خصماؤه؟!»[1].

وهذا من عدل الله ورحمته، ففي قانون الله: هيهات أن ينجو ظالم بظلمه، ويفلت مجرمٌ من عقوبته.

واسمع **البارودي** يعرِّض بالحاكم المستبد ويتحدّى بطشه وغروره في عزة وشموخ:

يأيها الظالم في مُلكِه ... أغَرَّك المُلكُ الذي ينفدُ

اصنع بنا ما شئت من قسوةٍ ... فالله عدلٌ والتلاقي غَدُ



احذر قوة الضعيف!

في الحديث الصحيح:

«ابْغوني الضُّعفاء، فإنما تُرزَقون وتُنصَرون بِضُعفائكم»[2].

«ابغوني»: بكسر همزة الوصل أي اطلبوا لي **«الضعفاء»** يعني مساكين المسلمين لأستعين بهم، ويُقال بَغَيْتُك الشيء: طلبته لك، والمراد به طلب الإعانة، وطلب النبي ﷺ لهم ليكتبهم في ديوان المجاهدين وليستعين بهم، ولحضورهم فوائد

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٣١٥ – جار الله الزمخشري – ط دار مؤسسة الأعلمي ببيروت.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم وابن حبان والحاكم عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٤١.



أشار إليها بقوله: «فإنما تُرزَقون» أي تُرزَقون المطر والغنيمة في المعركة وغيرهما مما تنتفعون به، «وتُنصَرون» على أعدائكم «بضعفائكم» أي ببركة وجودهم بين أظهركم ورعايتكم لهم وبركة دعائهم، فإذا حنَّ الإنسان عليهم ورفق بهم وآتاهم مما آتاه الله؛ كان ذلك سببًا لحصول النصر على الأعداء، ومفتاحًا لسعة الرزق.

قال القاضي:

«والضعيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبرَّأ عن الحول والقوة بإخلاص واستعان بالله، فكانت له الغلبة بخلاف القوي، فإنه يظنُّ أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فتُعجِبه نفسه غالبا، وذلك سبب للخذلان»[1].

ومن حكمته تعالى أنه أمر بإعداد العدة للعدو، لكنه أخبر مع ذلك أن النصر يكون بالضعفاء ليعلم الخلق أن ما أُمِروا به من الاستعداد وأخذ الحذر هو من قبيل الأخذ بالأسباب فحسب، لكن النصر في الحقيقة هو من عند الله قد يُلقيه على يد الأضعف، فمع قوة الاستعداد يكون ضعف الضعيف سبب قوة ثان له، لأنه اعتراف بأن الأمر كلَّه لله يدبِّره كيف يشاء.

قال ابن بطال في سبب إصابة دعوة الضعفاء عن غيرهم:

«تأويل الحديث أنَّ الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء وأكثر خشوعًا في العبادة، لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا»[2].

(١) فيض القدير ١/ ٨٢ بتصرف.

(٢) تطريز رياض الصالحين ١/ ٢٠٠ - فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك الحريملي النجدي - دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض.



ويمكرون ويمكر الله
والله خيرُ الماكرين



المكر هو إظهار أمر يعتقد الجاهل به غير حقيقته، والكيد والمكر لا يَدُلان أبدًا على القوة؛ إنما يدلان على ضعف؛ لأن الشجاع القوي يجاهر بعدائه؛ لأنه قادرٌ على عدوه، لكنَّ الضعيف هو من يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه، والقوي لحظة أن يمسك بخصم ضعيف قد يُطلِقه وقد يعاقبه، لأنه مطمئن أن قوته تستطيع أن تنال من هذا الضعيف وقتما أراد، لكن الضعيف حين يقبض على قوي، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر، ويضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلاً، لذا يُخفي الماكر أمر مكره ويبيِّته بليل، ولذلك أنشد **أبو تمام** يقول:

وضعيفة فـإذا أصـابت فرصة   قتلت... كذلك قدرة الضعفاء

ولحرمة المكر السيء وخبثه فقد ترفَّع عنه الصحابة الذين تربوا على موائد النبوة، فهذا **قيس بن سعد بن عبادة** رضي الله عنهما يقول:

لولا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المكر والخديعة في النّار**»[1] لكُنْتُ من أمكر الناس.

والمكر مقلوب على صاحبه مرتدٌّ إلى قلبه كما استقرأ ذلك **محمّد بن كعب القرظي** من كتاب الله فقال: «ثلاث من فعلهنَّ لم ينْجُ حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣] ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس ٢٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾»[2].

(١) صحيح: رواه ابن عدي في الكامل كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٥٧. **وقيس** هذا داهية يتفجر حيلة وذكاء، وكان **قيس** يعدّ في الدهاة، وكانوا خمسة يومئذ، وهم: **معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل**، وهو الذي قال عن نفسه: لولا الاسلام، لمكرت مكرًا لا تطيقه العرب**!!** ولقد كان مع **علي** ضدَّ **معاوية**، وكان يقول: والله لئن قدّر لمعاوية أن يغلبنا، فلن يغلبنا بذكائه، بل بورعنا وتقوانا**!!**

(٢) الكشاف ٢/ ٥٦٣.



وإن كان المكر قبيحًا في حق البشر لكنه محمود في حق الله سبحانه كما قال الشاعر:

وَيَقْبُح من سواك الشيء عندي   وتَفْعَلُـــه فيحسُـــنُ مِنْـــكَ ذاكا

فكيف ذلك؟!

اسمع مني:

حين تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة، فمكر الله يكون تارة فعلاً يُقصد به مصلحة العبد ومنفعته، فهو محمود على سبيل المقصد والغاية.

ويكون تارة معناه الجزاء والمثوبة؛ أي يُجازي أهل المكر جزاء مكرهم.

ويكون تارة بأن لا يقبِّحُ مكر أعدائه في عيونهم، بل يزيِّنه لهم.

ويكون تارة بقطع توفيقه عنهم فيتخبطون.

ويكون تارة بإعطائهم ما يتمنون من دنياهم واستعماله في غير ما يحب، فيكون قد مَكَر بهم واستدرجهم إلى مصارعهم كما قال **الزمخشري**:

«مكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوِّه الكمين والبيات والغيلة»[١].

ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٦٣.



وهذا الذي اقتضى قول ربنا تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

ولذا اعتبروا أمن مكر الله كبيرة من الكبائر!

قال **الطاهر بن عاشور**:

«قال **الخفاجي**: الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية، وهو الاسترسال على المعاصي اتكالاً على عفو الله»[1].

ولأن الله يعلم ما يبيِّت أي إنسان، فإذا أراد الله إنفاذ أمر فلا يستطيع أحدٌ أن يواجِه إرادة الله وأمره، ولذا فمكر الله لا قِبَل لأحد بمواجهته ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فمكْر العباد مفضوح عند الله، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد، ولا يحتاط منه أحد؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين.

فطوبى لمن كان الله معه فمَكَرَ له، والويل كل الويل لمن عاداه ربه فمكر به.

إن المكر كله لله لأن مقادير الأمور بيده.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]

قال **الطبري** رحمه الله:

«فلله أسباب المكر جميعًا وبيده وإليه، لا يضر مكر من مكر منهم أحداً إلا من أراد ضره به، فلم يَضُرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضره ذلك، وإنما ضروا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم ونجّى رسله»[2].

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٥.
(٢) تفسير الطبري ٧/ ٤٠٨.



أهلكنَاهم لَمّا ظَلموا وجَعَلنا

لِمَهلِكِهم موعِدًا



أخرج ابن أبي حاتم عن العبَّاس بن عزوان في قوله:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾.

قال:

«قضى الله الْعقُوبَة حين عصي ثمَّ أَخّرهَا حتَّى جاء أجلهَا، ثمَّ أرسلها»[١].

فالعقوبة قرَّرها الله في اللوح المحفوظ بمجرد وقوع الظلم من الظالم، لكنَّ موعد تنفيذ العقوبة يظل في علم الله حتى يحل الموعد وتنزل الكارثة!

وأما كيفية الهلاك فقد شرحها الإمام المراغي رحمه الله في تفسيره قائلاً:

«وهلاك الله للأمم بالظلم ضربان:

(١) ضرب بعذاب الاستئصال للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلا لهدايتهم بالإيمان والعمل الصالح كقوم نوح وعاد وثمود، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم.

(٢) ضرب بعذاب هو مقتضى سنته تعالى في نظم الاجتماع البشرى، فالظلم مثلاً سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وإما ظلم الحكام الذي يفسد بأس الأمة ويهن من قوتها»[٢].

(١) الدر المنثور ٥/ ٤٠٧.
(٢) تفسير المراغي ١١/ ٧٦.



وقد اتفقت أفهام الصحابة على هذا لأنهم استقوا من معين واحد هو معين الوحي، وتربوا على مائدة واحدة مائدة القرآن، وكان من هؤلاء الحبر البحر ترجمان القرآن **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه، وقد ذُكِر الظلم في مجلس **ابن عباس** فقال **كعب الأحبار**: إني لا أجد في كتاب الله المنزَّل أنَّ الظلم يخرب الديار! فقال **ابن عباس**:

«أنا أوجِدكَه في القرآن، قال الله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾»(١).

ولذا قيل: الظلم أدعى شيء إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة، وهي مشاهدات التاريخ ومكرورات الأحداث، واسمع **صالح المري** رحمه الله وهو يقول عما شاهده:

«دخلتُ دار **المورياني**، فاستفتحت ثلاث آيات من كتاب الله، استخرجتها حين ذكرت الحال، فيها قوله عز وجل:

﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾،

وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾.

قال: فخرج إليّ أَسْوَد من ناحية الدار فقال: يا أبا بشر! هذه سخطة المخلوق، فكيف سخطة الخالق؟!»(٢).

يقصد بهذا أن ما ادَّخر الله للظالم في الآخرة أشد، وأن قصاص المظلوم منه عند القنطرة أو الصراط الثاني أشد وطأة وأعظم ألما، فعقوبتان للظالم لازمتان لا تتخلفان:

(١) عيون الأخبار ١/ ١٤٤.
(٢) البيان والتبيين ٣/ ١٠٣.



عقوبة دنيوية معجَّلة، وعقوبة أخروية مؤجَّلة، وقد أخبر النبي ﷺ أن أسرع الذنوب مؤاخذة هو البغي فقال:

«ما من ذنبٍ أجدر أن يُعجِّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخِره له في الآخرة من البَغْيٍ وقطيعة الرحم»[١].

إن الظلم يحمل في طياته بذرة زواله، ولذا لما سمع **مسلم بن يسار** رجلاً يدعو على من ظلمه قال له:

«كِل الظلوم إلى ظلمه، فهو أسرع فيه من دعائك إلا أن يتداركه الله بعمل، وقَمِنٌ أن لا يفعل»[٢].

وهو انتقام الله من عدوه، وله طريقان كما رأى ذلك **جعفر بن محمد** عن أبيه فقال:

«إذا أراد الله أن ينتقم لوليه انتقم من عدوه بعدوه، وإذا أراد الله أن ينتقم لنفسه انتقم بوليِّه من عدوه!»[٣].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي عن أبي بكرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٦٤١.
(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٣١٠.
(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٢٧٠.



أنا عِند ظن عبدي بي



في الحديث القُدُسي:

«إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[(١)].

فمعاملة الله لعبده تدور مع الظن، فإذا أحسن ظنه بربه بلَّغه ما أمَّل، وإذا تشاءم وأساء الظن بالله فالعقوبة إليه أسرع والشر منه اقترب.

جاء في عمدة القاري:

«قوله **«أنا عند ظن عبدي بي»** يعني: إن ظنَّ أني أعفو عنه وأغفر له فله ذلك، وإن ظن العقوبة والمؤاخذة فكذلك، ويقال: إن كان فيه شيء من الرجاء رجاه لأنه لا يرجو إلا مؤمن بأن له ربا يجازي، ويقال: إني قادر على أن أعمل به ما ظنَّ أني عامله به، وقال الكرماني: وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف»[(٢)].

وحسن الظن بالله معناه:

* ظن الإجابة عند الدعاء..
* وظن القبول عند التوبة..
* وظن المغفرة عند الاستغفار..
* وظن مجازاة الله لعبده خير الجزاء عند أداء الطاعة بشروطها..

ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقنًا بأن الله سيقبله ويغفر له، لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد ضدَّ ذلك فهو اليأس من رحمة الله وهو

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن واثلة كما في صحيح الجامع رقم: ١٩٠٥.
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٥/ ١٠١ – بدر الدين العيني – ط دار إحياء التراث العربي.



من الكبائر.

كمْ فــرجٍ بَعْــدَ إيــاسٍ قــد أتـــى	**وكمْ ســرورٍ قــد أتــى بَعْــدَ الأســى**
من يحسنِ الظنَّ بذي العرشِ جنى	**حُلْوَ الجنَى الرائقَ من شَـوْكِ السَّفا**

ولهذا كان **ابن مسعود** رضي الله عنه يحلف بالله تعالى ما أحسن عبد بالله تعالى ظنَّه إلا أعطاه الله تعالى ذلك لأن الخير كله بيده[1]، فإذا رزق الله عبدًا حسن الظن به فقد أعطاه مفتاح الخير وسر العطايا.

والذي حسن ظنه بربه يرى ببصيرة قلبه ما يتمناه قبل أن يتحقق واقعا بين يديه، وهذا ما اعتاده **أحمد بن العبّاس النمري** حين أنشد يقول:

وإنّــي لأرجــو الله حتّــى كأنّنــي	**أرى بجميل الظّنّ ما الله صانع**[2]

وحينها يكون إغلاق الأبواب كلها في وجه العبد هو الباب الوحيد المفتوح ناحية الله! والشدة عين الفرج، وهو ما قاله **علي بن الحْسن بن نصر بن بشر** الطَّبيب:

«فإنَّا قد نستقري الكرماء، فنجدهم يرفعون من أحسن ظَنَّه بهم، ويحذرون من تخييب أمله فيهم، ويتحرَّجون من إخفاق رجاء من قصدهم، فكيف بأكرم الأكرمين؟! الذي لا يُعْوِزُه أن يمنح مؤمِّليه ما يزِيد على أمانيهم فيهِ، وأعدل الشواهد بمحبة الله جلَّ ذكره، وتمسك عبده برحابه، وانتظار الرَّوح من ظله ومآبه، أن الإنسان لا يأتيه الفرج ولا تُدْرِكه النجاة، إلَّا بعد إخفاق أمله في كل ما كان يتوجَّه نحوه بأمله ورغبته، وعند انغلاق مطالبه وعجز حيلته، وتناهي ضره ومحنته، ليكون ذلك باعثا له

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا رقم: ٩٦.
(٢) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا رقم: ١٠٠.



على صرف رجائه أبدا إلى الله عز وجل، وزاجرا له على تجاوز حسن ظنِّه به»[1].

والمقادير بيد الله وحده، وإذا رضي عنك أدهشك عطاؤه وأتحفتك نعماؤه، ولذا قيل:

إن المقاديــر إذا ساعَدَت ألحقت العاجز بالحازم



يقين أحمد!

كتب رجُلٌ من إخوان أبي عبد الله أحمد بن حنبل إليه أيام المحنة أبياتًا من الشِّعر يصبِّره بها:

هــذي الخطـوب ستنتهي يا أحمد فإذا جزِعت من الخطوب فمن لها

الصَّبر يقطع ما تـرى فاصبر لها فعســى بها أن تـنـجلـي ولـعلـَّهـا

لكن إيمان الإمام لا يقبل الظن الذي تحتمله كلمة (لعلَّها)، وإيمانه لا يرضى الشك والارتياب بل ليس عنده إلا الثقة واليقين، ولذا أجابه الإمام أحمد قائلاً:

صبّـَرتنــي ووعظتنــي فأنــا لها فستنجلــي بــل لا أقـــول لعلَّها

ويحُلُّها مــن كان يملك عقـــدها ثـقــة بــه إذْ كــان يـمـلك حلَّها

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١/ ١٦٣ – ط دار صادر.



وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً أتصبرُونَ



قال **ابن القيم** في إغاثة اللهفان وهو يبيِّن الحكمة من اختلاف الخلق:

«وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض،

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم.. وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم،

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلِّمونهم وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجُهَّال بالعلماء؛ هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك،

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالغنياء،

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء،

والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة،

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به،

وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به،

وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال،

والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين،

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم،



ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل فتنةً لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]»[1].

وقد قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هنا، فليس لمن فُتِنَ بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صَبَرَ كانت الفتنة ممحِّصة له، ومخلِّصة من الذنوب، كما تخلِّص النار خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنة قسمت الناس فريقين: صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد في النار والعياذ بالله، فالنار فتنة من لا صبر له على فتن الدنيا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤].

حكى الإمام **القرطبي**: «ومعنى هذا أنَّ كُلَّ واحد مُخْتَبَرٌ بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منها على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لم لم نُعاف؟

والأعمى يقول: لم لم أُجْعَل كالبصير؟

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٦١.



وهكذا صاحب كل آفة.

والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره.

وكذلك العلماء وحُكّام العدل.

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر.

وقول الله تعالى ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾ محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون، فيقتضي جوابًا كما قاله المزني، وقد أخرجته الفاقة (الفقر) فرأى خصيًا في مراكب ومناكب، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية: ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾؟! فقال: بلى ربنا! نصبر ونحتسب.

وقد تلا ابن القاسم صاحب الإمام مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابرًا عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر»[1].

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ١٨. فائدة: أشهب: هو **أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري الجعدي**، فقيه الديار المصرية في عصره، وصاحب الإمام **مالك**. توفي سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.
قال **الشافعيّ**: ما أَخْرَجَتْ مصر أَفْقَهَ من **أشهب** لولا طَيْش فيه.
قال **محمد بن عبد اللَّه بن الحكَم**: رأيت **أشهب بْن عَبْد العزيز** ساجدًا، وهو يقول في سجوده: اللَّهم أمت **الشافعيّ** ولا تُذهِب عِلْم **مالك**.
فبلغ **الشّافعيّ** ذلك، فتبسّم وأنشأ يقول:

تمنّى رجال أن أموت وإن أمُتْ ... فتلك سبيلٌ لستَ فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... لئن مت ما الداعي عليّ بمُخلَّد

قال: فلما مات **الشافعي**، اشترى **أشهب** من تركته عبدا، ثم مات **أشهب**، فاشتريت أنا ذلك العبد، وذكروا أنه كان موت **أشهب** بعد **الشافعي** بشهر وقيل بثمانية عشر يومًا.
وفضّله **محمد بن عبد الله بن عبد الحكم على ابن القاسم** في الرأي حتى إنه قال: **أشهب** أفقه من **ابن القاسم** مائة مرة.



وهو استفهام توبيخي إنكاري كذلك يفيد وجوب الصبر؛ لأن الله امتحن المؤمنين بأعدائهم، ولولا ذلك لما كانت لهم الجنة.

وما أروع كلمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف بها الحكمة من خلق الخلق ودورهم في نصرة الحق، فقال رحمه الله: «**إن الله لا يُسلِم الحق، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه، فإذا لم يغاروا عليه غارَ هو عليه**»[1].

والناس تنفر من الفتنة وتخافها، وهذا لا يصح؛ لأن الفتنة تعني الاختبار، وهي مأخوذة من فتنة الذهب حين يُصْهر، فالذي ينبغي أن نخشاه هو نتيجة الفتنة، لا الفتنة نفسها، فالامتحان فتنةٌ للطلاب، والطالب المجتهد يسعى بحماسة إلى الاختبار ليثبت تفوُّقه، ومن أخفق في البذل أخفق يوم النتيجة، وكانت الفتنة في حقِّه شرًّا.



أوهام الفتنة!

وبعض الناس يتخذ من الفتنة ذريعة لعدم الصدح بكلمة الحق وترك إنكار المنكر وعدم مواجهة الظالم، وهذا والله من العجائب، ويفتح باب تمييع الحق ولبسه بالباطل، وقد عرض لهذه الشبهة القديمة ابن بطال حين استعرض حوارًا مع أحد أصحاب هذا الفهم السقيم ثم روى تفاصيله:

«الفتنة في كلام العرب الابتلاء والاختبار، فقد يكون ذلك بالشدَّة والرخاء

(١) تفسير الشعراوي ١٦/ ١٠٠٤٠، ١٠٠٤١- ط مطابع أخبار اليوم.



والطاعة والمعصية، وكان حقًا على المسلمين إقامة الحق ونصرة أهله، وإنكار المنكر والأخذ على أيدى أهله، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الحج: ٤١] كان معلومًا أن من أعان في الفتنة فريقَ الحق على فريق الباطل، فهو مصيب أمر الله تعالى.

ولا يخلو المفتتون من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يكون كلاهما محقين أو كلاهما مبطلين أو أحدهما محقًا والآخر مبطلاً؟ فإن قال: نعم. قيل له:

أو ليس الفريقان إذا كانوا مبطلين حقَّ على المسلمين الأخذ على أيديهما إن قدروا على ذلك وإن لم تكن لهم طاقة؛ فكراهة أمرهما والقعود عنهما وترك معونة أحدهما على الآخر فقد أوجب معونة الظالم على ظلمه، وذلك خلاف حكم الله.

ويقال له:

أرأيتَ إن كان أحد الفريقين مُحِقًّا والآخر مبطلاً.. أيجب على المسلمين معونة المحق على المبطل؟

فإن قال: لا، فقد أوجب ترك الساعي في الأرض بالفساد، وهذا خلاف قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فإن قال: تجب معونة المحق على المبطل، فقد أوجب قتال الفرقة الباغية.



وأما الحالة الثالثة، فإنها حالة ممتنع في العقل وجودها، وذلك حال حرب فريقين من المسلمين يقتتلان وهما جميعًا محقان في ذلك»[1].



النجاح في الفتن!

أمرٌ شديد الأهمية هنا.. أن الناس يفسِّرون اليوم الفتنة على اعتبار ما يفوتهم من أمر دنياهم، لا على ما يفوت من أمر دينهم، وهذا خطأ، والإسلام إنما قصد بالفتنة نقصان الدين لا الدنيا، فحفظ الدين هو أولى مقاصد الشريعة وأجلُّ مطالبها.

ولذا أشار **حذيفة** رضي الله عنه إلى علامة بارزة من علامات الفتنة وهو التحوُّل وتغيُّر الثوابت والمبادئ، فقال وهو يصنع مقياسًا يقيس به العبد قربه من الفتنة أو بعده عنها:

«إذا أحبَّ أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر فإن كان رأى حلالاً كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا كان يراه حلالاً فقد أصابته»[2].

وأشد الناس وقوعًا في الفتنة وسقوطًا في الاختبار: عالمٌ بلا عبادة، أو عابدٌ بلا علم، أو عالمٌ عابدٌ بلا افتقار واستعانة.

(1) شرح ابن بطال ١٠/ ٢٤-٢٨ بتصرف.
(2) المستدرك على الصحيحين رقم: ٨٤٤٣ - الحاكم - دار الكتب العلمية - بيروت.



فإياك أن تغتر يوما بعلمك أو عملك، وسل الله الثبات!

لقد قال الله لنبيه ﷺ:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ ﴾

[النساء: ١١٣].

وهذا مع رسول الله ﷺ، فكيف بنا نحن؟!

ولذا يظل الخوف من السقوط أقوى عامل من عوامل الثبات! ومن أكثر من طلب الثبات أُعطِيه، ومن قصَّر في الطلب حُرِم، فكيف يشكو بعدها تغير الحال وما تقدَّم بالسؤال؟!

العلم إذن لازمٌ لاجتياز بوابة الفتن، فكثيرٌ من الساقطون دفعهم إلى السقوط جهلهم وعدم تمييزهم ابتداء بين الحق والباطل، ولذا قال **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه:

«الفتنةُ حقٌّ وباطلٌ يشتبهان، فمن عَرَف الحقَّ لم تضُرَّه الفتنة»(١).

فالجهل إذن من أهم أسباب الفتنة، وسبب سقوط كثير من الناس، ولقد سُئل **حذيفة**: أي الفتنة أشد؟ قال:

«أن يُعرض عليك الخير والشر لا تدري أيهما تتبع»(٢).

ولذا ربطت الأحاديث بين فشو الجهل وانتشار الفتن في تلازمٍ وثيق، فقال

(١) كتاب الفتن ١/ ٦٨ – نعيم بن حمّاد – ط مكتبة التوحيد – القاهرة.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٠٣.



النبي ﷺ:

«إن من أشراط الساعة أن يفيض المال، ويكثر الجهل، وتظهر الفتن، وتفشو التجارة»(١).

لكن العلم إذا لم يصاحبه عبادة كان كالوتد الملقى على الأرض دون أن ينغرس فيها.. هل يصُدُّ ريحا أو يقي من حرٍّ؟!

ولذا فما لم يتقوَّ العالم بالعبادة كان علمه سبب فتنته مهما علا واشتهر، وهذا من خفيِّ الفتن وأصعب ألوانها، ولهذا أمرنا النبي ﷺ بأن نتدرَّع بدرع الوقاية فقال:

«تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظَهَر منها وما بَطَن»(٢).

وفي غياب العلم تظهر أزمة المصطلحات ولبس الحق بالباطل، فتقليب الحقائق من أعظم الفتن:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨]..

وحرب المصطلحات اليوم دائرة رحاها على أشدها، وذلك تحت تأثير سيل جارف من التضليل الإعلامي المستخدم في إخفاء الحقائق وإظهار عكسها، والهدف أن يصبح الحلال في وعي الجماهير حرامًا، والحرام حلالاً، والمقاومة إرهابًا، والظلم حزمًا وسياسة، والحق باطلاً، والباطل حقًا، والعدو صديقًا، والصديق عدوًا،، ولا

(١) رواه النسائي والحاكم في المستدرك واللفظ له كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٦٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن زيد بن ثابت كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٦٢.



يقوى على مقاومة هذه الفتنة إلا العلماء الربانيون، وأما علماء السوء فهيهات هيهات! وهذه هي الفتنة الحقيقية والبلاء المبين.

قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير، ويربوا فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة فإذا غيرت قالوا: غُيِّرت السنة؟

قالوا:

ومتى ذلك يا **أبا عبد الرحمن**؟

قال:

«إذا كثُر قرَّاؤُكم وقلَّت فقهاؤُكم، كثُرت أُمراؤكم وقلَّت أُمناؤكم، والتُمِست الدنيا بعمل الآخرة»[1].

وهذا العالم هو عالم السوء الذي يُبغِضه الله كما أخبر عن ذلك النبي ﷺ:

«إن الله تعالى يُبغِض كل عالمٍ بالدنيا جاهلٍ بالآخرة»[2].

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة باب تغيير الزمان وما يحدث فيه (ص ٥٨ ح ٩١، ٩٢). وانظر جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ١٨٨).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في تاريخه عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٧٩.



ولم أُكن بدعائك رب شَقيًا



يقول **زكريا** عليه السلام وهو يستشفع عند ربه ويتوسَّل إليه:

أي ولم أعهد منك يا رب إلَّا الإجابة في الدُّعاء، ولم ترُدَّني قطُّ في ما سألتُك، فلا تقطع عادتك، ولا تمنع جميلك، وكما لم أشق بدعائي فيما مضى، فأنا على ثقة أني لن أشقى به في ما بقي.

قال **ابن القيم**:

«والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من أجابته وإحسانه كما حُكِي أن رجلاً سأل رجلاً وقال أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا وكذا، فقال مرحبًا بمن توسل إلينا بنا، وقضي حاجته، وهذا ظاهر ها هنا، ويدل عليه أنه قدَّم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوَّده من قضاء حوائجه إلى ما سأله»[1].

وهذا يستدعي ذاكرة عبدٍ شاكر، يستحضر سابق نعم الله عليه ولا ينساها، ويعدِّد تفريجات الله عليه في الكُرِب وعطاياه له في المِحَن ليزرع بذلك في قلبه رجاءً جميلاً يستجلب به من ربه فضلاً عظيمًا.

قال **ابن عطية** رحمه الله:

«شَكَرَ لله تعالى على سالف أياديه عنده.. معناه أي قد أحسنت إليَّ في ما سلف،

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٤.



وسعِدْتُ بدعائي إياك، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله»[١].

ومعنى الشقاء هنا هو عدم تحقق المراد وفوات المصلحة كما قال **ابن الجوزي** رحمه الله:

«يُقال: شقي فلان بكذا: إِذا تعب بسببه، ولم ينل مراده»[٢].

وقال **القرطبي** رحمه الله:

«وهذه وسِيلةٌ حَسَنَةٌ أن يتشفع إليه بنعمه، ويستَدِرَّ فضلَه بِفضله»[٣].



وهي الحكمة التي أرشدك إليها **ابن عطاء** في إحدى حكمه فقال:

« إن لم تحسِّن ظنك به لأجل وصفه، حسِّن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عوَّدك إلا حَسناً ؟ وهل أسدى إليك إلا مننا؟!».

يقول لك إن لم يكن حسن ظنك بالله لِأَجل صفاته العلا، وأنه على كل شئ قدير، وهو الجواد الكريم، فلتحسِّن ظنك به لما عاملك به، وتعرَّف عليه بفضله ونعمه إن لم تتعرف عليه بأسمائه وصفاته، واستعن به واعتمد عليه للنفع الذي طالما نالك منه إن لم يكن لجميل وصفه.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤/ ٤.
(٢) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١١٧.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٨٠.



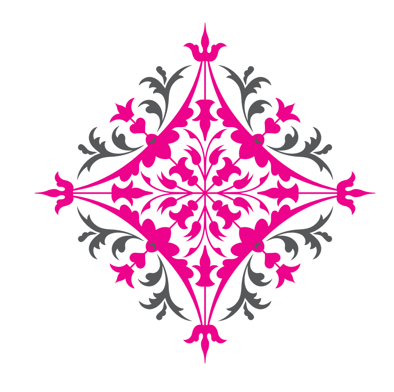
يوقن الطفل أن أبويه لا يُريدان به إلا خيرا حتى ولو تبرَّم من أوامرهما، فما بالنا لا نثق في الله الثقة التي يتمتع بها الطفل الصغير تجاه والديه؟!

رحم الله **أحمد بن المعدل**، فكان إذا أحزنه أمر قام في الليل يصلي، ويأمر أهله بذلك، وهو يتلو:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.

ثم ينشد:

أشكو إليك حوادث أقلقنني	فتركتني متواصل الأحزان
لولا رجاؤك والذي عوَّدتني	من حُسْن صُنعك لاستطار جَناني
من لي سواك يكون عند شدائدي	إن أنت لم تكلأ فمن يكلاني[1]



(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٤/ ٩.



إن ربك لبالمرصاد



وفي الآية استعارة تمثيلية، فقد شبَّه كونه تعالى حافظًا لأعمال العباد، مترقِّبًا لها، ومجازيًا على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه أحد بحال، بمن قعد على الطريق مترصِّدا لمن يسلكها ليأخذه، ويوقع به ما يريد.

قال **عبد الله بن عباس** رضي الله عنه:

«إن ربك لبالمرصاد قال: يسمع ويرى»[1].

والمرصاد في اللغة كذلك هو المكان الذي يجد فيه الراصد العدو.

قال **القرطبي**:

«أي على طريق العباد لا يفوته أحدٌ، والمرصَد والمِرصاد: الطَّريق»[2].

وهذا مَثَل لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه عالم بما يصدر من جوارحهم، بل وبمكنونات ضمائرهم، فيجازيهم عليه؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهو ما فهمه العرب أصحاب الفطرة، فلما قيل لبعضهم:

أين ربك؟!

قال: بالمرصاد!

ولذا وعظ العلماء بها الحكام تحذيرا لهم من عاقبة الظلم، فلما قرأ **عمرو بن عبيد** هذه السورة على الخليفة **أبي جعفر المنصور** حتى بلغ هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾،

(١) الدر ٨/ ٥٠٧، ٥٠٨.
(٢) تفسير القرطبي ٢٠/ ٥٠.

فقال:

يا **أبا جعفر**!

وأنه عرَّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعده الله بذلك من الجبابرة.

قال **الزمخشري** معلِّقًا:

«فلله دره! أيُّ أسد فَرّاس كان بين ثوبيه، يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه»[1].

فهذه الآية تبث في القلوب السكينة والطمأنينة في قلب كل مسلم، لأنه يثق أن الكون له رب يدبِّر الأمر فيه، ويراقب أفعال العباد، ثم يجازيهم عليها في الدنيا قبل الآخرة، وأنه لا يفلت أحد من العباد من عواقب عمله، فمن عمل خيرًا جازاه، ومن بغى واستطال أمهله ثم أخزاه.



قال **الماوردي** رحمه الله:

«حكي أن **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** تفاءل يومًا في المصحف، فخرج له قوله

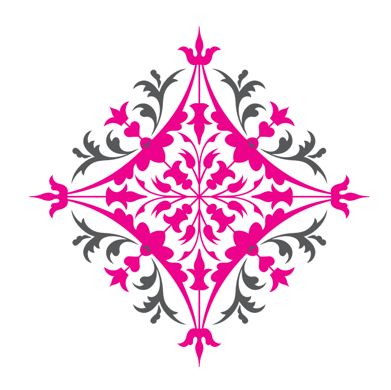
(١) السراج المنير ٤/ ٥٣٣ – محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي – ط مطبعة بولاق. في الصحاح «قصعت الرجل» صغَّرتُه وحقَّرتُه.



تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] فمزَّق المصحف، وأنشد يقول:

أتــوعِــدُ كل جبــار عنيــد	فهـا أنا ذاك جبــار عنيــد
إذا ما جئت ربَّك يوم حشرٍ	فقل: يا ربُّ مزَّقني الوليد

فلم يلبث إلا أيامًا حتى قُتل شر قتلة، وصُلِب رأسه على قصره، ثم على سور بلده، فنعوذ بالله من البغي ومصارعه، والشيطان ومكائده، وهو حسبنا وعليه توكلنا»[١].



(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص٣١٧.



أَمَّن يُجِيبُ المُضطَّرَّ



دخل **طاوس اليماني** على **عبيد الله بن أبي صالح** يعــوده من مرضه، فقــال له **عبيد الله**:

ادعُ الله لي يا **أبا عبد الرحمن**!

قال:

«ادعُ لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه»[(١)].

وجاء رجُلٌ إلى **مالك بن دينار** فقال: أنا أسألك با لله أن تدعو لي فأنا مُضْطَرٌّ، فقال:

«إذا فاسأله فإنَّه يُجيبُ المضطَّر إذا دعاه».

فمن هو المضطر بحق؟!

فاسمع أقوالهم:

قال **ابن عبَّاس**: هو ذو الضَّرورة المجهود.

وقال **السُّدِّيُّ**: الذي لا حول له ولا قوة.

وقال **ذو النُّون**: هو الَّذي قطع العلائق عما دون الله[(٢)].

ومن أنواع المضطرين: المريض، ولذا كان **طاوس** يقول:

«دعاء المريض مستجاب، أما سمعت قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ»[(٣)].

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٥٤.
(٢) القرطبي ١٣/ ٢٢٢.
(٣) اللطائف والظرائف ٢٦٧ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي - دار المناهل، بيروت.



وصدق الشَّاعر المؤمن ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ حين حكى تجربته العملية قائلاً:

وإني لأدعو الله والأمر ضيِّقٌ ... عليَّ فما ينفكُّ أن يَتَفرَّجا

ورب أخٍ سُـــدَّت عليه وجوهُه ... أصاب لها لما دعا الله مخرجا

سبحانه فارج الهمِّ وكشَّاف الكُرَب! هو من ساءل الكفرة.. من بارزوه بالعصيان حين عدَّد عليهم نعمه في كتابه العزيز، فقال:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فسبحان من أشهد الكفار على إجابته دعوة المضطرين منهم!

فما بالك بالمضطرين من عباده المؤمنين؟!

ولذا قيل في قيمة الاضطرار وأثرها على إصابة سهم الدعاء:

«خيرُ الدعاء ما هيَّجَته الأحزان»[١].

وسبب إجابة دعوة المضطرين هو ما ذكره الإمام **القرطبي**:

«والسبب في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجَأ ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقعٌ وذمّةٌ وُجِدَ مِنْ مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر»[٢].

وانظر اضطرار سيد الخلق ﷺ وتقطع أسبابه يوم بدر لتذوق معنى الاضطرار، ثم

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٢٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٢٣.



تقلِّد شعوره في دعائك، وتسلك طريقه في رفع حاجاتك: رفع يديه ﷺ داعيًا حتى سقط الرداء عن كتفيه ورؤي بياض إبطيه، وهو يلهج:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض».

فما زال يهتف بها مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه متأثّرا بحاله، ثم التزمه من ورائه قائلاً:

يا رسول الله! كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

كان هذا دعاء سيد النبيين وقدوة العالمين ﷺ وهو يعلِّم أمته فنَّ الاضطرار وسبل الافتقار، فما أسرع الخير والمدد بالانهمار ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وهنا خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش، ثُمَّ انتبه وقال:

«أبشِر يا أبا بكر! أتاك نَصْرُ الله.. هذا جبريل آخِذٌ بِعنان فرس يقوده على ثناياه النَّقع».

واسمع ما مرَّ **بأبي حامد الغزالي** رحمه الله من شدة كادت تعصف بدينه وإيمانه، وما لقيه من شهوات وشبهات لم ينجِّه منها إلا دعاء المضطرين:

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن



أدرس يومًا واحدًا تطييبًا للقلوب المختلفة إليَّ، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة... ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى، التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب»[١].

ولذا جاء في الحكم العطائية:

«ما طلب لك شيءٌ مثل الاضطرار، ولا أسرعَ بالمواهب مثل الذلة والافتقار».

إن الاضطرار مالٌ يمنحك الله إياه لتستجلب به أرباحا غزيرة، وإن الاضطرار في قلبك جزء يسير من عطاء رباني ينتظرك وفضل عظيم ترفل فيه عن قريب، ولذا كانت الشدائد عند المؤمنين مفتاح المواهب.

ولعل هذا ما اكتشفه **ابن القيم** رحمه الله في قيمة كنز الاضطرار الذي أهدته له أيادي المحن، وذلك حين قصَّ تجربته الإيمانية قائلاً:

«من كمال إحسان الرَّب تعالى أن يُذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويُعَرِّفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بِضِدِّها»[٢].



(١) المنقذ من الضلال ص ١٧٤، ١٧٥– ط دار الكتب الحديثة.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١/ ٣٠٦.





واسمع ماذا كان يقول ﷺ عندما يُحزِنه شيء في كلمات تعبِّر عن اضطراره وغاية افتقاره:

«كان إذا كرَبه أمر قال: يا حي يا قيوم.. برحمتك أستغيث»[١].

وهو ما أوصى به ابنته **فاطمة** رضي الله عنها في كلمات تنبعث منها حرارة الحاجة ولوعة الفاقة، ثم أوصاها أن تكرِّر ذلك مرتين يوميا كجرعة لازمة واقية من الكروب والأحزان:

«ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا»[٢].

وقوله ﷺ كذلك **لأسماء بنت عميس**.. يعلِّمها قطع الروابط والعلائق إلا بالله، وذلك بترديد كلمة التوحيد مع كل كرب شديد:

«ألا أعلمك كلمات تقولهن عند الكرب؟ اللهُ.. الله ربي لا أشرك به شيئا»[٣].

يا خالق الخلق يا رب العباد ومن	**قد قال في محكم التنزيل ادعوني**
إنّي دعوتك مُضطرا فخُذ بيدي	**يا جاعل الأمر بين الكاف والنون**

(١) حسن: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٧٧.
(٢) صحيح: رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة والبيهقي في الأسماء كما في السلسلة الصحيحة رقم:٢٢٧.
(٣) حسن: رواه أحمد،ابو داود ابن ماجه عن أسماء بنت عميس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٢٣.



نجَّيتَ أيــوب من بلـواه حيــن دعا	بصبــر أيــوب يا ذا اللطف نجّينــي
واطلق سراحي وامنُن بالخلاص كما	نجَّيتَ من ظلمات البحــر ذا النــون



لكن كيف تصل إلى هذا الاضطرار؟!

وكيف تعلم أنك قد حصَّلت ما ينفعك منه وبلَّغك مقصودك؟!

وهل لذلك علامات؟!

أجاب على هذا **مُوَرِّقٌ العِجلي** رحمه الله، فوصف لك صورة المضطر بحق كي تقارن دعاءك به، وتحشو قلبك بما في قلبه، وتقصِّر بذلك السِّكة إلى العطاء، وتختصر الطريق إلى إجابة الدعاء، فقال رحمه الله:

«ما وجدتُ للمؤمن مثلاً إلاَّ رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو يا ربِّ يا ربِّ، لعل الله عزَّ وجلَّ أن ينجيَه»[1].

يا خالق الخلق يا رب العبـــاد ومن	قد قال في محكم التنــزيل ادعوني
إنّــي دعوتك مُضطرا فخُذ بيــدي	يا جاعل الأمر بين الكاف والنـــون
نجَّيتَ أيــوب من بلواه حيـــن دعا	بصبر أيــوب يا ذا اللطف نجّينـــي
واطلق سراحي وامنُن بالخلاص كما	نجَّيتَ من ظلمات البحر ذا النـــون

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٢٤٧ – ط دار الكتب العلمية.

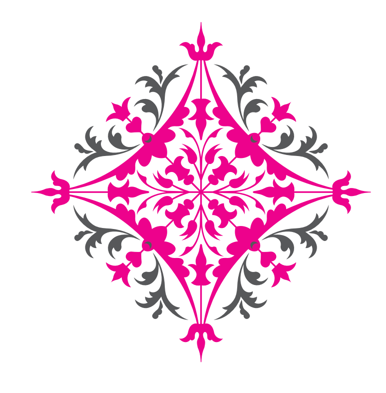


وانقطاع الأسباب هو أوسع باب من أبواب الرجاء، وتسلق قمة الاضطرار هو الذي يوصلك إلى أفضل العطايا، وانظر كيف فطن الإمام **الجنيد** رحمه الله إلى هذه اللطيفة، فحين جاءته امرأة شاكية: ادعُ اللهَّ تعالى لي فإن ابنا لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت ثُمَّ عادت فقالت مِثل ذلك، فقال لها **الجنيد**: اذهبي واصبري فمضت، ثُمَّ عادت ففعلت مِثل ذلك مرات، **والجنيد** يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري ولم يبق لي طاقة، فادع لي، فقال **الجنيد** رحمه الله:

إن كان كما قُلْت فاذهبي، فقد رجع ابنك!

فمضت ثُمَّ عادت تشكر له، فقيل **للجنيد**: لم عرفت ذلك؟ فقال: قال الله تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]»[1].



(١) الرسالة القشيرية ١/ ٤٢١، ٤٢٢.



رب إني مسني الضُر
وأنت أرحم الراحمين



قال **ابن القيم** رحمه الله:

«جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات، ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره»[(١)].

ورغم أن كلمات هذا الدعاء لا تحمل معنى الطلب، ولا نبرات الدعاء، لكنها من أبلغ أنواع السؤال، وقد سئل **سفيان بن عيينة** عن حديث رسول الله ﷺ:

«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[(٢)].

وإنما هي ذكر ليس فيه دعاء.

قال **سفيان**: سمعت حديث **منصور عن مالك بن الحارث**، يقول الله تعالى:

«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[(٣)]؟!

قلت: نعم.

قال: ذلك تفسير هذا، ثم قال: أتدري ما قال **أمية** حين أتى **ابن جدعان** يطلب منه نائلة ومعروفه؟

---

(١) الفوائد ١/ ٢٠١.
(٢) حسن: رواه مالك عن طلحة بن عبيد بن كريز مرسلا كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٠٣.
(٣) ضعيف: رواه الترمذي عن أبي سعيد كما في ضعيف الجامع رقم: ٦٤٣٥.



قلت: لا. قال: لما أتاه قال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرُّضك الثناء

قال **سفيان**:

فهذا مخلوق حين يُنسَب إلى الجود قيل: يكفينا من تعرضك الثناء عليك حتى تأتي على حاجتنا، فكيف بالخالق؟»[1].

وهذا من حسن الأَدب في السُّؤال والدُّعاء، فقول القائل لمن يعظِّمه ويطمع في فضله: أنا جائع.. أنا مريض.. هو حُسْنُ أدبٍ في السُّؤال، وفيه إظهار حاله والإخبار به على وجه الذُلِّ والافتقار، وهو متضمِّن لسؤال الحال وهو أبلغ من سؤال المقال، أما قوله (أطعمني وداوِني) فهو طلب جازم من المسئول.

وهي قمة الشكوى إلى الله كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا! تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرَتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنَّه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وهو من عظيم الأدب مع الله سبحانه، وجميل الطلب منه، فلم يقل **أيوب** عليه السلام تصريحًا: عافني واشفني، بل فوَّض الأمر لله وحده، وتوسَّل إليه باسم من أسمائه وأحد أحب صفاته، واثقًا في حسن صنعه وتدبيره؛ يرشدنا بذلك إلى سلوك هذا السلوك، وأن نتصرف مع ربنا تصرف العبد المملوك..

(١) فضائل الأوقات للبيهقي ١/ ٣٦٩، ٣٧٠.



قال **سيد قطب** رحمه الله وهو يرسّخ هذا الأدب البشري في دعاء الرب جل في علاه:

«**أيوب** هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبًا معه وتوقيرًا، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب من ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة، وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء»[1].



مع الله!

نشكو إليك منا، ونستعين بك علينا، ونتقوي بك على ضعفنا، ونتترّس بك أمام خوفنا، ونثق في حُسن تدبيرك لنا، ونلح عليك مرات ومرات مع صرخات ذُلنا وانكسارنا، وكما قيل: الإمداد بحسب الاستعداد، فعلى قدر إناء افتقارك وسعة وعاء التجائِك يكون انهمار المدد منه والأعطيات. قال **إقبال**:

عطايانا سحائب مرسلات	**ولكن ما وجدنا السائلين**
وكل طريقنا نور ونور	**ولكن ما رأينا السالكينا**

(١) في ظلال القرآن.





من أكمل صيغ الدعاء!

ولأن الصِّيغة التي تتضمن حال السائل والمسئول مِنْ أكمل صيغ الدعاء المُفْضي إلى الإجابة، فلذا جاء كثير من الأدعية النبوية على هذا المثال؛ مِثل قول النَّبي ﷺ **لأبي بكر الصديق** رضي الله عنه: **«قل اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»**(١).

والمح في هذا الدعاء سؤال الله بصفاته التي تستدعي الإجابة وتستعطف الكريم، وهو وصف الرب سبحانه وتعالى بالمغفرة والرَّحمة، وهذا من استجداء الرحمة من الرحيم بأحب ما يحب ربنا ويرضاه.

قال **ابن القيم**:

«فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن عمر وأبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٠٠.
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٩١.





فما قصة أيوب عليه السلام؟! وما خبر ابتلائه؟

اسمع: «إن أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد. قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به.. فلما جاء إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير إن الله يعلم أني كنت أمُرُّ بالرجلين يتباعدان يذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأؤلف بينهما كراهة أن يذكر الله لا في حق.. وكان يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فاستبطأته فأتته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله المُبْتلى؟ والله على ذاك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإني أنا هو»[1].

وجزاء هذا الصبر الطويل، ومكافأة له على عدم شكواه ورفع بلواه إلا لمولاه، فقد مدحه الله في كتابه، وما أعظم هذا الصبر حتى يمدحه الله جل في علاه، وليست مدحة واحدًا بل ثلاث مدحات متتاليات: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

(١) الدر ٥/ ٦٥٩.



يُدبِّر الأمر



والتدبر هو النظر في عاقبة الأمر، وأما التدبير فهو النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العواقب.

قال **القرطبي**: «﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾:

قال **مجاهد**: يقضيه ويقدره وحده.

قال **ابن عباس**: لا يُشرِكه في تدبير خلقه أحد.

وقيل: يبعث بالأمر.

وقيل: ينزل به.

وقيل: يأمر به ويمضيه.

والمعنى متقارب، فجبريل للوحي، وميكائيل للقطر، وإسرافيل للصور، وعزرائيل للقبض، وحقيقته تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها، واشتقاقه من الدبر، والأمر اسم لجنس الأمور»[1].

وحتى المشركون علموا هذا فقال ربنا عنهم حين ساءلهم:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

فالحادثات صادرة عن تقديره، وحاصلة بتدبيره، فلا شريك له يعضِّده، ولا يشرِك في تدبير خلقه أحدًا، وما قضى به فلا أحد يقدر على ردِّه، ولكنه مع هذا ليس أي قضاء، بل فيه غاية الحكمة التي تليق بربنا الحكيم، وهو ترتيبٌ للوجود يجعل كل شيء

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٠٨.



موضوعا في مكانه بحكمة بالغة.

قال **الزمخشري** رحمه الله:

«يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحرّي للصواب، الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، لئلا يلقاه ما يكره آخرًا، والأمر أمر الخلق كله، وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش»[١].

وقال **سهل التستري** رحمه الله:

«يقضي القضاء وحده، فيختار للعبد ما هو خير له، فخيرة الله خير له من خيرته لنفسه»[٢].

سبحانه..

لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض..

ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل..

ولا يتبرَّم من إلحاح الملحين ولا كثرة السائلين..

ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، ولا الجليل عن الحقير..

وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها..

ولو كانت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢/ ٣٢٨.
(٢) تفسير التستري ١/ ٧٦.



وقد جمع سبحانه بين الخلق والأمر، فالخلق أصعب من الأمر، ولما كان هو الخالق وحده، فما أيسر تدبيره لأمر من خلقهم، فيُغني ويُفقِر، ويرفع أقواما ويضع آخرين، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويخفض ويرفع، ويُقيل العثرات، ويُفرِّج الكربات، ويُنفِذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه.



من قبل ومن بعد!

والله عز جل بيده الأمر منذ الأزل إلى الأبد، لذا قال سبحانه:

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾

والآية في سورة الروم أي أن الله قدَّر الغَلَبة أولا للفرس على الروم، ثم الثاني وهو غلبة الروم على الفرس قبل أن يحدث على أرض الواقع، أي من قبل غلبة الروم، فالأمر كله متعلِّقٌ بالروم، أي من قبل غلبهم ومن بعد غلبهم.

قال **البيضاوي** رحمه الله:

«من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين، أي له الأمر حين غلبوا وحين يُغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه»[1].

ويذهب **القشيري** رحمه الله إلى التعميم وليس فقط خاصًا بالصراع بين الفرس والروم،

(١) البيضاوي ٤/ ٢٠١.



فمعنى الآية من قبل كلِّ أمرٍ ومن بعده:

«﴿قَبۡلُ﴾ إذا أُطلِق انتظم الأزل، و ﴿بَعۡدُ﴾ إذا أطلق دلّ على الأبد فالمعنى الأمر الأزليّ لله، والأمر الأبديّ لله لأنّ الرّبّ الأزليّ والسّيّد الأبديّ الله»[1].

والهدف من إعلان توحيد الله بتدبير الأمر أن تُنزِل الأخذ بالأسباب قدره الصحيح الذي لا يتقدَّم عنه ولا يتأخر.

قال **السعدي** رحمه الله: «فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لابد أن يقترن بها القضاء والقدر»[2].

وفيه تأديبٌ عظيم للأمة لكي ينسبوا الفضل لأهله، ولا يعلّلوا الحوادث بغير أسبابها، ولا ينتحلوا لها عللا توافق أهواءهم كما كان يفعل الدجالون من الكُهّان والسحرة، فقد تطاول المشركون على المسلمين بعد أن أبهجهم غلبة الفرس على الروم لأنهم عبدة أصنام مثلهم، وادَّعوا أن هذه الغلبة جاءت من نصر الأصنام لعُبّادها، فأبطل الله هذا الظن لدى المشركين، ونزلت الآية عامة ليستفيد منها المؤمنون في كل زمان ومكان.

وتقديم المجرور في قوله ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ليغرس الله في قلب كل مؤمن أن التصرف لله وحده في الحالين، وأن الأمر لا يتعدى أبدا إلى غيره، فقد أثبت الله لهم ذلك بمثال واقعي لمسوه بأيديهم، حين أعلن الله نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة، وحدَّد المنتصر في هذه المعركة.

(١) لطائف الإشارات ٣/ ١٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٦٣٦- عبد الرحمن السعدي - مؤسسة الرسالة.





دعاء القوة!

ولتدرِك مكامن القوة اليوم، ولمن تكون، وذلك بتدُّبرك لكل كلمة من كلمات هذا الدعاء النبوي ﷺ الشافي لما في الصدور.. الغارس لبذور اليقين وأسباب السرور:

«اللهم ربَّ السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا وربَّ كلِّ شيء، فالقَ الحبِّ والنوى، مُنزِلَ التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرِّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اللهم اقضِ عنا الدَّين، وأغنِنا من الفقر»[1].

ما أعظم كلمات النبي ﷺ!



وهي تبث الروح في نفوس العباد فتحييها، وتبدِّد اليأس في قلوب اليائسين وترويها، وتأخذ بيد العبد ليتجاوز بإيمانه حدود الزمان والمكان، وهو يستشعر أن الدنيا كلها في قبضة الله وحده، وأنَّ حقير الأمور وعظيمها لا يعزُب عن علمه سبحانه، ولا يفلت من سلطانه، فيقوى إيمانه، وترجح كفته، ويتخلَّص من أحزان ألقاها إلى قلبه الشيطان وتطاول الطغيان، وينتصر بإذن الله.

(١) تفسير التستري ١/ ٧٦.



وَمَن يتوكل على الله فهو حَسّبُه



جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، لكنه جعل جزاء التوكل عليه كفايته لعبده، فقال:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾

ولم يقل نؤتِه كذا وكذا من الأجر، بل جعل نفسه سبحانه كافي من توكل عليه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربُّه من بين ذلك فرجًا ومخرجًا.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ جاء في موضع تعليل جُملة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله به حين ترون أسباب النصر مفقودة، فإنَّ الله إذا وعد فقد أراد، وإذا أراد أمرا يسَّر له أسبابه، وذلك من حيث لا يحتسب الناس، فتصاريف الله خفية عجيبة، ولذلك كان قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، ومعناه واصلٌ إلى مُرادِه، والبلوغ مجازٌ مشهور في إدراك الغاية.



لكن ما هو التوكل؟!

معنى التوكل من حيث اللغة قاله **الغزالي** رحمه الله:

«التوكُّل مشتقٌّ من الوكالة، يُقال: وكَّل أمره إلى فلان أى فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمَّى الموكول إليه وكيلا، ويسمَّى المفوِّض اليه متَّكِلا عليه ومتوكِّلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتَّهمه فيه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزا ولا قصورا،

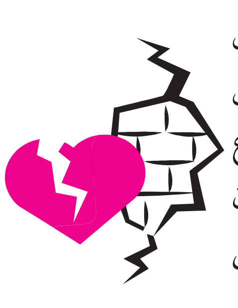


فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»[1].

أما من حيث المصطلح الإيماني فقاله **القرطبي** رحمه الله:

«**التوكل هو**: الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماضٍ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي في ما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو وإعداد»[2].

فالتوكل الحق يتمثَّل في الاعتماد على الحقِّ والتخلي عن الخلق، وقد كان لفضيلة الشيخ **الشعراوي** رحمه الله تشبيه جميل يقرِّب به معنى التوكل:



«وهب أنك سائر في الطريق، وفي جيبك جنيه واحد، وليس عندك غيره وضاع منك؛ هل تحزن؟ نعم سوف تحزن، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفا لضياع الجنيه، أما لو كان رصيدك في البنك ألف جنيه، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع منك، ومن له ربٌّ، وهو يبذل الجَهْد في الأخذ بالأسباب؛ سيجد الحل والفرج من أيِّ كرب مما هو فوق الأسباب».

وأما محله وموقعه في العبد فيشير إليه الإمام **القشيري** رحمه الله:

«اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب، بعدما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى، فإن تعسَّر شيءٌ فبتقديره، وإن تيسَّر شيء

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٩.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ١٨٤.



فبتيسيره»[1].

والتوكل درجة عالية من درجات الإيمان، وثمرة من ثمراته الزكية الشهية، فقد جعله **سعيد بن جبير** رحمه الله في مرتبة عليا:

«التوكل على الله جماع الإيمان»[2].

ومن العجب أن الدواب تعرِف إلى من تلجأ عند الحاجة، وبعض الناس لا يهتدي لمن يلتجئ، وقد قالها **حاتم الأصم** رحمه الله في موعظة موجعة وسوط من سياط حِكَمِه يضرب به قلوب الغافلين:

«الحمار يعرف طريق المعلف، والمنافق لا يعرف طريق السماء!»[3].

وله ثمرات كثيرة وبركات غزيرة، ومنها أنه يورث القلب الشجاعة والقوة، لكن التوكل ليس كلمات تلوكها الألسنة ثم يكذِّبها العمل، بل الفارق شاسع بين الحقيقة والادعاء كما قال **ابن القيم** رحمه الله:



«فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء آخر، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء آخر، فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مُصِرٌّ على معصيته مُرتكبٌ لها»[4].

(١) الرسالة القشيرية ١/ ٢٩٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٧.
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٤٧.
(٤) الفوائد ١/ ٨٧.



ووافقه **الفضيل بن عياض** رحمه الله حتى اتهم نفسه وعاتبها في قوله:

«إني لأستحي من الله أن أقول: توكَّلتُ على الله، ولو توكلت عليه حقَّ التوكل ما خفت ولا رجوت غيره»[1].



أركان التوكل الثلاثة!

ما أركان التوكل؟!

الأول: أن تعرف ربك حق المعرفة:

أن توقن بعلم الله وقدرته ورحمته ومحبته، فالمتوكل واثقٌ أن مقادير كل شيء بيد الله، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه يحب من أحبه، وأن رحمته سبقت غضبه، وهذه رحمته بالمسيء، فكيف بالمحسن؟!

وكلما زادت معرفتك بربك زِدْتَ به ثقة وعليه توكلاً، فمن أهمِّ لوازم التوكل معرفة الله، ومَن جهِل ربه لم يصحَّ له التوكل عليه.

الثاني: أن تأخذ بالأسباب:

مرَّ الإمام **الشَّعْبي** رحمه الله بإبل قد فشا فيها الجرب، فقال لصاحبها:

أما تداوي إبلك؟! فقال: إن لنا عجوز نتكل على دعائها.

(١) العقد الفريد ٣/ ١٢٧.



فقال: «اجعل مع دعائها شيئًا من القطران»[1].

فالأخذ بالأسباب فريضة، ودونه لا يبلغ العبد مراده، ولا يوفِّق الله عباده، فاحذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان، فيزيِّن لك التواني في الأخذ بالأسباب، ويورثك الكسل بإحالتك على القَدَر، فإن الله أمرك بالتوكل عليه مع انقطاع الحِيَل، والتسليمِ للقضاء بعد كل الأعذار، والشاعر يقول:

والمرء تلقاه مِضْياعا لفُرْصِته حتّى إذا فات أمرٌ عاتَب القَدَرا

وقد فهمها الفاروق رضي الله عنه فلما سأله أبو عبيدة رضي الله عنه حين كره عمر طاعون الشام، ورجع إلى المدينة: أتفرُّ من قدر الله؟!

فقال عمر بن الخطاب: نَعَم إلى قدر الله.

الثالث: أن تستسلم لإرادته:

إذا توكلت عليه، وأخذت بالأسباب، فالآن سلِّم الأمر لربك؛ إن شاء يَسَّر أمرك أو لا، يسمح أو لا يسمح، يجيبك أو لا يجيب، وأنت في كل الأحوال راضٍ عن الله، موقن أنه لا يقدر لك إلا الخير، فترك الأسباب قادح في العقل، والاعتماد عليها قادح في فهمك للشرع، والسلامة والوسط أن تجمع بين الأخذ بالأسباب بجوارحك مع كفر قلبك بها.

قيل لأبي محمد سهل التستري رحمه الله:

متى يصح للعبد التوكل؟

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٣٧ – الراغب الأصفهاني – دار الأرقم بن أبي الأرقم.



فقال:

«إذا علم أن تدبير مولاه له خير من تدبيره لنفسه، فإن نظر مولاه له أحسن من نظره لنفسه، فيترك التفكر فيما كان والتمني لما يكون، فيترك التدبير ولله عاقبة الأمور وهو على كل حال محمود شكور»(١).

وحين تعلم أن إرادة الله غالبة، تدرك أن القلة تنتصر إذا أراد الله لها أن تنتصر كما قال سبحانه:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وأن الكثرة تفشل وتنهزم حين ينزع الله توفيقه وتأييده لها كما قال ربنا عن خير أجناد الأرض بقيادة خير البرية محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾

[التوبة:٢٥]



ما تعجز عنه الأسباب مع حُسن التوكل تقوم بإتمامه الأقدار!

وشرط حُسن التوكل: اليأس من الخلق.

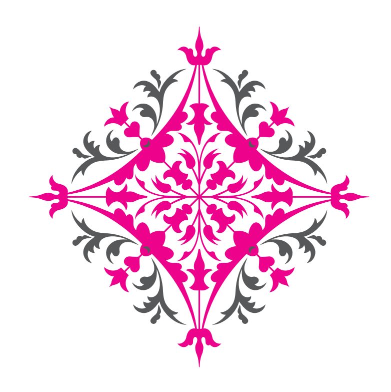
(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ٢/ ٦٢.



قيل **لأبي عبد الله أحمد بن حنبل** رحمه الله:

أيّ شيء صدق التوكل على الله؟ قال:

«أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيبه بشيء، فإذا كان كذلك كان الله يرزقه وكان متوكلا»[1].



(١) جامع العلوم والحكم/ ٥٧٠.



إِنه مَن يتق ويصبر فإن اللّٰه لا يضيع أُجرَ المُحسنين



هذه الآية هي خلاصة القصة وفذلكة[1] سورة **يوسف** ودرسها الأهم، وهي خلاصة المحن العظام التي اجتازها **يوسف** واحدة تلو الأخرى، ومعناها أن العبد لا يصل إلى مطلوبه وينال مراده إلا بالتقوى والصبر.



قال **المراغي** رحمه الله:

«أي إن الحق الذي نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو: من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه، فإن الله لا يضيع أجره في الدنيا ثم يؤتيه أجره في الآخرة»[2].

إخوتاه..

تلمحوا علو قدر **يعقوب** عليه السلام ببلائه، وعز **يوسف** عليه السلام في صبره وثباته، وليكن حظكم من هذه القصة:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقد جمعت هذه الآية العجيبة جميع مطلوبات الله من العبد، وجواز مروره إلى

---

(١) فذلكة: مجمل، حاصل، خلاصة (محيط المحيط)، ويُقال فذلك حسابه: أنهاه وفرغ منه.
(٢) تفسير المراغي ١٣/ ٣٥.



رضوان الله، قال الشَّيخ **أبو محمد عبد القادر الكيلاني** رحمه الله في كتابه (فتوح الغيب):

«لابد لكل مُؤمن من أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقَدَر يرضى به، فأقلُّ حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم هَمُّها قلبه، وليُحدِّث بها نفسه ويأخُذ بها الجوارِح في سائر أحواله»(١).

وقد شرح **ابن تيمية** رحمه الله كلام الشيخ **عبد القادر** واستحسنه بقوله:

«هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف ٩٠].

ولقوله تعالى:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولقوله تعالى:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور، فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصليين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله»(٢).

---

(١) جامع الرسائل ٢/ ٧٤ – ابن تيمية –دار العطاء – الرياض.
(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ٧٥.



التقوى أخت الصبر، وهما شرطا النصر، ففاقد أحد الشرطين محرومٌ من التوفيق الإلهي، وقد يصبر غير التقي فيقع في ما حرَّم الله، ويهدم ما بناه، فحذار أن تعصي ربك فتحرِم نفسك بنفسك، وتخنق فرصتك بيدك..

هذه أوقات حرجة وجولات حاسمة في حياة الأمة، وقد صار ضُحاها بالذنوب مظلما، فعجِّل انبلاج فجرها بالتوبة.

من لم يتب في هذا الأزمة فمتى؟!

ومن لم يجب نداء الله ويتَّقه في هذا الوقت فأنى؟!

ومن لم يتقو بالتقوى فعلى الشدائد والمحن لن يقوى.

لكن..

ما هي التقوى المطلوبة منك اليوم؟!

من أجمع وأجمل تعريفات التقوى أنها اجتناب ما يضُرُّ العبد وهو المعصية والمكروه، وفعل ما هو نافع وهو الواجب والمستحب، فعلى هذا تنقسم إلى فرض ونفل، فالفرض هو فِعل المأمور واجتناب المحظور، والنفل: فعل المندوب واجتناب المكروه، ؛ لأنَّ مُراد التقوى: وقاية العبد من النار، ولا تتم الوقاية بغير هذا.

ولها علامات وشروط. قال **شاه الكرماني** رحمه الله:

«علامة التقوى الورع، وعلامة الورع الوقوف عند الشُّبهات»[1].

(١) الزهد الكبير ١/ ٣١٦.





لا تضرب بيدك في المال قبل أن تتحرى حلاله من حرامه.

ولا تُقدِم على خطوة قبل أن تجول بقلبك في حِلِّها أو حُرمتها.

ولا تندلق الحروف من لسانك إلا إذا علمت أنك تُمليها على مَلَك الحسنات لا السيئات..

ومن علاماتها أن تحافظ عليها في أشد أوقاتك ضعفًا وعند اشتداد بأس عدوك وشيطانك، وهو شرط اشترطه **بكر بن عبد الله المزني** رحمه الله في كل تِقِي حين قال:

«لا يكون العبد تقيًا حتى يكون تقيَّ الطمع، تقيَّ الغضب»[(١)].

ولذا لما اغتاظت **عائشة** رضي الله عنها من خادم لها ثُمَّ رجعت إلى نفسها، فإنها قالت:

«لله دَرُّ التَّقوى! ما تَرَكَتْ لذي غيظٍ شفاء»[(٢)].

ومن علاماتها أن يجعل التقي بينه وبين الحرام سدودًا منيعة كما نقل **ابن المنير** رحمه الله في مناقب شيخه **القبّاري** رحمه الله أنه قال:

«المكروه عقبة بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرّق إلى الحرام، والمباح عقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرّق إلى المكروه»[(٣)].

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٤٧.
(٢) أدب الدنيا والدين ١/ ٢٥٢.
(٣) فتح الباري ١/ ١٢٧.



وجانب آخر خفي للتقوى يسلِّط عليه الضوء **ابن رجب** رحمه الله وهو يشرح قوله ﷺ:

«وخالِق الناس بخُلُق حسن»:

«هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما إفراده بالذكر الحاجة إلى بيانه، فإن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصَّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدا لا يقوى عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين»(١).

وأما الصبر ففي ظل قلة الأعوان أصعب لكن ثوابه أجزل ومقامه أرفع، ويكفيك أيها الصابر شرفا حديث **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه في زمان الصَّبر:

«إن من ورائكم زمان صبرٍ؛ للمتمسِّك فيه أجر خمسين شهيدًا منكم»(٢).

أجر خمسين شهيدًا من صحابة رسول الله ﷺ! فيا له من أجرٍ عظيم يغري الأبرار، ويدفعنا دفعا لنيل شرف الاصطبار!



من ثواب التقوى والصبر

ومن جزاء التقوى والصبر الذي كافأ الله به نبيه **يوسف** عليه السلام تلك الشهرة التي

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥٤.
(٢) صحيح: رواه الطبراني عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٣٤.



نالها؛ حتى أن سورة في القرآن نزلت باسمه، وصار كل مبتلى يتسلى بها ويستبشر، وهي شهرةٌ يفوز بها كلُّ متَّقٍ صابر، لتكون بعض ثوابه الدنيوي يستأنس به حتى يدرك الأخروي، ومن هؤلاء الأفذاذ الإمام **أحمد** رحمه الله.

قال **عبد الوهاب الوراق** رحمه الله متحدِّثًا عن مشهد من مشاهد علو ذكره وذلك في جنازته:

«ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية ولا الإسلام مثله -يعني: من شهد الجنازة- حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف، وحزرنا على القبور نحوا من ستين ألف امرأة، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب، ينادون من أراد الوضوء»[1].

وهو الذي كان يقول عن من حاربه وآذاه:

«قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»[2].

وصدق رحمه الله، فقد علَّق **الحافظ ابن كثير** رحمه الله على قولته هذه، وقارن بين جنازته وجنائز أعدائه فقال:

«وقد صدق الله قول **أحمد** في هذا، فإنه كان إمام السنة في زمانه، وعيون مخالفيه **أحمد بن أبي دؤاد** وهو قاضي قضاة الدنيا – لم يحتفل أحد بموته، ولم يلتفت إليه، ولما مات ما شيَّعه إلا قليل من أعوان السلطان.

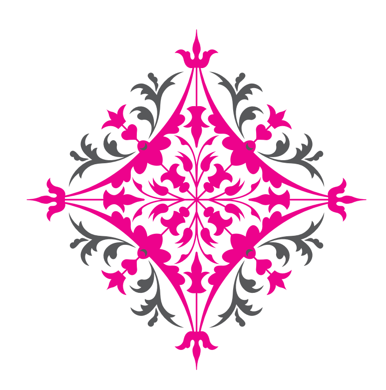
---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤٠.



وكذلك **الحارث بن أسد المحاسبي** رحمه الله، مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس.

وكذلك **بشر بن غياث المريسي** رحمه الله، لم يُصلِّ عليه إلا طائفة يسيرة جدًا، فلله الأمر من قبل ومن بعد»[١].



(١) التاريخ ١٠ / ٣٤٢.



وَيَرْزقه من حيث لا يحتسب



كان **ابن سيرين** رحمه الله يقول: «أنا لما لا أحتسب أرجى مني لما احتسبت، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾»[1].

أَي من جهة لا تخطر بِبَاله ولا تتخالج في آماله، والرزق إذا وصل العبد «من حيث لا يحتسب كان أهنأ وأمرأ كما أن الخبر السار إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرَّ، والشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغمَّ وأشرَّ، فالتقوى تصير رزقه من غير محتسبه، فبسقوط المحتسبية عن قلبه يعلم أنه مُتَّق»[2].

فاللهم إنا نسألك من فجأة الخير ما تُدهِش به عقولنا، ونعوذ بك من فجأة الشَّرّ التي توهن قلوبنا.

وهذا الرزق الرباني روحاني وجسماني، ولعل رزق العبد من الصبر واليقين والثبات أعظم من رزقه المالي والبدني، وهو ثمرة مباشرة من مباشرة التقوى، فاشغل نفسك بتحقيق التقوى عن طريق الاحتماء بطاعة الله من عقوبته، وصيانة النَّفس عما تستحق به العقوبة إذا فعلت ما نُهِيت عنه أو تركت ما أُمِرت به.

واسمع كيف آمن الفاروق رضي الله عنه بهذه الآية وجعلها أسلوب حياة، فقد قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **لعبد الله بن أرقم**:

اقْسِم بيت المال في كُلِّ شهر، لا بل في كُلِّ جُمعَة، فقال رجُلٌ -وهو **طلحة**-:

يا أمير المؤمنين، لو حبَسْتَ شيئًا بعده عسى أن يأْتيك أمرٌ يُحتاجُ إليه، فلو تركْتَ

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٣/ ٢٧٥.
(٢) فيض القدير ١/ ٧١.



عُدَّةً لنائبة إن نابت المسلمين.

فقال **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«كلمةٌ ألقاها الشَّيطان على لسانك، لَقَّنَني اللهُ حُجَّتها، ووقاني فِتنتها، لتكونَنَّ فتنةً لقومٍ بعدي، أعصي الله العام مخافة عام قابل؟!

بل أُعِدُّ لهم ما أعدَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾»[1].

ولعلَّ هذا ما جعل **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول للمتشكِّكين في الرزق ويخاطب المضطربين:

«فكرك في رزق غد يُكتَب عليكَ خطيئة»[2].

ولو لم يكن من ثمرات التقوى سوى هذه الثمرة لكفى بها والله، والرزق من حيث لا تحتسب بشارة لك بتطهير قلبك من الهموم والأكدار، فالمؤمن التقي يشهد أن الرزق بيد الرزاق، فقلبه مراقبٌ لما يصنع مولاه، وعينه ناظرة لما اختاره له سيده، فهذا يؤتى رزقه صفوا وعلى رزقه طابع الإيمان، ولذا بشَّر **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ المتقين بالكفاية والاستغناء فقال:

«اتق الله فما رأيت تقيًا محتاجًا»[3].

(١) حلية الأولياء ٧/ ٢٩١.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٩٨.
(٣) فيض القدير ١/ ٧١.



ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه



وعدٌ رباني لا يتخلف، ومن أوفى بعهده من الله، فمن آمن بالله هداه، وسكَّن روحه لما أصابه به وابتلاه.

وفي الآية ستة أقوال:

«**أحدها**: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه **علي بن أبي طلحة عن ابن عباس**. وقال **علقمة**: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيُسلِّم، ويرضى.

والثاني: يهْدِ قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قاله **مقاتل**.

والثالث: أنه إذا ابتُلِي صبر، وإذا أُنعِم عليه شكر، وإذا ظُلِم غفر، قاله **ابن السائب وابن قتيبة**.

والرابع: يَهْدِ قلبه، أي: يجعله مهتديا، قاله **الزجاج**.

والخامس: يَهْدِ وليَّه بالصبر والرضى، قاله **أبو بكر الورَّاق**.

والسادس: يَهدِ قلبه لاتباع السنة إِذا صحَّ إيمانه، قاله **أبو عثمان الحيري**»(١).

أخي المصاب..

كل متع الدنيا ولذائذها تُنسى فور عبورها، وكذلك الأحزان والآلام، لن تذكر منها شيئًا بعد مُضِيِّها، والرضا والتسليم سهلٌ قريب المنال لمن تأمَّل هذا المعنى، وهو ما نبَّهك له **أسامة بن مُنقِذ** فقال:

كلُّ مستقبلٍ من الهَمِّ　　　　يُـنـسَـى إِذا مـضـى

(١) زاد المسير ٤/ ٢٩٣.



والذي ســاءَ من زمـا	**نِكَ سهلٌ مــع الرَّضـا**
وأخــو الحــزمِ من إذا	**أعضــلَ الأمرُ فَوَّضـا**

فالحازم هو فوَّض الأمر لربه، ورأى أنَّ اختيار الله له أفضل من اختياره لنفسه، فأراح واستراح، ولذا ترادفت الأقوال حول معنى الرضا، فمن قائل:

هو ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

ومن قائل:

هو استقبال الأحكام بالفرح.

وثالث يقرِّر:

هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وللراضي عــلامة فارقة يميِّــز بها وصـوله لهذا المقام، فقد قيل **لعبد الواحد بن زيد** رحمه الله: متى يكون العبد راضيًا عن ربه؟

قال:

«إذا سرَّته المصيبة كما تسُرُّه النِّعمة»[1].

وهو رؤية المبتلي في البلاء، والمقدِّر في الأقدار، وهذا من أعظم ما يخفِّف ألم الابتلاء الذي قد يكون أصل الشفاء وأصل العطاء كما يقول **ابن عطاء** رحمه الله:

«ليخفِّف عنك ألم البلايا، علمك بأنه سبحانه وتعالى المبتلي لك، فالذي واجهتك

(١) المستطرف ١/ ٧٩.



منه الأقدار هو الذي له فيك حسن الاختيار»[1].

وهو إيمان بالقَدَر الذي مضى، والقضاء الذي جرى كما قال ربنا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

قال **الزمخشري** رحمه الله:

«أنكم إذا علمتم أنَّ كل شيء مقدر مكتوب عند الله قلَّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي، لأنَّ من علم أن ما عنده معقود لا محالة؛ لم يتفاقم جزعه عند فقده، لأنه وطَّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنَّ بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال: لم يعظم فرحه عند نيله»[2].

نعم..

في الإسلام يموت ابن العبد فيقول: آمنتُ بالله، وترحل زوجته فيسترجع: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويتهدَّم بيته فيردِّد: قدَّر الله وما شاء فعل، وتبور تجارته فيسِّلم ويرضى ويبدأ من جديد، وذلك لأن الله هدى قلبه، وزاده إيمانًا، فهو يحمل بين جوانحه عقيدة أقوى من الحديد، وإرادة تصهر الفولاذ.

وهي درجة لا يحـوزها إلا من أيقن بربـــه، فنظر إلى لطائف الغيب من خلال

(١) التنوير في إسقاط التدبير ص ٣١- ابن عطاء الله.
(٢) تفسير الزمخشري ٤/ ٤٧٩.



ستر رقيق.

ولذا رأى **عليُّ بن الحسين** في الرضا درجة إيمانية رفيعة شامخة قائلاً:

«الرِّضا بمكروه القضاء أرفعُ درجات اليقين»[1].

وهذا والله رزقٌ خفي، وثروة لا تُقدَّر بمال، وقليلٌ منا من يمتلك من البصيرة ما يكشِف به هذه الكنوز، ويقدِّر قيمة هذه النِّعم الخفية.

ولعلَّ من هؤلاء رجلٌ من البُسَطاء الذين لا نعرِف أسماءهم وهو واحدٌ من الأعراب أنشدنا مفتخِرًا، فتردَّد الصدى في أرجاء القلوب الراضية:

للناس مالٌ ولي مالان ما لهما ... إذا تحارس أهل المال حُرّاس
مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه ... ومالي اليأس ممّا يملك الناس

ولذا لا يفارق قلب الراضي الرِّضا ولو في قعر السجن، فهو يعلم أنه قد التحق بجامعة **يوسف** عليه السلام وقاطرة المصلحين التي سرعان ما ستنتهي به إلى الحُكم، وقد قال **البحتريُّ** يسلي **محمد بن يوسف** عن سجنه:

وما هذه الأيّام إلا منازل ... فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
وقد هذَّبتك الحادثات وإنما ... صفا الذهب الإبريز قبلك بالسَّبْك
أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوسا على الظُّلم والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة ... فآل به الصَّبْر الجميل إلى الملك

(١) عيون الأخبار ٢/ ٤٠٣.





الرضا عملٌ قلبي راجح!

في الحديث:

«ولو أنفقتَ مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، ولو مِتَّ على غير هذا لدخلتَ النار»[(١)].



وفي هذا إشارة إلى أن أعمال القلوب أهم وأثقل من أعمال الجوارح، فإنفاق آلاف الأثقال ذهبًا في سبيل الله مع مشقته لا يساوي عند الله ما يحويه قلبٌ من كنز اليقين، وما أرقَّها من لمسة حانية تضمِّد جراحك، وما أبردها من نَسْمة لطيفة تبرِّد حرارة مصابك حين يقول لك نبيك ﷺ:

«واعلم أن ما أصابك لم يكُن لِيُخطِئك».

لتكون تسلية لك عند حصول المكروه لتصبر، وأما قوله ﷺ:

«وما أخطأَك لم يَكُن لِيُصيبك».

فهي تسليةٌ لك عند فوات المحبوب لترضى.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه وابن حبان عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت وحذيفة وابن مسعود كما في شرح الطحاوية رقم: ٦٢٩.





يحمد الله على الْمُصِيبَة!

قال شُرَيْح القاضي رحمه الله مفشيًا سر حصوله على كنز الرضا، ومُهدِيًا لنا ثمرة تأملاته وكنز إيمانياته:

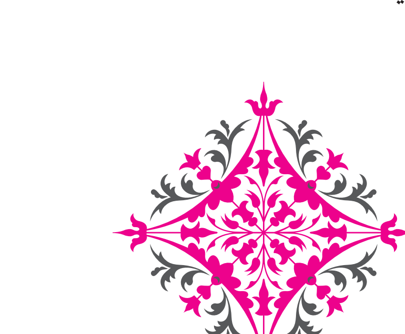
«إنِّي لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عز وجل عليها أربع مَرَّات:

أحمده إذْ لم تكن أعظم مِمَّا هِيَ،

وأحمده إِذْ رَزَقَنِي الصَّبْر عَلَيْهَا،

وأحمده إِذْ وفقني للاسترجاع لما أَرْجُو فِيهِ من الثَّوَاب،

وأحمده إِذْ لم يَجْعَلهَا فِي ديني»[1].



(١) تسلية أهل المصائب ١/ ١٧.



قُل لن يُصيبنا إلا مَا كَتبَ الله لنا



أي قُلْ أيها الرسول لأولئك المنافقين الشامتين في مصاب المؤمنين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله ﴿لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ من خير أو شر، فالقلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، رُفِعتْ الأقلام وجفَّت الصُّحف، فلا يقدر أحدٌ أن يدفع عن نفسه مكروها أو يجلب لنفسه نفعا ما لم يُقدَّر له، وهذا هو الاحتجاجٌ بالقَدَر في موضعه الصحيح؛ لأنَّ القدر يُحتجُّ به في المصائب، ولا يُحتجُّ به في الذنوب والمعائب.

وعندما نتأمل قول الله: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾

أي أن المسألة في صالحنا وبما فيه نفعنا وخيرنا، ولم يقل الحق: كتب الله علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها عقوبة لا مثوبة.

وأي كدَر يصيب المؤمن، فعليه أن يسائل فيه نفسه:

أعدلاً كان أم ظلمًا؟

فإن كانت عدلاً فقد جبرت الذنب ورحمتك من عقوبته الأخروية، وإن كانت ظلمًا فسوف يقتص الله له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن رابح في كلتا الحالتين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

قال **القشيري** رحمه الله:

«المؤمن لا تلحقه شماتة عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مراد وليِّه، فهو يتحقق أنَّ ما يناله مراد مولاه فيسقط عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروح رضاه، فيَعْذُب عنده ما كان يصعب من بلواه، وفي معناه أنشدوا:

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا ... **فما لجُرحٍ -إذا أرضاكمُ- ألمُ**



ويقول رحمه الله:

شهود جريان التقدير يخفِّف على العبد تعبَ كلِّ عسيرٍ»[1].

وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾:

إعلامٌ للعبد أن الله سبحانه يفعل ما يشاء في مُلكِه، ويتصرَّف فيه بحسب ما يرى.

والمولى كذلك هو من يتولى أمورنا، ويصرِّف الأمور على وفق ما فيه مصلحتنا الدنيوية والأخروية، ولا يرضى أن يلحق بمن والاه الخزي والضرر، بل يدفع عنه ويحارب:

«من عادى لي وليًا فقد آذَنتُه بالحرب».

فكن على ثقة أن ما كُتِب لك هو الخير العاجل أو الآجل.. الظاهر أو الخفي، فكيف يسوؤك بعدها ما يبتليك الله به من المصائب والأقدار؟!

ولذا يكون حال هذا العبد هو سكون السِّر عند حلول الأمر، ويتساوى عنده الحُلو والمُر، والنعمة والمحنة.

وحين يفرح عدوك بما ينالك من أذى، ثم يفاجأ بعدم اكتراثك بالمصيبة وانتفاء حزنك يكون ذلك بمثابة ضربة قاصمة له، فإذا عَلِم أنك لا تحزن لما أصابك زال فرحه وشماتته، وانقلب إلى حسرات وتقلب على جمرات الغيظ.

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٣٣، ٣٤.



وفي الآية تعليمٌ للأمة بأسرها أن تتخلق بهذا الخُلُق، وهو أن لا يحزنوا لما أصابهم في سبيل الله، وأن يرضوا بما قدَّر الله لهم، ويرجوا رضا ربهم لأنهم واثقون بأنه لا يريد بهم إلا الخير، وهذا ما يورث المؤمنين قمة السكينة والصحة النفسية، ولعلَّ أبلغ ما يوصف به هؤلاء هو ما وعدهم ربهم به:

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

قال **أبو منصور الثعالبي** رحمه الله في تعليقه على بلاغة هذه الآية مسلِّطًا الضوء على أرباح المؤمنين:

«فقد أدرج فيه ذكر إقبال كل محبوب عليهم، وزوال كل مكروه عنهم.

ولا شيء أضر بالإنسان من الحزن والخوف، لأن «الحزن» يتولّد من مكروه ماض أو حاضر، و «الخوف» يتولد من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه، بل يتبرم بحياته.

والحزن والخوف أقوى أسباب مرض النفس، كما أن السرور والأمن أقوى أسباب صحتها!

فالحزن والخوف موضوعان بإزاء كل محنة وبليَّة!

والسرور والأمن موضوعان بإزاء كل صحة ونعمة هنيَّة!»[(١)].

(١) الإعجاز والإيجاز ١/ ١٥، ١٦ - أبو منصور الثعالبي - مكتبة القرآن.



وفي الآية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من البلاغة ما فيها..

فلا خوفٌ عليهم أي ليس عليهم خطرٌ فيما يستقبلهم من المخاوف والأهوال.

والقضية ليست في أن تخاف أو لا تخاف؛ المهم أن لا يكون عليك خطر في ما أنت مُقبِل عليه، فقد تكون خائفًا من شيء لا خطر فيه، وقد تكون غير خائف من أمر تكتنفه المخاطر كالطفل لا يخاف الكهرباء مثلا لجهله أنها تؤدي لقتله، وكالمجترئ على ربه الذي لا يخاف الآخرة مع ما ينتظره فيها من العذاب الشديد.

وفى تعدية الخوف بحرف الجرِّ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أن الخوف إنما يكون من المستقبل، ويكون المعنى: لا خوف مقبلٌ عليهم.

ويقال: صفة الولي أن لا يكون له خوف، لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف، والولي ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئا.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

نفى عنهم الحزن وأثبته لغيرهم، وهي فائدة التقديم، فإنك إن قلت: ما أنا فعلت هذا، فكأنك تشير بذلك إلى أنَّ غيرك فعله، فالذي يحزن هنا هو غيرهم من الكفار والفُسّاق وضعاف الإيمان.

وهنا رسالة:

إن انفراج أي زمة ليس في انقضائها، بل في انقضاء الألم الذي تخلّفه في نفوس أبنائها، فقد تستمر البلوى مع ارتفاع الهم والحزن، وعندها لا تعود تؤثِّر في قلب



العبد.

ومن الناس من قويت بصائر قلوبهم بحيث لا تنال منهم المصائب والبلايا، فهؤلاء هم أهل السعادة لأنها تنبع من قلوبهم، وإن أحاطت بهم من الخارج كل أسباب الشقاء.



المانع المُعطي!

ويزيد في طمأنينتك أن توقن أن أمرك بيد الله وحده، ونفعك وضرك لا يتجاوز إرادته، وهو سبحانه إذا أراد شيئًا فلا يُعجِزه شيء، ولو اجتمعت الدنيا بأسرها على أن تمنع عنك عطاءه لك فهيهات، ولو اجتمعوا على أن يمسوا شعرة منك دون إذنه فمحال، ولذا صار تذكيرك عقب كل صلاة بهذا المعنى سُنَّة نبوية وذِكرًا ثابتًا تحافظ عليه خمس مرات في اليوم والليلة، وإليك الحديث:

كتب **معاوية** إلى **المغيرة بن شعبة**:

أيَّ شيء كان رسول الله ﷺ يقول إذا سلَّم من الصلاة؟!

فأملاها **المغيرة** عليه، وكتب إلى **معاوية**: كان رسول الله ﷺ يقول:

«لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[1].

(١) صحيح البخاري رقم ٨٤٤، وأخرجه مسلم في باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته رقم: ٥٩٣.





ذبح الخوف بسكين الوحي!

إن الطمأنينة والشجاعة والإقدام، وتطليق الخوف، وذبح المطامع، كلها منازل محتكرة على من وثق في وعد ربه، وآمن بسُنَنِه وحِكَمَه، ورضي بقضائه وقدَره، وتخلَّص من مرض الخوف الذي إذا استشرى أفقد العبد إيمانه، وأهلك دينه، وقد رأينا اليوم في من حولنا من علماء السلاطين مَن باعوا دينهم بدنيا غيرهم، وهدموا دين الناس بزلاتهم، وذلك حين مهَّدوا للطغاة الطريق إلى الحكم بالحديد والنار بفتاوى العار.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «وأما الآن فقد قيَّدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم، فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا.

ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه.

ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟!»[1].

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧.



وعَسى أن تَكرَهوا شيئاً
وهُو خَيرٌ لكُم



قال **إسحاق العابد** رحمه الله:

«رُبما امتحن الله العبد بمحنة يُخلِّصُه بها من الهلكة، فتكون تلك المحنة أجلَّ نعمة»[1].



وما تكرهه قد يحوي في باطنه الخير لأنه منبع من منابع الأجر ومستودع للثواب، وبهذا كتب مُحَمَّد بن الحنفية إلى **عبد الله بن عبَّاس** رضي الله عنه:

«ولو لم تُؤجر إِلَّا في ما تحب لقلَّ الْأجر»[2].

وعسى عند العامة هي توهُّم وشك، لكنها عنـد الله تبارك وتعالى يقين وحق، ولهذا قال الشاعر:

قد يُنعِم الله بالبلـوى وإن عظُمت ... ويبتلي الله بعـض القـوم بالنِّعم

وهذه الخيرية هي خيرية دنيوية كذلك، فقد تكره المصائب الواقعة والبلايا الحادثة، لكن رُبَّ أمرٍ تكرهه وفيه نجاتك، ورُبَّ أمرٍ تحبه وفيه ضررك، وهذا مُشاهَد في حياتك، فتجاربك الشخصية أقوى من أي رأي.

خـذ ما تـراهُ، ودع شيئـًا سمعتَ به ... في طلعةِ البدرِ ما يغنيـكَ عن زحل

ولذا أنشد **أبو سعيد الضرير**:

رُبَّ أمـر تتقيـه جرَّ أمرا ترتضيه ... خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

(١) الفرج بعد الشدة ١/ ١٦١.
(٢) نثر الدر في المحاضرات ١/ ٢٨٢ – منصور بن الحسين الرازي – ط دار الكتب العلمية.



وهذا الخير لا يراه الكثيرون لاحتجابهم بهوى النفس للعاجل وحبهم للظاهر، وأما صاحب البصيرة فلذة الإيمان الغامرة تجعله يحتقِر الشدة العابرة حين يقيسها إلى الخير الدائم واللذات الأبدية، ومن عرف أن فعل الحبيب به حبيب، وأن من ابتلاه هو طبيب رحيم يستخرج بالوقائع النازلة أدواءه، فهذا يمتلئ قلبه سكينة وأمنًا.

لعلَّ عُتْبَكَ محمودٌ عواقبُه   وربما صحَّتِ الأجسادُ بالعللِ

فرُبَّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مسرورٍ بنِعمة هي داؤه، ومرحوم من داءٍ هو شفاؤه.

كم فرحةٍ مطوية   لك بين أثناء النوائب
ومسرَّةٍ قد أقبلت   من حيث تنتظر المصائب

تأخر صاحب لي عن حافلة، فرجع إلى بيته متحسِّرا، وفي المساء جاء خبر حادث مات فيه كل من ركب هذه الحافلة!

وقد يأسف المرء من فوت ما   لعَلَّ السلامة من فوته

ولذا أوصاك **وداعة السهمي** بالصبر على البلايا وعدم استعجال الرخاء مبشِّرا لك بحسن العاقبة قائلاً:

«اصبر على الشَّر إِن قدحك، فرُبَّما أجلى عمَّا يُفرِحك، وتحت الرَّغوة اللَّبن الصَّرِيح»[1].

---

(١) الرخاء بعد الشدة ١/ ١٥٨.



أخي المصاب..

خفي عن موسى ﷺ حكمة أفعال الخِضر، وكذلك يخفى على العوام ما يفعله الملوك، ولذلك خاطب **المتنبي سيف الدولة** قائلاً:

يـدقُّ على الأفكار ما أنت فاعلٌ فيترك ما يخفي ويُؤخَذ ما بدا

فالمتنبي يقول: «دقَّ على الأفكار حقائق سياستك، وتقصر عن سعة إحاطتك، فيأخذ الناس ظاهر ذلك مرتضين بك، ويُعرضون عما خفي عنهم منه مسلِّمين لك»[1].

وهذا قول بشر في بشر، فما ظنك برب البشر؟! وهو العليم الرحيم اللطيف الخبير؟!

لذا كان عبادة العقل التسليم، وعبادة القلب الرضا.

أنشد **أبو سعيد الضرير**:

رُبَّ أمـرٍ تتَّقيـه جَرَّ أمـرا ترتضيه

خَفِيَ المحبوب مِنْه وبـدا المكروه فيـه



فالضربة التي لا تميتك تقوّي ظهرك، والمحنة التي أعيت تنقي صفوف المؤمنين من أصحاب المصالح والمنتفعين، والفشل تهيئة لازمة وتدريبٌ ضروري على النجاح المنتظر، فارجُ الخير في موضع الشَّرّ، فرُبَّ حياة سبَّبها طلب الموت، وأكثر ما يأتي الأمن من ناحية الخوف.

(١) شَرح شِعْر المُتنبي ٢/ ٢٠٢ - ط أبو القاسم ابن الإفليلي - مؤسسة الرسالة ببيروت.



وخذ مثالاً لهذا الخير في باطن الشر، وذلك في واقعة الإفك التي اتُّهِمت فيها أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ **عائشة** بأبشع تهمة يمكُن أن تنال امرأة، فأي خير في هذا؟!

قال **المراغي** رحمه الله:

«﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لا تظنوا أن فيه فتنة وشرًا، بل هو خيرٌ لكم، لاكتسابكم به الثواب العظيم، لأنه كان بلاءًا مبينًا ومحنة ظاهرة، وإظهار كرامتكم على الله بإنزال قرآن يُتلى مدى الدهر في براءتكم وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيرًا، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية والآداب التي لا تخفى على من تأمَّلها»[1].



عطاء ابن عطاء!

ولنا هنا جولة في حكم **ابن عطاء** تشرح لنا هذا المعنى. يقول **ابن عطاء** رحمه الله:

«ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.. متى فتح لك باب الفهم في المنع؛ عاد المنع عين العطاء».

ويقول:

«ربما أعطاك فأشهدك بِرَّه، وربما مَنَعك فأشْهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرِّفٌ إليك، ومقبِلٌ بجميل فضله عليك».

(١) تفسير المراغي ١٨/ ٨٣.

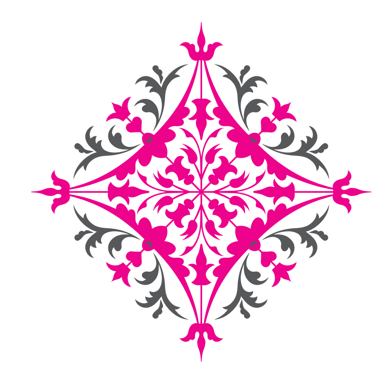


ويقول:

«البشر يمنعونك بخلاً أو أنانية أو جهلاً بما يصلحك ظنًا أن المنع في صالحك وهو غير ذلك، ولكن الله لا يمنع إلا ليعطي، فالظاهر حرمان والباطن منٌّ وإحسان».

ويقول مشيرًا إلى أن الجاهل هو من أراد أن يحدث غير ما أراده الله:

«ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله».





وما النصر إلا من عند الله



قضى الله أن النصر ليس بقلة العدد ولا كثرته، ولكنه من لدن عزيز حكيم..

وانظر في الآية التي قبلها:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾.

أي وما وعدكم الله في بدر من إمداده إياكم بالملائكة إلا بشرى يبشِّركم بها ولتطمئن قلوبكم به، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدوكم وعتاده، وقلة عددكم ومئونتكم

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (١٢٢)

يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قِبَل المدد الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكلوا، وبه استعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نصركم من عند الله وحده لا من عند غيره.

لكن..
ما مراد الآية؟

مراد الله أن لا يركن المؤمنون إلى الأسباب، وأعلمهم أن الملائكة وإن حضروا وقاتلوا، ليستعينوا به ويتوكلوا عليه، والإمداد بالملائكة مجرد بُشرى، وطمأنة لقلوبهم، لما هو مغروس في طبائع البشر من الضعف، فأما حقيقة النصر فهو من عند الله وحده، وهو تخليصٌ لقلوب العباد من التعلق بغير الله، ولهذا قال **ابن زيد**:

«لو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعَل»[1].

(١) الطبري ٧/ ١٩١.



وهذا علَّمنا النبي ﷺ الاستعانة بالله وحده خاصة عند الشدائد واحتدام القتال حيث.. «**كان إذا غزا قال: اللهم أنت عَضُدي وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**»[١].

«**عضُدي**» أي معتمدي فلا أعتمد على غيرك، و«**نصيري**» أي معيني ومغيثي وهو عطف تفسيري على «**عضُدي**»، و«**بك أحول**» أي: أصرف كيد العدو وأحتال لدفع مكرهم واستئصالهم، أو أتحرك وأتحول من حال إلى حال، أو أفرِّق بين الحق والباطل من حال بين الشيئين إذا منع أحدهما عن الآخر، «**وبك أصول**» أي: أحمل على العدو حتى أغلبه وأستأصله، ومنه الصولة، وتلحظ تكرار قوله «**بك**» تأكيدًا على توحيد الاستعانة بالله وحده والتبرؤ مما سواه أي بحولك وحدك، وقوتك وحدك، وعونك وحدك، ونصرتك وحدك.

قال **البيضاوي** رحمه الله مبيِّنًا قيمة الأسباب وقدرها الحقيقي في تحقيق الأهداف:

«فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، فحكم الأزل جلَّ أن يُضَافَ إلى العِلَلِ»[٢].

إن الله عزيز حكيم: عزيز لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، فالنجاة من البلاء أسهل شيء عليه، ومواد الإمداد مرهونة بين يديه، والدعوات لديه مسموعة، والإجابة غير ممنوعة، لكنه حكيم في تدبيره، ونصرة من نصر، وخذلان من خذل، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٥٧.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣/ ٥٢ - البيضاوي - دار إحياء التراث العربي.



وما دام أن النصر من عند الله، فإياكم أن تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم، فلله جنودٌ لا يعلمها إلا هو، ونصركم إذا فُزْتم بمعية ربكم يأتيكم من حيث لا تحتسبون وبأهْون الأسباب، ومن هذه الأسباب:

- أن يُريكم أعداءكم قليلاً، ويُكثِّركم في عيونهم ليفُتَّ ذلك في عَضُدهم ويُرهبهم.
- ومنها أن يحدث العكس، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم، ثم تفجؤهم الحقيقة وتنالهم الهزيمة.
- ومنها أن أن يُلقي الرعب في قلوب الأعداء، فيفرون ويتخبطون.
- ومنها أن يسخِّر من الأسباب الربانية والأحوال ما يساند به عباده وأولياءه كالريح والمطر وجنوده من الإنس والجن.

وأما إذا استعنا بغير الله وركنّا إليه، فقد استجلبنا أسباب الهزيمة وتسببنا في النكاية بنا، وقد كتب **الحسن البصري** إلى **عمر بن عبد العزيز** رحمه الله:

«لا تستعِن بغير الله فيكلك الله إليه»[1].

ولذا قال **ابن القيم** رحمه الله:

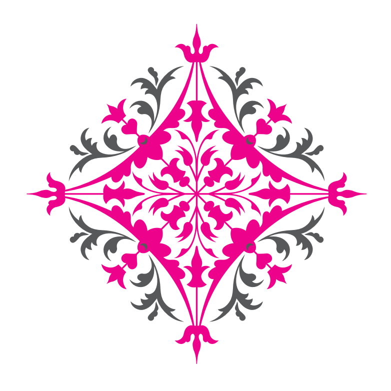
«فأعظم الناس خذلانا من تعلَّق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو مُعَرَّض للزوال والفوات، ومَثَل المتعلِّق بغير الله كمَثَل المستظِل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وأوهن البيوت»[2].

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٨٢.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.



وقال رحمه الله:

«إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل»[1].



(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.



قُل لا يستَوي الخبيثُ والطيبُ
ولو أعجَبَكَ كثرة الخبيث



هذه الآية تُعالج نفسية المؤمن وهو يرى كثرة جند الباطل من حوله، ويشعر بغربةٍ في الميدان، وأنه يسبح عكس التيار، وأن التيار يجرف جموع الغافلين في مسار الباطل، فإن لم يكن ففي مسار السكوت عن الباطل، وحينها تهب على قلبك نسائم هذه الآية:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

لتنتشِلك من هذه الأزمة، وتصيغ نفسيتك من جديد صياغة تكفل سكينتك وطمأنينتك، فالآية تقول:

قل أيها الرسول مخاطبًا أمتك مُعلِّما لها:

لا يستوى الرديء والجيد من الأعمال والأموال والأشخاص، فلا يستوى الضار والنافع، ولا الفاسد والصالح، ولا الظالم والمظلوم، ولا الحرام والحلال، فلكل منهما حُكمه ومكانته، وأجره أو وِزره بحسب عمله الذي يجازيه الله به، وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة، ويضع كل شيء في موضعه الذي يستحقه، وفي الآية ترغيبٌ في صالح العمل ولو كان شاقًا، وحلال المال وإن كان قليلاً.

فالصدقة من حرام -وإن كانت أمثال الجبال- لا تصعد إلى الله تعالى، ولا توضع في خزائنه، أما الصدقة من حلالٍ -وإن كانت شقَّ تمرة- فهي تقع في كف الرحمن وتربو، حتى أن مثقال حبة من صدقةٍ حلال أرجح عند الله من أمثال الجبال من حرام.

وتحمل الآية معنى آخر، وهو أنَّ القليل من الحلال أكثر بركة ونفعا لصاحبه من كثير الحرام، منزوعِ البركة، عظيمِ الضَّرر دُنيا وآخرة.



والخُبْث يسري كذلك إلى الأشخاص والأفراد، فعبدٌ قريبٌ من الله خيرٌ من ملء الأرض من أقوام يحادون الله ورسوله، وقلةٌ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تدفع العذاب عن كثرة تنتهك محارم الله صباح مساء، ولا تعرف لله حقًا ولا تقيم له أمرًا.

وفقيرٌ لا يجد قوت يومه لا يؤبه له في مقياس الدنيا لكنه عامر القلب بالإيمان، فيزن مئات الرجال من رجال أصفار الميزان بمقياس الآخرة!

يقول **المراغي** رحمه الله مؤكِّدا هذا المعنى:

«فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثيرة من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوي البصيرة والرأي تأتي من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيرًا إلا بعد التساوي في الصفات الفاضلة»(١).

وخبث الأعمال كذلك واضح، فالظلم والإفساد في الأرض وإشاعة الفاحشة، وإن تستَّر أصحابها بالثياب الفاخرة والقصور المشيدة والمراكب الفارهة والأموال الطائلة، فكل هؤلاء خبَث وركام زائل ووقود نار ولو كانوا هم الأكثرين عددًا ومالاً وجاها.

(١) تفسير المراغي ٧/ ٣٩ - أحمد بن مصطفى المراغي - ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.



وقوله ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ﴾:

«الواو حالية للعطف على حال محذوفة، والتقدير: لا يستويان في كل حال ولو في هذه الحال، وهذا لاستقصاء الأحوال، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: ما استوى مع الطيب»(١).

والمراد:

أي لا تجعل أيها السامع الكثرة والقلة مقياسا للأفضلية، وإلا فتحت قلبك لكثرةٍ خبيثة من الناس.

وفتحت جوارحك للعمل الخبيث كتبرج النساء والتهاون بمحقِّرات الأعمال.

وفتحت يدك للمال الخبيث كأكل الربا والرشوة.

العبرة إذن بالجودة وليس بالقلة أو الكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والله يحذِّرنا من أن يستحوذ علينا الشيطان، فنغتر بكثرة المال الخبيث، وعلو جند الباطل وكثرته، وتآزر قوى الإفساد، فنستسلم ولا نقاومه، وننجرف مع التيار، وهذه الرسالة لن يستلمها إلا أصحاب العقول الراجحة.

ولذا قال ربنا:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

لكن لماذا خص أولي الألباب بالذكر؟!

(١) المجتبى من مشكل إعراب القرآن ص ٢٤٧ - أحمد بن محمد الخراط - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.



قال **المراغي** رحمه الله:

«وخصَّ أولى الألباب بالاعتبار لأنهم هم أهل الروية والبصر بعواقب الأمور التي ترشد إليها مقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، أما الأغرار الغافلون فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكّر، فلا يعتبرون بما يرون بأعينهم ولا بما يسمعون بآذانهم، كما يشاهد ويرى من حال كثير من الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة التي جمعت من الحرام، وحال الدول التي ذهب ريحها بخلوها من فضيلتى العلم والخلق وورثها من كانوا أقل منهم رجالاً ومالاً إذ كانوا أفضل منهم أخلاقًا وأعمالاً»[١].

والواقي الوحيد في هذا المضمار هو التقوى، وبها وحدها الفلاح والفوز بخيري الدنيا والآخرة، وتقوى الله تفرض عليك اجتناب الخبيث وإن كثر، والحِرْص على الطيِّب وإن قلَّ ونَدُر، وقد علَّمك نبيك ﷺ قيمة أن تكون في القلة المميزة والصفوة الرائعة، وكلما كان المعدن نادرا كلما غلا ثمنه وعزَّ قدره، والناس تضرب أكباد الإبل وتتغرب في سبيل تحصيل الثروة، وفي الحديث:

«طوبى للغرباء، أناسٌ صالحون في أناس سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم»[٢].

وفي رواية فيها ضعف:

«من يُبغِضُهم أكثر ممن يُحِبُّهم».

وما ضَرَّ هذه القلة أن الكثرة تعصيهم أو تُبغِضهم إذا كانوا بالصلاح مستمسكين،

(١) تفسير المراغي ٧/ ٣٩.
(٢) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٦٨.



ولربهم طائعين، وبالاستقامة قائمين.

ولذا سمع **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه رجلاً يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين» فقال:

«يا عبد الله وما الأقلون؟».

قال: سمعتُ الله يقول:

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر آيات أُخَر، فقال **عمر**:

«كل أحدٍ أفقهُ من عمر»(١).

لقد لمح **أبو الطيب المتنبي** أنه كلما علت مكانتك وارتقيت كلما انتميت لدائرة أضيق، فقال:

وحيدٌ من الخلانِ في كلِّ بلدةٍ　　　إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

ومن ثم حذَّر **الثوري** العلماء من كثرة الأتباع، وله في ذلك رأيًا بناه على قلة المهتدين وكثرة المخالفين، فقال رحمه الله:

«إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مُخلِّط لأنه لو نطق بالحق لأبغضوه»(٢).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ١/ ٢٩٧.
(٢) فيض القدير ٤/ ٢٧٤.





فهمٌ خاطئ للغُربة

والكثير من الناس لا يفهمون من أحاديث الغربة إلا أن الإسلام سيعود غريبا، وأن هذا يعذرُهم في القعود وترك العمل، ولا يفقهون أنها فرصة ثمينة لنيل أعلى الدرجات التي لا تتوافر في غيره من الأزمنة، فلا يطمعون في نيل شرف الغُربة.. وأن يكونوا من الذين يأمرون بالقسط من الناس، فيعصيهم من يعصيهم، ويطيعهم من يطيعهم.

ولأن الغربة تميز واصطفاء وقليلٌ من الناس من يقوم بحقها، ولذا كانوا هم الموعودين بطوبى، وطوبى في الدنيا هي الخير الكثير الطيب المبارك مصحوبا بالتوفيق والتسديد والتصبير والتثبيت، وفي الآخرة هي شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وغريبٌ أن لا ينال هذا الزمان منا إلا الذم والعيب، حتى صارت هذه الكلمة عذرا كبيرا لتقبل وتسويغ كل الأخطاء والمخالفات، والقعود عن أداء الواجبات.

إن ذم الزمان فيه نوع من التنصل من المسئولية، وكثيرون يرون أن لا مسئولية عليهم، ولا عبء على كواهلهم، وأنَّ الأوان أوان اعتزال الناس وهجرهم لأن الزمان فسد حتى قال قائلهم:

هذا الزمــان الذي كنا نُحــاذِره ... في قولِ كعب وفي قول ابن مسعود

دهرٌ به الحــق مردودٌ بأجمعــه ... والظلم والبغي فيه غيرُ مَــردود



إن دام هذا ولم يحدث لـــه غير   لم يبك ميت ولم يفـرح بمولـــد

إن ذم الزمان وعيبه كذلك يحمل بين طياته معنى تزكية النفس ومدحها، وكأنك تُخرِج نفسك من دائرة الاتهام التي طالت الجميع، وتخص ذاتك بفضيلةٍ ليست لغيرك، وهو منبت من منابت الكِبر والغرور.

وحين تلجأ إلى اتهام الناس وترى العيب فيهم لا فيك، فإنك تهوِّن بذلك من شأن أمة **محمد** ﷺ، وتُلقي بنفسك نحو التهلكة، ففي صحيح **مسلم** أن النبي ﷺ قال:

«إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم»(١).

قال **أبو إسحاق**: لا أدري، أهلكَهم بالنصب، أو أهلكُهم بالرفع، والرفع أشهر، ومعناه أشدهم هلاكًا، وذلك بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما استدرجه ذلك إلى الإعجاب بنفسه ورؤية أنه خير منهم، وأما رواية الفتح فمعناها أنه الذي تسبب في هلاكهم؛ لأنه قنَّطهم من رحمة الله تعالى، وجرَّهم إلى القعود وترك العمل.

وعيب الزمان تبريرٌ للفشل، فكلما عانى أحدهم عقبة في طريق الدعوة أو العلم أو الإصلاح، أو تعثَّر قليلاً أو فشل بعض الفشل أو كله، كان أسرع ما يمُرُّ بخاطره هو اتهام الظروف والأحوال وعيب الزمان، وهو لونٌ من الفرار في مواجهة النفس ومحاسبتها، أو تهرُّب من المراجعة والتصحيح، فتتبدَّد فرص الإصلاح والاستدراك في متاهات التبرير وشماعة الدفاع بدلاً من التحليل العلمي الموضوعي الكفيل بعدم تكرار الخطأ.

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم ٧١٢.



فأما الزَبدُ فيذهبُ جُفُاء وأما ما ينفع الناس فيَمكُث في الأرض



هذا مَثَل من الأمثال القرآنية التي بلغت ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث استكمال الوضوح وتوصيل المعنى المراد وتقريبه للأفهام، ولذا قال **ابن القيم** في إعلام الموقعين في قيمة هذا المثل الرائع:

«ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق»(١).

فهما في الحقيقة مثلان اثنان نعرض لهما بالتفصيل لنفهم مراد الله منهما:

المثل الأول مائي:

قال الله تعالى فيه:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾.

أنزل الله من السماء ماء فسال في الأودية، والوادي ينحصر بين جبلين، فإذا نزلت الأمطار انحدرت إلى أسفل، وجرت في هذه الأودية، والأودية هي محل الخِصب؛ لأن الطمي يتجمَّع فيها من الجبال مع ماء المطر، فيترسَّب تربةً خِصْبة تُنبِت أطيب الزروع.

ينزل المطر ليغسل التربة من الخبث والعناصر القذرة التي تطفو على السطح؛ وهي تطفو لأنها خفيفة الوزن، غير ثقيلة القدر، فهي غثاء، والغثاء من طبيعته أنه يعلو، لكن هل يظل كذلك؟ يُطمِئنُنا الحق أنه يحمي الحق ويُعليه قائلاً:

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١١٨ - ابن قيم الجوزية - ط دار الكتب العلمية - بيروت.





وكما يضمحل هذا الزبد فيصير جفاء لا ينتفع به ولا تُرجى بركته، فكذلك يضمحل الباطل ويتبدَّد، والجفاء في اللغة هو ما رمى به الوادي إلى جنباته فيُقال: أجْفَأَت القِدْر بزبدها إذا ألقت زبدها عنها، فلا تظن أن الزبد له فائدة، أو أنَّ ارتفاعه علو في القدر، بل هو صعود مؤقت إلى زوال، وإن لم تذهب آثار الزبد بحركة الماء المستمرة، فإنها ستتكسر حتما على حافتي المجرى أو صخور الشاطئ حين تصل إليه، وكذلك هي فورة الباطل حين يعلو في لحظة طارئة من غفلة أهل الحق.

وهذا تطهيرٌ لازم للحق عبر حركة دائمة دائبة، ولذا قال الله: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، أي أن الحق يبقى صافيًا ثابتًا، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة، وهو مثلٌ واقعي نراه في حياتنا، فالأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه كل يوم، لكنها لا تنتفع أبدا بالزبد!

وزبد المياه في هذا المثل يقابله على أرض الواقع: الزَّبد في القلب والزَّبد في الأرض..

فأما الزبد الذي في القلب فهو الشبهات والشهوات فيه، وهما مضمحلان تحت تأثير الوحي في القلب إذا استدعاه العبد والتجأ إليه، فالوحي باقٍ يمكث في أرض القلب لينتفع به المؤمن، ويثمر عملا صالحا كما ينبت الماء في الأرض عشبا وزرعا ونخلا وعنبا.

وأما الزبد الذي في الأرض فهو الباطل الذي يحارب الحق ويتصارع معه، وللباطل



جولة، وإن علا على الحق يوما، لكن الحق له العاقبة، ولأهله السيادة والظفر.

والمثل الثاني مَثَل ناري:

وذكر الله مثلا آخر وهو المثل الناري في قوله:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾.

فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تُخرِجُ ما فيها من خَبَث، وتفصله عن جوهر المعدن الذي يُنتَفَع به، ومن رأى الحدّاد ينفخ في كيره على قطع الحديد يرى جيدا كيف أن الخبث والمواد الغريبة تنفصل عنه أثناء الصهر، وعندما يُخرِج المعدن خبثه يصير صُلبًا قويًا، فالنار المُحرقة ليست شرًا بل فيها فائدة لا تتم إلا بها، وهي تنقية المعدن من شوائبه، فإذا أردت أن تصنع من الحديد درعًا قوية، فلابد لك من صهره بالنار ليزداد صلابة، ومِثلُه الذهب والفضة لا يكتسبان قيمتهما ولا يعلو ثمنهما إلا بنار الكير وحرارة الصَّهر والسبك!

والنار في هذا المثل يقابلها في الواقع وعلى الأرض: نار المجاهدة في القلب، ونار محنة المؤمن وابتلائه في الأرض كما قال الشَّيخ **محمَّد بن عبد القادر** رحمه الله:

يا بنيَّ! المصيبة ما جاءت لتُهلكَ، وإنَّما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، فالمصيبة كير العبد، فإمّا أن يخرج ذهبا أو خَبَثا كما قيل:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا فأَبْدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديد[1]

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٣/ ٣٠٥.



لكن لماذا هذا التمثيل الحسي؟

إن الحق كالماء، والحق كالنار، والماء يحمل الزبد الرابي بعيدًا عن مسام الأرض، والنار تخرج الزبد والخَبَث من المعادن، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة، والله سبحانه يقول:

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾.

واختار الله لفظ الضرب؛ لأنه يوحي باحتدام الصراع وهيجان التفاعل ليقرع به أذن السامع قرعا ينفذ إلى قلبه، وينتهي به إلى أعماق نفسه.

ومن العجيب أن يصوِّره الله بهذين المثلين المحسوسين المتناقضين وهما الماء والنار، ومهما اختلطت بالحق شوائب فلابد من تنقيته بالحركة الدائمة، وتمحيصه ليتم تخليصه مما اعتراه من باطل، لكن..

لماذا لا يُعلن الحق عن نفسه منفردًا في الساحة؟

ألم يكن الله قادرًا أن ينتقم من الكفار جملة واحدة وينتهي الأمر؟!

والجواب:

لقد أراد الله ذلك ليجعل الباطل جنديا من جنود الحق، ولو لم يُتعِب الباطل الناس أكانوا يتجهون صوب الحق؟

كلا؛ ولذلك كان لابد أن يأتي الباطل للناس ويُتعبهم بحثًا عن الحق.

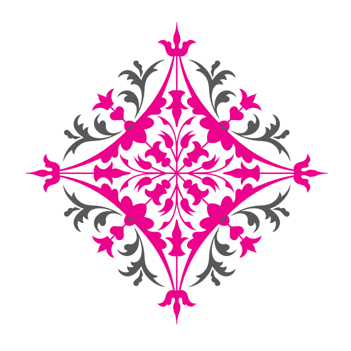
وضربوا لذلك مثلاً..



وهو أن الألم عند المريض جندٌ من جنود العافية، فلولاه لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض حتى يُهلكه، لكن الألم يلفت انتباه المريض إلى موضع الداء، ويدفعه للبحث عن الدواء للاستشفاء، وبذلك يبلغ ساحل العافية.

فالباطل إذن من جنود الحق كما الألم من جنود الشفاء؛ ويبتلي الله أهل الحق بأهل الباطل ليدمغ الباطلَ بالحق، وتهوي سافلة كلمة الباطل أمام كلمة الله العالية كما قال ربنا: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين، وسياقها بالجملة الفعلية يوحي بالتغير، وأنه علو طارئ لما يُشعِر به الجعل من الاضطراب، وأما كلمته سبحانه وتعالى فجاءت بالجملة الإسمية التي تُستَعمل في إثبات الحقائق الراسخة، لأن كلمة الله هي العليا دوما، والعلاء مصير كل من تمسَّك بها، والدنو والتسفل جزاء من هجرها أو عاداها، وإذا تصادمت الكلمتان وتصارعتا بطلت كلمة الذين كفروا، واستقر ثبوت كلمة الله في المعالي.





وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ



في حديث **خبَّاب** رضي الله عنه:

شَكَوْنَا إِلَى النبي ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدة له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا:

ألا تستنصِر لنا؟!

ألا تدعو لنا؟

فقال وقد أخبره عن ابتلاء السابقين بأشد مما ابتلوا به:

«والله ليُتمنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

وخلاصة الوصية النبوية:

لا تستعجلوا فإن من كان قبلكم قاسوا أشد مما لاقيتم، وأصعب مما قاسيتم لكنهم صبروا، وأخبرهم بذلك ليقوّي صبرهم على الأذى ويعينهم على طول الطريق، فليصبروا على أمر الدين كما صبر من سبقكم من المؤمنين بقوة اليقين، ولينتظروا الفرج من الله، فإن الله مُتِمٌّ هذا الأمر، ومُمكِّن سلطانَ هذا الدين بنصره وإظهاره على الدين كله، وتقوية شوكته وبسط نفوذه وتطبيق أحكامه، فينتشر الأمن والأمان في الأرض ببركة الإسلام، حتى يسير الراكب هذه المسافة البعيدة الموحشة آمنا مطمئنا لا يخشى لصا ولا قاطع طريق، وقد صار الأمر كما أقسم النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا يعني أن النبي ﷺ كان واثقًا من نصر الله بينما كان يرى أصحابه يبطحون في رمضاء مكة، ويعذَّبون أمام عينيه، ويُقتل منهم أحب الناس إلى قلبه، لكنه على ثقة من



وعد ربه له، وحتى حين لم يكن قد أسلم معه إلا أربعة: مولى، وشيخٌ، وصبيٌ، وامرأة!

ونحن والله أعجل من الصحابة لنزول نصر الله وحلول فرجه!

والاستعجال فطرة بشرية، فالنفس مولعة بحب العاجل؛ والإنسان عجول بطبعه، وجعلها الله من سجيته وجبلّته حتى جعل القرآن العَجَل كأنه المادة التي خُلِق منها الإنسان:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]

فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره، وضاق صدره، ناسيًا أنَّ لله في خلقه سننًا لا تتبدل، وأنَّ لكل أجل كتاب، وأنَّ الله لا يعجل بعجلة أحدنا، وأن لكل ثمرة أوان تنضج فيه فيحين قطافها، والاستعجال لا ينضجها قبل وقتها، والعجلة قال فيها **الراغب** رحمه الله:

«العجلة: طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه»[١].

وفصَّلها **أبو حاتم** العجلة حين قال:

«العَجَل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعدما يحمد، ويعزِم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم»[٢].

لا تعجلنَّ فربّما ... عجِل الفتى في ما يضُرّه
ولرُبّما كِرَه الفتى ... أمرا عواقبه تسرُّه

(١) التوقيف على مهمات التعاريف عالم الكتب ١/ ٢٣٦.
(٢) روضة العقلاء ص٢١٦.



وفي الآية ما يفيد أن الآدمي معذورٌ على الاستعجال لأنه له كالأمر الطبيعي الذي لابد منه، فلم رتب الله عليه النهي بقوله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟

والإجابة:

أن في هذا تنبيه على أن ترك العجلة حالة شريفة وخصلة عزيزة، وأولى الناس بها أصحاب الرسالات السامية والمهام العظيمة والآمال الشامخة، وقد ركَّب الله في الإنسان الشهوة وأمره أن يغلبها.

قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

أي إن نقمتي ستصيبكم لا محالة، فلا تتعجلوا عذابي، واصبروا حتى يأتي وعد الله الذي لا يُخلِف الميعاد.



نوعا الاستعجال

١ - استعجال النتائج:

نوح عليه السلام دعا ألف سنة إلا خمسين عامًا ولم يستجب له إلا قلة قليلة، فإذا لم ير الداعية نتيجة عمله وأمره ونهيه فربما استحسر وترك العمل، مع أنه يعمل لوجه الله، ولا يريد من الناس جزاء ولا شكورا، لذا فعليه ألا يستعجل، وليربط قلبه بأجر الله ومثوبته، وأما النتائج الدنيوية فإن لم تأت اليوم أتت غدًا، وإذا ما جاءت على يديك فستأتي على يد غيرك.



٢ - استعجال خطوات الإصلاح:

الصورة الثانية من الاستعجال أن بعض الناس قد يتعجل في الخطوات في ميادين الإصلاح، وربما تسبب هذا التعجل في قطع الطريق على الإصلاح، وأفسد من حيث أراد أن يصلح، وهذه الطريقة تؤدي إلى كثرة العداوات والخصومات، ويستفز الناس فيقفون ضده، وبالتالي لا يستطيع أن يواصل طريقه.

واسمعوا الإمام **البنا** يخاطب إخوانه قائلاً:

«أيها الإخوان المسلمون!

وبخاصة المتحمّسون المتعجِّلون منكم، اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع:

إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده، ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم للوصول.

أجل قد تكون طريقًا طويلة ولكن ليس هناك غيرها.

إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال، وخيرٌ له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.



أيها الإخوان المسلمون:

أجموا نزوات العواطف بنظرات العقول.

وأنيروا أشعّة العقول بلهيب العواطف، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلّابة.

ولكن غالبوها واستخدموها وحوِّلوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض.

وترقّبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد».



ولكن..

كم مضى على اليهود وهم مشردون مضطهدون في ربوع الدنيا؟

قرونٌ طويلة وهم أقليات مطاردة مشرَّدة في كل بلاد العالم، لكن هل دام بهم هذا الحال؟!

كلا.. بل صار لليهود اليوم دولة في مصاف الدول المتقدِّمة، ولهم أقوى نفوذ في الغرب وأمريكا، وكلمتهم اليوم مسموعة مطاعة، ولهم قوة ناعمة تتجاوز أبعد الحدود، مع أنهم ملايين خمسة ليس غير، لكن هل سيدوم هذا الحال؟!



كلا.. والله بل قوتهم إلى زوال، وتوقعات زوال دولة إسرائيل خلال عقد أو عقدين من الزمان على الأكثر متواترة عبر استقراءات قرآنية ونبوءات تلمودية وبحوث استراتيجية، ومع هذا كله البشارات النبوية، ففي حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه:

«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم.. هذا يهودي ورائي فاقتله»(١).

ولا نرجم بالغيب بعد كلام الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ولا نشك مقدار لحظة في الوحي، وقد قال **عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب** عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وَاللهِ مَا كَذَبْنَا وَلَا كُذِبْنَا»..

ونحن نردِّد من ورائهم هذا القول، واثقين في وعد النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى.



تأخر النصر.. لماذا؟!

يقول **سيد قطب** رحمه الله تعالى كلامًا رائعًا عجيبا في أسباب تأخير النصر أو بطئه:

«والنصر قد يبطىء

على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٤١٤.



هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطئ النصر

لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا!

وقد يبطئ النصر

حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزا ولا غالبا، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر

حتى تجرِّب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر

لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.



وقد يبطئ النصر

لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه،أو تقاتل حمية لذاتها،أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه.

كما قد يبطئ النصر

لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خيرتذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر

لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله; فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه منذي بقية!

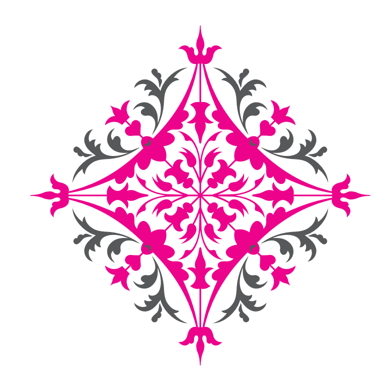
وقد يبطئ النصر

لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها



معها قرار، فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام.. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية»[1].



(١) في ظلال القرآن تفسير سورة الحج ص ٢٤٢٦، ٢٤٢٧.



إنّا لله وإنا إليهِ راجعون



قال سبحانه وتعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

قال **شمس الدين المنبجي** رحمه الله:



«وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ ملجأً وملاذًا لذوي المصائب، وعظمةً للممتحنين من الشيطان، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيِّج ما سكن، ويُظهِر ما كمن»(١).

ولذا كانت الاسترجاع عطية ومنحة اختص الله بها هذه الأمة كما قال **سعيد بن جُبَير** رحمه الله:

«لم يُعْطَ لأَحَدٍ من الأُمَمِ الاستِرجاعُ غير هذه الأُمَّة.. أما سمعت قول **يعقوب**: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]»(٢).

وأما الثواب السريع للاسترجاع ففيه قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللهم أجُرْني في مصيبتي، واخلُف لي خيرا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلَفَ الله له خيرا منها»(٣).

وحدث هذا الإخلاف بخير بالفعل مع راوي هذا الحديث وهي **أم سلمة**، فقالت:

---

(١) تسلية أهل المصائب ١/ ١١ –شمس الدين المنبجي – دار الكتب العلمية.

(٢) شعب الإيمان ١٢/ ١٧٨.

(٣) صحيح: رواه مسلم وابن ماجه عن أم سلمة وأحمد عن أم سلمة عن أبي سلمة كما صحيح الجامع رقم: ٥٧٦٤.



«فلما مات **أبو سلمة** قلتها فجعلت كلما بَلَغْتُ: «أبدلني خيرًا منها» قلتُ في نفسي:

ومن خير من **أبي سلمة**؟!

فلما انقضت عدتها بعث إليها **أبو بكر** يخطبها فلم تُزوِّجه، ثم بعث إليها **عمر** يخطُبُها فلم تُزوِّجه، فبعث إليها رسول الله ﷺ **عمر بن الخطاب** يخطبها عليه قالت:

أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غَيْرى (من الغيرة)، وأني امرأة مُصبِيَة (لي صبية)، وليس أحد من أوليائي شاهدا، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقال:

(ارجع إليها فقل لها:

أما قولك: إني امرأة غيرى فأسأل الله أن يذهب غَيْرَتك.

وأما قولك: إني امرأة مُصبِية فتكفين صبيانك.

وأما قولك: إنه ليس أحد من أوليائك شاهد، فليس من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك)، فقالت لابنها:

يا **عمر**! قم فَزوِّج رسول الله ﷺ فزَوَّجه، فكان رسول الله ﷺ يأتيها ليدخل بها، فإذا رأته أخذت ابنتها زينب، فجعلتها في حجرها، فينقلب رسول الله ﷺ فعلم بذلك **عمار بن ياسر** وكان أخاها من الرضاعة فجاء إليها فقال: أين هذه المقبوحة التي قد آذيتِ بها رسول الله ﷺ فأخذها، فذهب بها فجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها، فجعل يضرب ببصره في جوانب البيت وقال:

«ما فعلت زينب؟!»



قالت: جاء عمار فأخذها، فذهب بها فبنى بها رسول الله ﷺ وقال:

«إني لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحائين وجَرَّتَين وَمِرْفَقَة حشوها ليف».

وقال:

«وإن سَبَّعْتُ لكِ سَبَّعْتُ لنسائي»[1].



افهم معناها!

فلنفهم بقلوبنا مغزى هذا الشعار، وقيمة هذه الكلمات التي تمثِّل خير دواء لأي مصيبة:

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾:

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله، ونقبل منه كل ما يُجري علينا من أقدار، وعلى كل مؤمن أن يعرف حقيقة نفسه وملكيتها، فيقول: أنا مملوك لله وليس لي عنده حق، فما يُجريه علي إنما يُجريه في مُلْكِهِ هو، وخالق الخلق هو مالكهم وأولى بهم من أنفسهم، وهنا لابد أن نسائل أنفسنا:

هل رأيتم أحدًا أفسد ملكه؟

هل سمعتم عن غني بدَّد ثروته بالتضييع والأذى؟!

(١) صحيح: رواه كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٩٣. وفي رواية: «إن شئتِ سبَّعْتُ عندَكِ، ثمَّ سَبَّعْتُ عند سائر نِسائي، وإن شئتِ ثَلَّثْتُ ودُرْتُ»، فقالت: ثَلِّثْ ودُرْ، فمعنى سَبَّعَ: أقام عندها سبعا، وثَلَّثَ: أقام عندها ثلاثًا.



كلا.

إنَّ صاحبَ المُلْكِ يبذل كل ما في وُسعه لإصلاح مُلكِه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر غير ذلك، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن مِلْكٌ له! وهو سبحانه لا يُعرِّض مُلكَه أبدًا للضرر، وإنما يُقيمه بما يصلحه وفقًا لحكمته وحُسْن تدبيره.

قال **السعدي**:

«أي: مملوكون لله، مُدبَّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد: علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك»[1].

وأما قوله:

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي راجعون إليه، وهو إقرار بحتمية الرحيل إلى الله، والبعث للوقوف بين يديه، فإن ظُلِمنا في الدنيا، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه ونقتص من ظالمنا عند الرجوع إلى الله، فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله انتهاء بالرجوع إليه؛ فهو سبحانه ملك الابتداء والانتهاء، ليثيب المحسن ويعاقب المسيء، ولا ظلم عند الله سبحانه، فلا يظلم مثقال ذرة.

فما هي مكافأة الاسترجاع كما ورد في القرآن؟!

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٧٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾.

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدرِّبنا الله عليها لنحمل الدعوة، ونحمي منهج الحق ونهدم دولة المبطلين، وهي -على عظمتها- غاية مرحلية؛ لكنها ليست الغاية النهائية، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لننال رحمات الله وبركاته في الآخرة، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته.

قال سيد قطب:

«إنه لا يعدهم هنا نصرًا، ولا يعدهم هنا تمكينا، ولا يعِدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئًا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يعِدُّ هذه الجماعة لأكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثَمَّ يجرِّدها من كل غاية، ومن كل هدف، ومن كل رغبة من الرغبات البشرية، حتى الرغبة في انتصار العقيدة، كان يجرِّدها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضا الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف وهذه هي الغاية.

وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها..فأما ما يكتبه الله بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء، فهو أثقل في الميزان من كل عطاء..أرجح من النصر



وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين»[1].

وكأن انتصار العقيدة وسيلة للفوز بالصلوات والرحمة من ربك، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلِّم إلى غاية، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وحقيقة الصلاة في كلام العرب أنها أقوال تنبئ عن محبة الخير، ولذلك كان أشهر معانيها الدعاء، فكانت الصلاة إذا أسندت إلى الله أو أضيفت إليه دالة على الرحمة وإيصال ما به النفع من رحمة أو مغفرة أو تزكية، فلله صلاة، وللملائكة صلاة، وللناس صلاة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء.

وذكَرها في الآية بلفظ الجمع ﴿صَلَوَٰتٞ﴾ لأن بعضها يتلو بعضا، ثم قال: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾، مع أن صلاة الله رحمة، لكنه أعادها هنا مع اختلاف اللفظ لتكون أوكد وأبلغ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ وجهان محتملان:

أحدهما: المهتدون إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن.

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٦.

والثاني: المهتدون إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر.



ليست كلامًا فحسب!

وليس الصبر باسترجاع اللسان فحسب، بل وبالقلب بأن يتصور ما خُلِقَ لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكَّر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، ويستسلم له. قال **الطاهر بن عاشور** رحمه الله:

«فالمراد من القول هنا القول المطابق لاعتقاد القلب، وإنما يكون ذلك القول معتبرا إذا كان تعبيرا عما في الضمير، فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل، وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع، وقد علَّمهم الله هذه الكلمة الجامعة لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يُقوي بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحِسِّ، ولأنَّ في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليمًا له للناس»[1].

ولذا اعتبرها **ذو النون** رحمه الله من علامات هداية القلب، فكل من أُلهِم الاسترجاع فقد اهتدى:

«ثلاثَةٌ من أعلام الهدى: الاسترجاعُ عند المصيبة، والاستكانة عند النِّعمَة، ونفي الامتنان عند العطيَّة»[2].

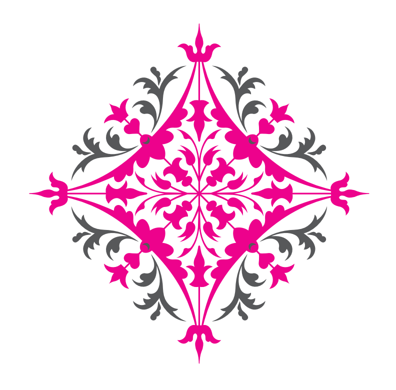
(١) تفسير التحرير والتنوير ٢/ ٥٧.
(٢) شعب الايمان ١٢/ ٣٤.



ولهذا قال الله في وصفهم:

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾

وهو بيان لفضيلة من فضائلهم، فلم تُزعِجهم المصائب، ولم تكن لهم حاجبا عن بلوغ مقام الصبر، لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار، وأما الذين لم يهتدوا فالمصائب سبب اعتراضهم على الله أو كفرهم به، أو التفوه بما لا يليق، أو شكِّهم في ربِّهم، ويقولون لو كان هذا هو الدين الحق لما لحقنا العذاب والمصائب.





إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون

في تفسير هذه الآية قال **ابن عطية** رحمه الله:

«اليأْس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين.. إذ فيه إمَّا التكذيب بالربوبية، وإمَّا الجهل بصفات الله تعالى»[1].

وهذا بخلاف صفة المؤمن الذي يشكر الله عند النعمة، ويرجوه عند الشدة.

وللرازي رحمه الله تعليق لطيف على هذه الآية التي نطق بها **يعقوب** عليه السلام، وهو الذي فقد ابنه **يوسف** أربعين سنة، ومع هذا لم يخالج قلبه يأس ولا قنوط، فأرسلها في أبنائه رسالة خالدة أن لا يأس مع الإيمان، وإنما اليأس سمة الكافرين.

قال **الرازي** رحمه الله وهو يبيِّن علاقة الكفر باليأس في لمحة رائعة لم يسبقه إليها غيره:



«واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا..

اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال.

أو غير عالم بجميع المعلومات.

أو ليس بكريم، بل هو بخيل.

وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا»[2].

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ٢٧٤.
(٢) تفسير الرازي: ١٨/ ١٩٩.



فالمؤمن له صلابةٌ إيمانية تصد عنه أحداث الحياة؛ فالحياة كلها أكدار، وثباتها على حال محال، والدهر أيام، يوم لك، ويوم عليك.

واليأس والقنوط سبب من أسباب فساد قلب العبد.

قال **ابن القيم** رحمه الله وهو يُعدِّد الكبائر:

«فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن»[1].

أخي..

هَبْ أن أسبابك انقطعت، ولم يبق لديك منها شيء، وبذلت قصارى جهدك في تحصيل مطلوبك، ثم لم تبلغ مرادك.. فهل تعلم أن لك ربا قديرا يخرق الأسباب، ويجبر كسر المؤمنين، ويسد خلل المتوكلين، فكيف يتسرَّب بعدها اليأس إلى قلبك؟!

وكيف تذهب نفسك على جهدك حسرات؟!

ومنبع اليأس من رحمة الله أن العبد يجعل قوة الله العليا مساوية لقوة الخلق، فإذا ضاقت به الدنيا وتكاثرت عليه الخطوب أصابه اليأس، لأنه قلبه لم يؤمن حق الإيمان

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ١٣٣.



بالقدرة الإلهية، وغفل عن قوة الله وبطشه وسلطانه، فوقع فريسة لهذه الأوهام، ولذا جاء في الأثر:

«لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ».

وما عزَّ عليك بقانون الأرض، فاطلبه بقانون السماء، وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب وتوكَّل على الله؛ فليثق أن الله يمِدُّه بما هو فوق الأسباب.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

متى يرفع الناس الراية البيضاء؟!

عندما ييأسون، وهذه قمة الفشل ومنتهى الانهزام، ولا قيام للعبد من هذه النازلة أبدا، ولذا قال ربنا:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخوتاه..

لا ينتصر أهل الباطل أبدًا.. فقط الطرف الآخر.. يستسلم!

إنه خبر الوحي على لسان النبي المعصوم ﷺ؛ فإياكم أن تحتار عقولكم فيه؛ وترتاب قلوبكم حوله، فالعقول لها سقف معلوم لا تتجاوزه، وقد لا تعقل ما وراءه، وأما صنائع الله ففوق مُدْركات العقول، فإياكم أن تستغربوها بعقولكم فتجزعوا، وأن تُكذِّبوها بقلوبكم فتيأسوا.





من آثار اليأس!

من آثار اليأس

ترك العمل وانقطاع السير وتوقف السعي والاستسلام للفشل، ورفع الراية البيضاء، وفتح بوابة الفشل والخذلان إذ لا فائدة من المواصلة بزعمه.

قال **ابن حجر الهيثمي** رحمه الله:

«القانط آيِسٌ من نفع الأعمال، ومن لازم ذلك تركها»[1].

ومن آثار اليأس

أنه يُخرج القلب عن سكينته وأنسه إلى انزعاج وقلق وهمٍّ يفتِّت الأكباد ويورث السُّهاد، ويقلب الشاب كهلاً كبيرًا.

ومن آثار اليأس

أنه يعدي! فانتشاره في من حولك انتشار النار في الهشيم، وخاصة لو كنت قائدا أو رمزا يركن الناس إليه عند الملمات، ولذا فطن فقهاؤنا إلى ضرورة انتقاء القادة الأفذاذ لجنود الجيش، ممن لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلاً، وأوردوا ذلك في كتب الفقه ودوَّنوه، وأوصوا به حرصًا على سلامة الجيش

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٢٢.



وطلبًا لانتصاره. قال **ابن قدامة** رحمه الله في وصاياه لأمير الحرب:

«ولا يَسْتَصْحِبُ الأمير معه مُخَذِّلاً، وهو الَّذي يُثَبِّطُ النَّاس عن الغزو، ويُزَهِّدُهُم في الخروج إليه والقتال والجهاد، مثل أن يقول: الحرُّ أو البرد شديدٌ، والمشقَّةُ شديدةٌ، وولا تُؤمَن هزيمة هذا الجيش، وأشباه هذا، ولا مُرْجِفا، وهو الَّذي يقول: هَلَكَتْ راية المسلمين، ومالَهم مددٌ، ولا طاقة لهم بالكُفَّار، والكُفَّار لهم قُوَّةٌ، ومددٌ، وصبْرٌ، ولا يثبتُ لهم أحدٌ، ونحو هذا»(١).

ومن آثار اليأس

أنه يوقع العبد في براثن ظن السوء بربه، «فمن ظنَّ بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيِّده ويؤيِّد حزبه، ويُعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء.

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء»(٢).

(١) المغني ٩/ ٢٠١ – أبو محمد ابن قدامة المقدسي– مكتبة القاهرة.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٠٥، ٢٠٦.



فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا



وهي سنة عرضت لها كثيرٌ من آيات القرآن، فقد أخبرنا الله في كتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾.

فالغيث بعد القنوط، والنصر بعد الاسيئاس.

قال علي رضي الله عنه:

«عسر المرء مقدّمة اليسر»(١).

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾:

قال الزمخشري رحمه الله:

«أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرَّب اليسر المترقِّب حتى جعله كالمقارن للعُسْر، زيادةً في التسلية وتقوية القلوب»(٢).

فبشَّر الله عباده بأن كل عسر لابد وأن يتبعه يُسر، وأكَّد ذلك بإن المؤكدة للخبر، وزاد التأكيد قوة بالتكرير، ثم وسَّع دائرة الفضل ونشر الطمأنينة بما يوحي به تنكير

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار ١/ ٣٣٠.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤/ ٧٧١.



اليُسر وتعريف العُسر، وإن العرب إذا أعادت الاسم بأداة التعريف -وهي الألف واللام- كان المذكور ثانيا هو المذكور أولاً، ولهذا قيل:

(لن يغلب عسرٌ يسرين).

قال **إسحاق بن بهلول** القاضي رحمه الله:

فلا تيأس إذا أعسرت يوما	**فقد أيسَرتَ في دهرٍ طويل**
ولا تظنن بِـرَبِّك ظنَّ سوء	**فـإنَّ الله أولـى بالجميـل**
فإن العُسْـر يتبعه يَســار	**وقــول الله أصدقُ كل قيل**

مع الضيق فرج، ومع الشدة سعة، والبلايا إذا توالت تولَّت، وفي رحم كلِّ ضائقة أجنة انفراجها ومفاتيح حلها، فصنع الله عجيب، وفرجه قريب، ولأن تكون في شدةٍ تتوقع بعدها رخاءً؛ أحب من أن تكون في رخاءٍ تقع بعده شدَّة، وأقدار الله غالبة.

قال **عبد العزيز بن سليمان الأبرش**:

تجري المقادير إن عُسرا وإن يُسرا	**حاذرت واقعها أو لم تكن حَـــذِرا**
والعُسر عن قَدَرٍ يجـري إلى يُسْر	**والصَّبر أفضل شيء وافق الظفرا**

وكلمة ﴿مَعَ﴾ هنا مستعملة في غير حقيقة معناها لأن العسر واليسر نقيضان فاجتماعهما مستحيل، فالمعية هنا مستعارة للتأكيد على قرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره.

ضـاقت ولو لم تضِقْ لما انفـرجت	**فالعُســرُ مفتــاح كل ميســور!**





ضحك ربنا!

إن العباد إذا نزلت بهم شدة فإن كثيرًا منهم يقنطون، وقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل أجل كتابا، ولكل هَمٍّ نهاية، ولكل كرب فرجا، ولكن القوم يستعجلون، والله سبحانه وتعالى يعجب من قنوطهم، ويضحك من قرب فرجه، ففي الحديث:

«ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده، وقُرْبِ غِيَرِه».

فقال **أبو رزين**:

أو يضحك الرب عز وجل؟ قال: نعم. فقال: لن نَعْدَمَ من ربٍّ يَضحك خيرًا[١].

والغِيَر بمعنى تغير الحال، فمن الضعف إلى القوة، ومن المرض إلى العافية، ومن الذل إلى العز، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفقر إلى الثراء، والضمير في **«غِيَرِه»** لله، والمعنى أن الله تعالى يضحك من أن العبد يصير آيسا من الخير إذا نزل به أدنى شر يصيبه، مع قرب تغير الحال من شر إلى خير، ومن بلاء ومحنة إلى سرور وفرحة، فجعل الضحك من الرب سبحانه دليلاً على حصول الخير.

وقوله: **«لن نَعْدَمَ»** أي لن نفقد الخير من رب يضحك.

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده عن أبي رزين كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٨١٠.



قال **السندي** رحمه الله:

«يريد أن الرب الذي من صفاته الضَّحِك لا نفقد خيره، بل كلما احتجنا إلى خير وجدناه، فإنا إذا أظهرنا الفاقة لديه يضحك فيُعطي»[1].

إذا تضايق أمـرٌ فانتظر فرجًا فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وبهذا نطق اللسان النبوي مكرِّرا نفس المعنى وبنفس الكلمات للتأكيد وطمأنة القلوب المضطربة وتثبيت المتزلزلين:

«النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا، وإن مع العسر يسرا»[2].

وسرت كلمات الوحي في دماء الصحابة، وامتزجت أنواره بدمائهم، ففاضت بها ألسنتهم، فلما حُصِر **أبو عبيدة** فكتب إليه **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه نص القانون الذي تعلموه في مدرسة الوحي كتابا وسُنة:

«مهما ينْزل بامرئٍ شدَّةٌ يجعل الله بعدها فرجًا، وإنَّه لن يَغلِبَ عسرٌ يُسرين»[3].

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٨٧. قال **ابن تيمية** في الفتاوى بتصرف: «فالضحك في موضعه المناسب له صفة مدح وكمال، وإذا قُدِّرَ حيَّان أحدهما يضحك مما يُضحَك منه؛ والآخر لا يضحك قط كان الأول أكمل من الثاني، فجعل الأعرابي العاقل -بصحة فطرته- ضحكه دليلا على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال، والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذموم بذلك». مجموع الفتاوى ٦/ ١٢١.

(٢) أخرجه الخطيب في التاريخ والديلمي كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٣٨٢.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٤/ ٥١٨ - دار الكتب العلمية.



تَصَوَّر أخي انجلاء الشَّدة وانكشاف الهموم، فإنَّها مُقدَّرة بأوقات لا تنصرِف قبلها، ولا تستمر بعدها، فلن تقْصُر مدتها بِجزعك بل بصبرك، وكُلَّ يوم يمرُّ يذهب منها بشطر، ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلي فجأة!

ليس من شدة تصيبك إلا ... سوف تمضي وسوف تُكشَف كشفا

لا يضيق صدرك الرحيب فإن الـ ... ـنار يعلو فيها لهيبها ثم تُطفا

والتجارب تشهد لمفعول هذه الآية، وشرط ذلك أن يردِّدها العبد بيقين، ويصدح بها قلبه قبل لسانه، فتنطلق منه سماوية مشحونة بأقوى مشاعر الظن الحسن ومعاني الرجاء في رحمة الله، فتستخلص اليسر من بين أنياب العُسر، وتستعجل الفرج، وهكذا فعل **عبد القادر الجيلاني** رحمه الله فقال:

«ترِدُ عليَّ الأثقال الكثيرة، ولو وُضِعت عَلَى الجبال تفسَّخَتْ، فأضع جنْبي على الأرض، وأقرأ:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

ثمّ أرفع رأسي وقد انفرجت عنّي»[1].

عسى فرجٌ يكون عسى ... نُعلِّل نفسنا بعسى

فلا تقنط وإن لاقيتَ ... هَمًّا يقبض النَّفَسا

فأقرب ما يكون المرء ... من فرَجٍ إذا يئسا

(١) تاريخ الإسلام ٣٩/ ٩٦.



وإن مِن شيء إلا عِندنا خَزائنهُ



شبَّه الله اقتداره على كل شي بالخزائن المودعة فيها الأشياء، المعدَّة لإخراج الكنوز، ومعنى ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي نُخرِجُه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بقدر معلوم، والقدَر المعلوم هو الأجل المعين له هو حسبما تقتضي حكمة الله ومشيئته، وكأنه يعلِّمك أن لا تطلب أي شيء إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبك من غيره طلبٌ ممن لا يملك ولا يقدر.

لا تخضعن لمخلوق على طمع	فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين
واستَرْزِق الله مما في خزائنه	فإنما هي بين الكاف والنون

وهذه الخزائن إما مادية وإما قلبية إيمانية، والإيمان أهم وأغلى وأثمن، فقوت الصبر والثبات واليقين والتوكل والاستقامة كلها لا يملك مفاتيح خزائنها إلا الله، ولولا ذلك لهلك العبد في الدنيا وشقي في الآخرة، ولهذا كان من روائع وجوامع الدعاء النبوي:

«اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك»[1].

وهذا ما يقذف به في قلب كل مؤمن اسم الله (المُقيت).

وأصل المقيت القوت، و«مُقيت» من «قاته» أي أعطاه القوت، لكن لماذا يعطي الله عباده القوت؟

ليحفظ عليهم حياتهم، وإذا تخلف عن العبد هذا القوت لحظة تعطَّلت حياته،

(١) حسن: رواه الحاكم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٦٠.



وفسد جوارحه وأركانه، فإن امتنع القوت عن أي عضو من أعضائه توقَّف عن العمل، فعينك لها قوت لتبصر، ووقلبك له قوت ليضخ الدم في الجسد، ويدك إن لم تنل قوتها لم تقو على رفعها أو تحريكها، وهكذا، وسبحانه لا يُقيت الإنسان فقط ولكن يقيتُ كل خلقه، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات.

وسُمِّي به المقتدر لأنه قادر على إعطاء القوت، ثم صار اسما في كل مقتدر على كل شيءٍ من قوت غيره، كما قال **الزبير بن عبد المطلب**:

وذي ضَغَنٍ كَففْتُ النَّفْسَ عنه وكنتُ على مَسَـاءَتِهِ مُقِيتـــا

وعليه يدل قوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾.

والمقيت كذلك هو المحافظ عليهم من الهلاك بأن يعطي العبد القوت ليظل حيا فهو **(الحفيظ)**، وهو مستعمل في معنى الاطلاع ومتضمِّنٌ لمعناه، وهو مشاهدٌ لعبده الذي لا يغيب عن خالقه لحظة فهو **(الشهيد)**، وبما أنه يعطي القوت للإنسان بحسب حاجته فهو **(الحسيب)**، فهذه المعاني متداخلة ومتلازمة؛ وقد رأينا العلماء ينظرون إلى **(المقيت)** من زوايا مختلفة، وهم جميعا على صواب، سواء من جعل اسم **(المقيت)** من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب، وكل واحد إنما نظر إلى ملمح من ملامح هذا الاسم **(المقيت)** فوصفه.

وأعظم حديث يظهر اسم الله **المقيت** هو قول النبي ﷺ:

«إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة، وإن الصبر يأتي من الله على قَدْرِ



المصيبة»[١].

بمعنى أن العبد إذا تكفَّل برعيته التي وجب عليه رعايتها، فإنَّ الله يعينه بِحَسَب ما عليه من أعباء، فإن كانت رعيته قليلة قُلِّل له زاده ورزقه، وإِن كانت كثيرة أمدَّه الله برزق أوسع.



يد الله ملأى!

وفي الحديث الحاث على الطلب المشوِّق للدعاء الدافع إلى التعلق برب واسع العطاء:

«يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[٢].

يغيض أي ينقص، ومنه غاض الماء إذا غاب في الأرض، والمراد الإخبار بأن الله تعالى لا يُنقِصه الإنفاق، ولا يُمسِك خشية الإملاق حاشاه، وعبَّر ﷺ عن توالي النعم بسَحِّ اليمين؛ والسحَّاء هي الدائمة الصب، فيُقال: سحابة سحوح: أي كثيرة المطر، فلا يُعجزه كثرة ما تطلبون، فإن خزائنه لا تنفد، وعطاياه لا تفنى.

(١) صحيح: رواه الحكيم والبزار والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٩٥٢.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة كما في صحيح رقم: ٨٠٦٦.





وربطنا على قلوبهم!

وهو الربط الذي ربطه الله على قلوب أصحاب الكهف الذين فروا بدينهم، والربط يعني أن تربط على الشيء وتشدَّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تُربَط القِرْبة حتى لا يسيل منها الماء، وتُربَط الدابة كي لا تنفلت، وقد ربط الله على قلوب هؤلاء الفتية ليستمسكوا بالعقيدة والإيمان بالله، فلا يتزعزع مهما كانت الأحداث والشدائد، وقد وردتْ مادة (ربَط) في القرآن كثيرًا، ومنها قوله تعالى في قصة **أم موسى**: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

أي ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله والثقة بوعده الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء، وأي أمٍّ تقدر على أن ترمي فلذة كبدها في الماء لولا قوت الطمأنينة الذي رزقه به (المقيت)؟! ولولا قوت **(الثبات)** ما أطاقت الانتظار، ولانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب لتُلفِت إليه الأنظار:

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

ولكشفت عن الخِطَّة التي أمر الله بها لإنقاذ **موسى** عليه السلام، وهكذا اطمأن قلب **أم موسى** وسكن، ولولا (المقيت) ما سكن.

وهذا دليل على أن خزائن الله تنفتح على قلوب أوليائه دون أعدائه، ولمن يحب دون من يُبغِض، فطوبى لمن أدناه ربه فأكرمه بعطاياه، ويا بؤس من طرده من قربه



وأخزاه.

إنَّ التعبير القرآني ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ يوحي بأهمية هذا الرباط خاصة مع ضعف الإنسان أمام الفتن والخطوب والابتلاء، ولأن الله تعالى يعلم ضعف عباده وشدة حاجتهم إليه، فكان من رحمة الله أن تولى بنفسه إحكام هذا الرباط، وأمدَّهم بقوة من عنده، فأحكم قيد التثبيت على قلوبهم، وشدَّ الرباط الإيماني، فلا ينفذ إليه ضعف، ولا يعتريه وهن، بل هو رباط متين مُحكَم، قد غشيه الحزم والإحكام، وتولاه المولى الكريم بنفسه، ليثبِّت قلوب بني آدم، ويدفع عنهم فتنة الغرور الزائف، عندما ينسب العبد الفضل لنفسه، فكل ثبات ذاتي مآله الانهيار، وكل ثبات من الله مدهش ومصدرٌ للانبهار.

قال **ابن عطية** رحمه الله:

«ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبِه الربط، ومنه يقال: فلان رابط الجأش إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها»[1].

ومعنى ثان:

يفيد ضعف القلب وهشاشته الدالة على هشاشة ابن آدم وضعفه، وأنه لولا تثبيت الله وعونه لهلك ولما قامت له قائمة، فالمعنى أنه لولا أن ربطنا على قلوبهم ما صمدوا ولا ثبتوا.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣-٥٠١ - ابن عطية الأندلسي - دار الكتب العلمية - بيروت.



ومعنى ثالث:

في ﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ تدل على سهولة تفلت القلب، كانفلات الوعاء بلا إغلاق، والكيس بلا إحكام، والباب بلا إيصاد! وفي تخصيص القلب إشارة لسرعة تغير القلب، وأنه أعجب ما في الإنسان، ومفتاح صحوته أو غفوته، ومضغة الجسد التي بصلاحها يصلح الجسد وبفسادها يفسد، وما سُمِّي القلب إلا من تقلِّبه، وفي الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنه ليَغان على قلبي، فأستغفر الله سبعين مرة في اليوم».

ومعنى رابع:

في ﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ وهو احتمالية طروء الانحلال وفك وثاق الرباط بفعل المعاصي وأثر الشهوات، وهنا تنحل عقدة الرباط، وينفك خيطا خيطا حتى ينحل تماما، وحين تبيت الصلابة الإيمانية في أضعف صورها؛ يسقط صاحبها عند أول اختبار.

وإشارة خامسة:

وهي ضرورة الحرص على حراسة القلب، فكأنه يُعبَّأ بالخير ومعانيه كالذكر والعمل الصالح، ويُصان من الشر ومخازيه، فلا يلج فيه ما يُكدِّره ويتسبب في مرضه.

وإشارة سادسة:

في الرباط وهو أنه حفظ إلهي للقلب من التقلب والانهزام والخذلان، حتى إنه ليثبت بفضل الله ثبات الجبال الراسيات في وجه أعاصير الشدائد والمحن.



ادعوني أستجب لكم



كان **خالد الربعي** رحمه الله يقول:

«عجبت لهذه الامة في ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠] أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شرط.

قال له قائل: مثل ماذا؟

قال: مثل قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥] فها هنا شرط.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس:٢] فليس فيه شرط العمل.

ومثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤] فها هنا شرط.

وقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ليس فيه شرط»[1].



وهذا من عظيم فضل الله، فقد حثَّ عباده على الدعاء إشفاقا عليهم، ليوصل إليهم نفع الإجابة وعظيم الكرامة ووابل الفضل والإنعام، وجعل جزاء من استكبر عن الطلب منه نار جهنم، ومن كسل عنه كان مغبون الحظ، فإنه الخير الذي لا عوض عنه، والكنز الذي لا نظير له.

(١) القرطبي ٢/ ٣٠٩.



فعجبا لعبدٍ ذليل يحتفي به ربٌّ جليل، تدخل عليه بلا مواعيد، بل ولا حتى استئذان ولا حُجّاب، لتلقى ملك الملوك متى أحببت وأين ما أحببت!

ولهذا كان **سفيان الثوري** رحمه الله يقول في مناجاته:

«يا من أحبُّ عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا مَن أبغضُ عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك غيرُك يا ربِّ»[1].

وكل من عرف ربه رجاه، وكل من رجاه أنعم عليه بفضله وأدناه، وقد عرفه حق المعرفة **جعفر الصادق** رضي الله عنه، فلما سئل:

ما بالنا ندعو فلا يُستَجاب لنا؟!

فقال:

«لأنكم تدعون من لا تعرفونه»[2].

ومعرفته تكون بالأعمال والأحوال لا بالأقوال!

ومن كان كذلك فهو واثق في إجابة دعائه دنيا وأخرى.

قال **ابن عباس** رضي الله عنه:

«كل عبدٍ دعا استُجيب له، فإن كان الذي يدعو به رزقًا له في الدنيا أعطيه، وإن لم يكن رزقًا له في الدنيا ذُخِر له»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٥٣.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٣٠.



أركان وأجنحة وأسباب وأوقات

لكن للدعاء المجاب أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا.

قال **ابن عطاء** رحمه الله:

«إن للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح؛ فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على **محمد** صلى الله عليه وسلم»[1].

ومن حقَّق هذه الشروط استجاب الله له، ولتكن على ثقة من هذا غير مرتاب، بل موقن تمام اليقين بوعد الله وسنته التي لا تتخلف، ولتتعلم ثقتك هذه من قَسَمِ **أبي عثمان النهدي**! يقول عنه أحد أصحابه:

«كان **أبو عثمان** إذا دعا ودعونا يقول:

والله لقد استجاب الله عز وجل. قال الله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾»[2].

وحسبك أن الله يغير مقادير الكون ويغيِّر الأقدار من أجلك إذا أخلصت في

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٣١١.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ١١٨.



دعائك، وحديث **ثوبان** رضي الله عنه يبشِّر:

«لا يردُّ القدرَ إلاَّ الدعاءُ»[١].

وهذا دليل على أنَّ الله سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد، وأن الدعاء من أعظم الأسباب التي يستند إليها العبد، وفي العصور المادية الزاحفة يغفل كثير من الناس عن القوة العظمى والجبروت الإلهي، فينسى الدعاء أو يحتقره.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله:

«ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتِّكالاً على القَدَر كان مخطئا؛ لأنَّ الله جعل الدعاءَ والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرتُه ورحمتُه وهداه ونصرُه ورزقُه، وإذا قدَّر للعبد خيرًا يناله بالدعاءِ لم يحصل بدون الدعاء، وما قدَّره الله وعلِمَه من أحوال العباد وعواقبهم، فإنَّما قدَّره الله بأسبابٍ يسوقُ المقاديرَ إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلاَّ بسبب، والله خالقُ الأسباب والمسبَّبات»[٢].



ولو بعد حين!

فائدة في الحكمة من تأخير الإجابة: تحت هذا العنوان كتب **ابن الجوزي** رحمه الله قائلاً:

«نزلت بي نازلة، فدعوت، وبالغت، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟!

(١) حسن: صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٦٣٨.
(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ٦٩، ٧٠.



فقلت له: اخسأ يا لعين! فما أحتاج إلى تقاض، ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو، لكفى في الحكمة.

قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة! فقلت:

الأول:

قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني:

أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة، والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة في ما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث:

أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ:

«لايزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي!».

والرابع:

أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة



منه، فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلك تقعي بالمقصود.

والخامس:

أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح، وقد روي عن بعض السلف: أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت أُسِرتَ، وإن أُسِرتَ تنصَّرت!

والسادس:

أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللجأ، وحصوله سببًا للاشتغال عن المسئول، وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة، ما رأيناك على باب اللجأ، فالحق -عز وجل- علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طَيِّ البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه، ففيه جمالك.

وقد حُكيَ عن **يحيى البكّاء** رحمه الله أنه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال: يا رب! كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال:

يحيى! إني أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، مِن رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب»[1].

(١) صيد الخاطر ١/ ٨٢، ٨٣.



ولينصرنّ الله من ينصره



هذا قَسَمٌ من رب العزة جل جلاله، ولذلك كانت اللام ونون التوكيد الثقيلة، وكان القسم من ذي العزة والجلال أن ينصر من ينصره بأن ينصر دينه ويطيع أوامره، ويجتنب نواهيه، ويكون معليا لكلمة الحق والإيمان ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

والكل اليوم يتساءل:

متى نصر الله؟

أما آن لهذا الليل أن ينجلي؟

أما آن للفجر أن ينبلج؟

أما آن للقيد أن ينكسر؟!

لكن لا نسائل نفسنا مخلصين:

ما دورنا في انجلاء الظلمة وانبلاج الفجر وتحطيم القيد؟!

ألا فليعلم كل من خالف أمر ربه وعصاه أنه رجَّح كفة الأعداء على حساب أمته.

وليعرف من أعرض عن أوامر الله أنه يُثخِن الجراحات في جسد الأمة، وكل جرح بحسب قدر الذنب وانتشاره، فصاحب الكبائر المجاهر بها أكثر إثخانا في جسدنا وإضعافًا لنا، وليعلم كذلك كل من يتهاون في نصح غيره تاركًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات أنه يطيل زمن التيه والكربات.

إن كل واحد منا اليوم مدعوٌّ لأن يزن نفسه بميزان العمل والإصلاح ليعرف هل



هو خصم لهذه الأمة أم موالٍ لها.

هل والى أعداءها بمعاصيه وباعد نصرها؟!

هل أطال ليلها أم صاغ فجرها؟!

هل شقِيَت به أمته أم سعِدت؟!



مِنْ عِند أنفسكم!

قال الله تعالى في مصاب المسلمين يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥].

أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، أنتم السبب في ما أصابكم.

وقد جاءت صيغة التأكيد عن طريق الإتيان بالضمير في الإجابة: ﴿هُوَ﴾، وبالإتيان بالظرف وهو ﴿عِندِ﴾، وبالتعبير بقوله ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة مراجعة النفس ومحاسبتها، وما نسميه اليوم بالمراجعة الذاتية، فقد أراد الله سبحانه أن يعلِّم المسلمين دروس الهزيمة مما يتمكنون به من تجنب أسبابها في المستقبل.

فهل تدرون ما هذا الذي كان من عند أنفسهم؟!

إنها معصية واحدة بمخالفة أمر رسول الله ﷺ في أمر تنظيمي، ومع أنها كانت بتأول، لكنها أحاقت بالمسلمين هزيمة قاسية؛ حتى إن الرسول ﷺ شُجَّ رأسه،



وكُسِرت رباعيته، وسقط في حفرة، حتى أحاط به الصحابة يدفعون عنه أذى المشركين، وكل ذلك كان بسبب معصية خمسين رجلا من جيش من المسلمين قوامه سبعمائة صحابي لا ملايين البشر! فما أشد شؤم الذنب وعقوبة المعصية!

رماة خالفوا رسول الله ﷺ والموت يقطف الرؤوس من حولهم، وفي أمرٍ لهم فيه تأويل، ونحن نخالف أمره في اليوم والليلة مرات ومرات، ثم نستغرِب تتابع الهزائم!

ومن تأمَّل هذه الواقعة عرف خطورة الذنب، ودوره في حلول النكبات وتوالي المصيبات.

قال **ابن القيم** رحمه الله:

«ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِي عليه وأوذي وتسلَّط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح»[1].

وليس هناك أشد تدميرًا لمستقبل الأمة ولا جلبًا لخيبة الأمل ولا تعكير الصفو مثل المعاصي والذنوب. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾.

قديرٌ على ماذا؟

قدير على إهلاك أعدائهم، لكن جرت سنته أن يكون ذلك بأيدي المؤمنين، وذلك إن أخذتم بالأسباب المادية الإيمانية، وسايرتم سنن الله الكونية.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢.





لا تستبطئ النصر!

ولعلَّ أحدنا يكون عقبة في طريق النصر، ويكون مسئولاً عن تأخيره، وليس هذا بالداء الجديد، فإن صلاح الدين كان قد استبطأ النصر بعد حصاره للصلبيين فى عكّا ثلاث سنين متصلة، فأرسل إليه القاضى **الفاضل أبوشامة** ﵀ قائلاً:

«إنما أُتينا من قِبَل أنفسنا!

ولو (صدقناه) (لعجَّل) لنا (عواقب) صدقنا!!

ولو (أطعناه) لما (عاقبنا) بعدوّنا!!

ولو (فعلنا) (ما نقدر عليه) من (أمره)،(لفعل) لنا ما(لا نقدر عليه) (إلا به!!)

فلا (يستخصم) أحد إلا (عمله!!)

ولا (يلُم) إلا (نفسه!)

ولا (يرجُ) إلا (ربه!)

ولا (تنتظر) (العساكر) أن (تكثر!)

ولا (الأموال) أن (تحضر!)

ولا (فلان) الذى يُعتقد عليه أن(يُقاتل!!)



ولا (فلان) الذى (ينتظر) أنه (يسير!!)

فكل هذه مشاغل عن الله!!

ليس النصر بها!!

ولا نأمن أن يكلنا الله إليها!!

والنصر به واللطف منه والعادة الجميلة له

ونستغفر الله -سبحانه- من ذنوبنا

فلولا أنها مسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل

وفيض دموع الخاشعين قد غسل

ولكن فى الطريق عائق!!

خار الله لمولانا فى السابق واللاحق»[1].



عادة الخلق النسيان

لكن عادة الخلق نسيان ما كان منهم من الخطأ والعصيان، والرجوع إلى اتهام الأقدار وقلة الحظ في ما نزل بهم من المحن والخسران، متناسين أن من درج على الإجرام فلا عجب أن تتخطفه سيوف الانتقام، وقد نبَّه **ابن القيم** رحمه الله الغافلين، وعرَّف من أصابته

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢ بتصرف.



نوبة النسيان من العاصين أن الإحصاء شديد والحساب قريب، فقال:

«فما سُلِّط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلَّط عليه مُؤذٍ إلا بذنب»[1].

وإن الطمع في النصر دون الأخذ بأسبابه من طاعة الله واجتناب معاصيه لهو طمع السفهاء، وهو شبيه بطمع العقيم في الولد، وطمع الزُرّاع في الثمار دون غرس، وطمع التاجر في ربح التجارة بغير اتجار.. وهم!!



كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال **هرقل** وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم:

ويلكم!

أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم؟

قالوا: بلى.

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢ بتصرف.



قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من عظمائهم:

من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

فقال: أنت صدقتني[1].

ما أيسر النصر على الله.. وما أصعبه بجهودنا وقوتنا..

نصر الله مستتر في ثنايا كلمة كن..

لكن من وراء هذه الكلمة.. جهد جهيد وبذل طويل..

وإلا فبالله..

كيف ترجو من الله فتوحات تشبه المعجزات، وأنت لم تقدِّم له من نفسك أعظم القُرُبات، ولا أريته منك صدق المجاهدات!

كيف؟!

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٥ ط دار الفكر.



ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضهم ببعضٍ
لفسدتِ الأرض



ذيَّلت هذه الآية العظيمة كل الوقائع العجيبة التي أشارت لها الآيات التي تحدثت عن الصراع بين طالوت وجالوت، «ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية»[1].



لكن.. لماذا تفسد الأرض؟

تفسد الحياة بفساد أهلها، وفسادُهم بالظلم والعصيان ومخالفتهم أمر ربهم، ودفع الله الناس بعضهم ببعض يوحي بأن أناسًا ألفوا الفساد وأُشرِبوه، وفي المقابل طائفة نجت بنفسها من الفساد، ولم يكتفوا بذلك بل قاوموه وحاربوه، وهؤلاء هم أهل الإصلاح وورثة الأنبياء.

ومثل هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

فهاتان الآيتان جاءتا في سياق الجهاد والدفع، ومن مقتضى العمل بهاتين الآيتين: أن إذا ظهر صاحب الباطل وأظهر باطله، فإن على أهل الحق أن يتصدوا لهذا المبطل ويدفعوه بالحق، وإلا فسدت الأرض.

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٠٠.



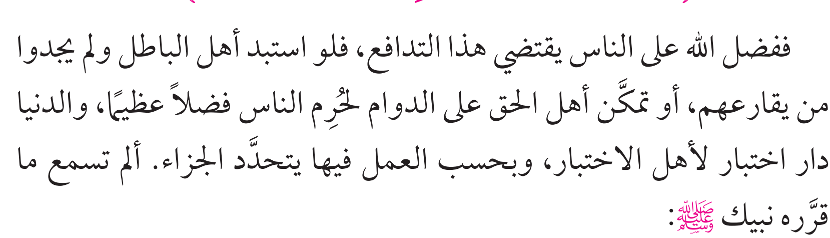
وقد ربط الله صلاح الأرض بالتدافع، فلو توقف هذا التدافع لحظة لفسدت الأرض، فالصراع سُنة ماضية، ولو تغلَّب الحقُّ على الباطل على الدوام لم يكن لاختبار الناس معنى، ولا للدنيا مغزى؛ لأنها الناس كلهم كانوا سينحازون لمعسكر الحق، ولن يبقى مع الباطل أحد!



وكذلك لو تغلَّب أهل الباطل في الأرض، فلم يبقَ للحق صوت ولا سلطان، لحلَّ سخط الله ومقته على أهل الأرض كما يحدث آخر الزمان، ففي الحديث أنه إذا لم يبقَ في الأرض إلا شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة.

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].



ففضل الله على الناس يقتضي هذا التدافع، فلو استبد أهل الباطل ولم يجدوا من يقارعهم، أو تمكَّن أهل الحق على الدوام لحُرِم الناس فضلاً عظيمًا، والدنيا دار اختبار لأهل الاختبار، وبحسب العمل فيها يتحدَّد الجزاء. ألم تسمع ما قرَّره نبيك ﷺ:

«وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»؟!



فلابد أن يقف في وجه الحق أقوام، ويواجه الباطلَ أقوام، ولذا كان الصراع بين الحق والباطل قديم قِدَم الدنيا، وباقٍ إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

هي سنة الصراع، -كما يسميها بعضهم- أو سنة المدافعة، أو سنة الخصومة، وهي سنة جارية في الكون بين المؤمنين والكافرين، بين أهل الحق وأهل الباطل، بين أولياء الله وأعدائه، وقد جعل الله الدنيا مسرح هذا التدافع، ولذا سطَّر **ابن خلدون** رحمه الله في تاريخه وقرَّر رحمه الله ما يلي:

«اعلم أنّ الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصّب لكلّ منها أهل عصبيّته فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطّائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعيّ في البشر لا تخلو عنه أمّة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إمّا غيرة ومنافسة.

وإمّا عدوان.

وإمّا غضب للهّ ولدينه.

وإمّا غضب للملك وسعي في تمهيده»(١).

وحتى على نطاق الأفراد لا الجماعات يظل التنازع قائما، فسنة الصراع جارية ولو كنت معتزلاً على رأس جبل!

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ١/ ٣٣٤ - ابن خلدون - ط دار الفكر.



وابن الوردي صدح بهذا في قصيدة له هاتفًا:

ليس يخلو المرء من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس الجبل

فمهما طمعت في السلامة ولو كنت وحدك فهيهات، وسيظل الاختلاف سنة ماضية، والتباين سمة الحياة، والصراع والحرب جزء من الحياة البشرية لا تنفكان عنها بحال، وغارق في الأوهام من يظن أن الحق منتصر بالحوار فحسب، وأن الباطل يُخلي عرشه للحق ليتربَّع عليه في سلام، وأن منهج السلامة والهروب من الصراع يمكن أن يُفضي إلى سيادة أو ريادة.



ميادين الصراع!

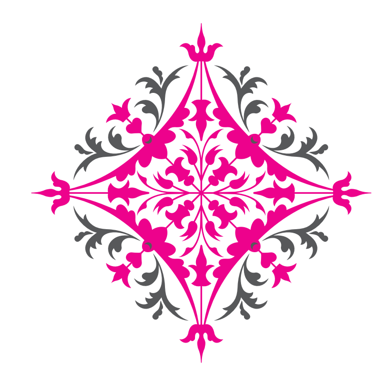
وصراع الحق والباطل يبدأ من الكلمة، ويمتدُّ إلى صراع الأفكار والمبادئ، ومن أدواته الكتاب والدرس والمحاضرة، وليس ميدان الصراع ميدان القتال فحسب، بل نحن اليوم في منازلة مع الباطل في كل الميادين:

- ففي الاقتصاد منازلة بين دعاة الحق ودعاة الربا والكسب الحرام.
- وفي الاجتماع منازلة بين دعاة الحياء والعفاف ودعاة الرذيلة والانحراف.
- وفي الإعلام منازلة بين الإعلام الهادف وإعلام الشهوات والنزوات وتتبع العورات.
- وفي السياسة منازلة بين أصحاب مبدأ (الغاية تبرِّر الوسيلة) وأعداء هذا المبدأ.



- وفي الفن جولات وصراعات.

وفي كل ميدان من ميادين الحياة اليوم منازلات حامية ومعارك ضارية، ولعلها في حقيقتها أعظم خطرا وأشد فتكا من المعارك العسكرية، ولا يدرك ذلك إلا العالمون ببواطن الامور، العاقلون بسنن الله الماضية عبر العصور والدهور.




بينَ القاتـل
والمَقتُـولَ!



تخيل معي هذا المشهد..

أبصِره اليوم بقلبك..

قبل أن تعيشه واقعًا في الغد بنفسك..

ملائكةٌ بلا حصر..

يصطفون في صفوف مترامية على مدِّ البَصَر..

وَسَط حالة من السكوت المخيف والصمت المذهل المشوب بالوجل..

حينها..

تذهل كل مرضعة عما أرضعت..

ويسود الصمت القاتل في جموع المرتجفين..

ولا يبقى سوى لغة النظرات والهمسات..

وفشا الخبر!

أن الله –جلَّ في عُلاه– قد غضِب غضبًا لم يغضب مثله قط.

وسمع الناس صوتًا عظيمًا قادمًا من بعيد..

فإذا بها جهنم!

أضخم ما خلق الله

يجرها الملائكة في صعوبة بالغة..



أمام العيون الزائغة والقلوب الخائفة..

ومن ضخامتها أن خلق الله لها سبعون ألف زمام..

كل زمام يجرُّه سبعون ألف ملَك..

وصوت زفيرها يتصاعد وهي مقبلة..

يبث الرعب في القلوب..

ويُسمَع غليانها الذي يعبِّر عن شراهة لأن تلتهم ما كُلِّفت به من البشر..

وألسنة النار منها تتصاعد..

وكل لسانٍ ينادي من وُكِّل به..

باسمه واسم أبيه واسم أمه..

ويسود الفزع أكثر وأكثر..

فكلٌّ من رآها فرَّ..

وسقط على وجهه..

لا يلوي على شيء من شدة الهول..

من أخيه يهرب..

من أمه وأبيه يهرب.

فالكل مشغول بنفسه..



ولا أحد يستطيع دفع الضُّر عن نفسه فضلاً عن غيره..

والناس في فزع يتصارخون..

نفسي.. نفسي..

وحينها يبحث الكل عمَّن يشفع لهم من الصالحين والأتقياء..

وليس أتقى من الأنبياء؟!

فيبحث الناس جميعًا عنهم في لهفة..

وحين يلمحون أثر نبي..

يتدافعون نحوه يلتمسون الغوث..

لكنهم ويا للمفاجأة يسمعون منه نفس الكلمة:

نفسي.. نفسي..

ونبيًا تلو نبي...

يصيح بنفس الكلمة..

وهنا تنكسر القلوب وتتحطَّم..

ويتزايد الرعب ويتصاعد..

إن كان هذا حال الأنبياء فما حال الأشقياء؟!

ثم يسمعون النداء..



يا أصحاب الدماء..

يا أصحاب الدماء..

فيكبِّر الآلاف..

لبيك ربنا!

ويخرج أول ما يخرج الشهداء..

ولماذا يتقدَّم الشهداء؟!

لكرامتهم عند الله..

ولأن أول ما يُقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء.

وترتفع الصرخات لدى الجليل..

القصاص..

يا رب القصاص!

لكن من الذي سيجد القتلة وسط هذا الزحام؟!

وهم مثل حبات الرمال المتناثرة في الصحراء الشاسعة!

من يستخرج المجرمين من وسط هذه الأمواج المتلاطمة من البشر والوحوش والإنس والجن..

من يأتي بهم وهم الغارقون في هذه الأمواج المتدافعة في ساحة الحشر؟!



وهنا يأمر الله ملائكته أن أحضروهم..

فتطير الملائكة على الفور..

تجذب القتلة المنتشرين بين الناس من أعناقهم في شدة وعنف!

تضرب وجوههم وأدبارهم.

فلان بن فلان..

كلُّ من قتل..

أو شارك..

أو أعان..

بوشاية..

بشماتة..

بكلمة..

بل ولو بشِقِّ كلمة..

من النواصي يُسحبون..

وصراخ كل واحد منهم يعلو في جنون:

ليتني كنت ترابًا..

ما كنا غير أتباع لهؤلاء المجرمين الذين أضلونا وأضاعونا.



يا رب..

إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا..

يا رب..

يا رب..

إلى أن يختفي الصوت!

ويا لها من حسرة ما بعدها حسرة..

تخاصم أهل النار..

وتأبى عدالة الله إلا أن يكون القصاص بين يديه سبحانه!

لا يوكِّل فيه أحدًا من ملائكته..

بل يتم القصاص تحت العرش مباشرة!

تكريمًا لهؤلاء الشهداء!

وتعظيمًا لحرمة الدماء!

وانتقامًا من القتلة الأشقياء!

فيجيئ المقتول في مشهد رهيب!

يجيئ كل مقتول على حِدة!

فجريمة القتل أعظم من أن يتم المجازاة عليها بالجملة!



يقبض على قاتله..

يمسك به من ناصيته..

وأوداجِ المقتول تشخب دمًا..

ويقف الاثنان تحت العرش مباشرة..

بين يدي رب العزة والجلال..

والقوة والجبروت..

وعندها يصيح المقتول:

يا رب..

يا رب..

سل هذا فيم قتلني!

ويأتي القرار الإلهي الصارم:

تعِسْتَ!

ويُذهَب به إلى النار

ليذوق الانتقام الرباني!

وتتساقط دموع القاتل حسرة وخوفًا..

وتتساقط دموع الشهداء.. والثكالى.. والجرحى فرحة وأنسًا..



فقد رأوا من قَتَلهم يقتص الله منه..

ثم ينادون وقد سكنت قلوبهم في لهفة ورجاء:

يا رب..

قد لقينا ما وعدتنا يا ربنا حقا..

صدقتنا ما وعدتنا..

فهل تأذن لنا يا ربنا الآن في رجاء آخر؟!

لبيك عبدي!

يا رب..

تأذن لنا في الشفاعة؟!

فيقول:

قد أذنت..

فيطير الشهيد باحثًا عن زوجه التي ظلت تبكي فراقه كل ليلة منذ فارقها..

ويطير إلى ابنه الذي كان يَسأل عنه بعد أن مات فيجيب ببراءة الأطفال:

(بابا عند ربنا!).

وأبواه اللذان فقدا طعم العيش ولذة الحياة بعد فراقه..

هؤلاء أسعد الناس بشفاعته..



ويسمعون صوت ملك الملوك مهنِّئًا.. مبشِّرًا..

معلنًا علو درجتهم ورفعة مقامهم:

إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون..

هم الفائزون بصبرهم..

كما أن قتلتهم هم أعظم الخاسرين بظلمهم وبطشهم..

وقُضِي بينهم بالحق..

وسُمِع الصوت يملأ الأرجاء..

يطرق أسماع أهل الجنة فيملؤهم فرحة..

ويطرق أسماع أهل النار فيملؤه حسرة..

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين



الفهرس


ينابيعُ الرجاء


ينابيع الرجاء


ينابيع الرجاء

